# إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الثاني عشر

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر .
- ط١. - الرياض: ع . ع . الخويطر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٦م .
مج ١٢ : ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم .
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ١٢)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي - مجموعات . ٢ - الحكايات العربية .
٣ - السعودية - المقالات العربية .
أ ـ العنـــــوان .

رقم الإيداع : ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ١٢)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقـــدمة

هذا الجزء الثاني عشر من كتاب «إطلالة على التراث»، أعان الله ـ سبحانه وتعالى ـ فتم، ولحق بالأجزاء السابقة؛ وجاء شبيهاً بها في خطته، ومثيلاً لها في نهجه، ومتجانساً معها في أسلوبه؛ هدفه مثل أهدافها، ومراميه لا تختلف عن مراميها؛ وإن تغير فيه أمر، انفرد به عنها، فهي المواضيع التي تطرق إليها، والمباحث التي عالجها، والأفكار التي تعرض لها.

وما تعرض له هذا الجزء من مواضيع، وما تطرق له من مباحث، روعي فيه فائدة القارئ في جوانب التراث؛ أملاً في أن يجد فيما يعرض من النصوص ثوباً غير ثوبها، ولوناً غير لونها؛ فقد لُمِستْ النصوص لمسات تُعَرِّف بالتراث، وتكشف بعض غوامضه، وتبين الأصل فيه، وما قد يكون دُلِّس، أو أضيف، أو زور، أو افتعل، أو نحل؛ وتحاول

الدراسة أن تكشف ما قد يكون كامناً خلف هذه الأفعال، مما قد لا يتبين إلا بالفحص والتدقيق، وما قد لا يكشفه إلا المتابع المقارن، والحفيّ الموازن.

وحقيق بمن يأمل أن يستفيد من التراث أن يكون متأنياً في سيره، مطمئناً في خطوه، متثبتاً في رأيه، دقيقاً في فحصه، متجرداً في نظرته، بعيداً عن التأثر، نائياً عن التحيز؛ لأن بعض النصوص بما فيها من وقع على العاطفة، وتأثير على النفس، قد يوقع القارئ في حبائل الكُتَّاب دون أن يدري؛ إذ قد يسوقونه عن طريق العاطفة إلى الحماس لجهة ضد جهة، وقوم ضد قوم، أو فئة ضد فئة؛ ويأتي هذا عن طريق تحريك كوامن الحب أو البغض، أو الشفقة والرحمة، تجاه قبيلة ما، أو أسرة من الأسر، أو عنصر من الأمم.

ولقد تعب أجدادنا على جمع ما جمعوا، وتحصيل ما دونوا؛ ولم يكن اقتناص المعلومات في زمنهم سهلاً، ولا صيد الأخبار يسيراً؛ ولم يكن الورق متاحاً، فإذا ما وجد فبسعر عال، وثمن غال؛ وقد لا يكون

النوع الجيد متوافراً، فقد يوجد وصفحاته خشنة، تحتاج إلى صقل وتهذيب؛ ومع هذا فقد أوجدوا من الورق أنواعاً، وجعلوا لكل صنف من الورق نوعاً مما يكتب، فلم يخلطوا ما هو لهذا بما هو لذاك، فهذا موضوع شريف، وهذا موضوع وضيع، وهذا الإنسان نبيل، عالي المقام والجاه، وهذا الرجل من عامة الناس.

والحِبْرُ له مقام عند الكتاب في ذلك الزمن، وقد توارثت الأجيال بعدهم هذا الالتفات، وأخذوا منهم هذه العناية؛ وقد تعب أجدادنا على صنع الحبر، وإتقان ذلك، فجاء منه الجيد الذي قاوم الزمن، واحتفظ بوضوحه وصفائه؛ ولم يكن الحبر متيسراً في زمنهم، ولا تحضيره سهلاً، كما هو اليوم، وكان أغلب الكتاب يقومون بصنع ما يحتاجون إليه بأنفسهم، وقليل منهم من يشتريه مهيأ معداً.

وإنهم وإن وجدوا راحة في الكتابة في النهار، لوجود ضوء الشمس، إلا أنهم في الليل ليس لهم إلا

الشمع والسرج، وليس كل الناس يجد الشمع أو السراج، وإن وجد أحدها فبشكل غير مجزٍ في ضوئه؛ هذا مع ما في الزيت من رائحة مزعجة.

ومع هذا تركوا حصيلة وافية من الكتب ملأى بأوجه متعددة من التراث؛ ولولا ما فعله المغول بالتراث المدون من حرق وإغراق، لكان اليوم عندنا أضعاف أضعاف ما هو متوافر في مكتبات العالم.

أما نحن اليوم فما أسهل الأمر لنا: قلم يملأ خزانه كلما فرغ، بطريقة سهلة ومريحة، أو ينبذ خزانه ويحل محله خزان معد مختوم؛ ومن الأقلام ما يحذف بعد أن يجف حبره، لتدني سعره، وتهيئته للنبذ والطرح؛ وهذا قلم حبره سائل، وآخر حبره جاف؛ وهذا رأسه حديد لا يصدأ ولا يتآكل، وهذا رأسه فرشاة لينة، تدرج على الورق كأنها قطاة.

أما الورق فصقيل، وله ألوان وأشكال وأحجام، لا يكاد يحصى من ذلك شيء؛ وحتى السَّماكة لها نصيب من التعدد والأختلاف، وحسب رغبة

الكاتب؛ وهناك المطابع، وهي الحدث المهم في قفزة الحضارة الحديثة، بما فيها من أنواع الحروف المختلفة، والأشكال المتباينة، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1].

وفي هذا الجزء، مثلما في غيره من بعض الأجزاء المتأخرة من كتاب: «إطلالة على التراث»، جاءت المواضيع مسهبة، أملاً في زيادة الفائدة في كل موضوع تطرق إليه البحث. وكالمعتاد أيضاً اقتصر ما نشر منه في صحيفة «عكاظ» على جزء يسير، مراعاة لصغر المساحة المخصصة للمقال كل يوم سبت؛ وقد أشير إلى العدد المنشور فيه المقال وتاريخه في هامش مطلع كل موضوع، ونبه إلى بدء الجزء المضاف بعد ذلك.

وقد دعا إلى الإسهاب ـ بعد أن كان فُضِّل الاقتضاب ـ رغبة بعض القراء، الذين أعتز برأيهم، وأهتم باقتراحاتهم، وأعطي وزناً لملاحظاتهم؛ فقد رأى بعضهم أن المقال في بدء كتابة المقالات، وفي الأجزاء الأولى المطبوعة من «الإطلالة»، لا يشفي الغليل؛

(١) سورة النحل، الآية: ٨.

لأن القارئ عندما يبدأ بالقراءة، ويتذوق الموضوع، يجده انتهى، وهو لا يزال في شوق إلى المزيد، ويشعر أن هناك مما ترك ما هو مهم ومفيد؛ لهذا عُمِد إلى الإطالة، بقدر ما يسمح به الموضوع، والنصوص المجتمعة.

وقد روعي في هذا الجزء ما روعي في غيره من مناسبة الحجم، وكبر الحرف، وحسن الورق، وتعدد الفهارس، ورصد المصادر والمراجع؛ ليسهل على القارئ تناول ما به من آراء، والوصول إلى مظان النصوص في المصادر المختلفة، إذا ما احتاج إلى الإزدياد منها، أو التأكد من نص فيها، أو مقارنة النص بآخر.

وقد يجد القارئ أني في بعض الأحيان أركز على مرجع واحد بعينه في موضوع بذاته، وهذا أمر مقصود، وفيه تلميح إلى أهمية هذا المصدر، وإشارة إلى أن فيه أكثر مما اقتبس؛ ومع هذا دعاء خفي أن يوفق الله القارئ لمعرفة قيمته، فيختاره، ويكون

أمامه في مكتبته، يركن إليه بين آن وآخر، فيجد الراحة في روضه، والمتعة في وِروده وأزهاره.

والتركيز على كتاب واحد يعني، في أغلب الأحيان، أن هذا الكتاب من أوفى الكتب في الموضوع المعروض، أو أنه من أيسرها توافراً في المكتبات المتاحة، أو لعله من أفضلها، لأنه السابق لفتح الباب في هذا الجانب من الفكر، فجاء به ابتداعاً، أو اللاحق فيه، فجمع آراء من قبله، فكان له الفضل ـ بعد الله ـ في جمعها في كتاب واحد، وفي المحافظة عليها من التشتت أو الضياع؛ فكثير من الكتب اختفت، وضاع ما فيها، إلا ما نقله كتاب آخرون، بقيت كتبهم، وبقي المُقْتَبَسُ معها.

وفي هذا الجزء من مساقط اللذة في التراث قصص تبرق بالعاطفة الإنسانية النبيلة، والتصرف الدافئ تجاه أناس احتاجوا إلى مثل هذا من آخرين حباهم الله بالقدرة على التغلب على أنفسهم في مواقف احتاجت إلى هذا، وفي مثل هؤلاء قدوة اليوم وقبل

اليوم، وفي هذه المواقف يبرز صفاء النفس، وضياء القلوب من أناس منّ الله عليهم بالتغاضي، والمقدرة على التسامح، أو إفادة الناس بما قل أن تجود به النفس، لقيمته، أو لصعوبته، ولقد ضربوا مثلاً منيراً لمن حولهم، فصاروا على الألسنة مدحاً، وسجل عنهم ذلك، حتى اخترق الزمن، ووصل إلينا اليوم لنفخر به وبهم.

وفي هذا الجزء لمحة عن التجارة في الماضي، وكيف كان الناس ينظرون إليها، وما يشاركون به تاجر اليوم من استقامة أو اعوجاج، وفيه ما يكشف عن أنفس الناس، وما يكمن داخلها من خير وشر، وكيف أن ذلك ليس مقصوراً على زمن، فهناك ملامح نراها اليوم حسناً أو قبحاً من التجار، تبين أنها كانت تطل بين آن وآخر في الأسواق في تلك الأزمان، وفي بعض القصص الواردة متعة للقارئ، لأنه يرى فيه بعض ما يراه اليوم من غش وتزوير وتدليس، وكشف لذلك، أو حذر منه. وفي بعضه

مظاهر أنفس مضيئة تنبّه إلى العيب الخفي، والخلل المستكن، لتبرأ ذمتها، فيكون في هذا، وفي حسن النية، ما يجعل السلعة تروج، فيقبل العيب وكأنه ميزة. وفي هذا المقال ما يكشف تصرف الناس والحكام في أيام الشدة وغلاء الأسعار، وانعدام السلع.

والمقال الذي عنوانه ظاهر وباطن احتوى على مواقف تكشف داخل نفس الإنسان، واختلاف الناس في تصرفهم تجاه الأمور، فالظاهر من تصرف الناس قد يغش الرائي فيتصرف في ضوء ذلك تصرفاً يختلف عنه فيما لو عرف باطن الأمر؛ وكثيراً ما أوقع هذا المظهر الموهم الناس في الزلل؛ وكانت نتيجته لهم غير حميدة، وجاء الرد قاسياً فعلاً أو قولاً؛ وكثيراً ما أصبح المرء بسبب هذا الخطأ مطالباً بالحق بعد أن كان يُطَالِبُ به، فانقلب الشيء خلاف ما أريد له، وخسر من ظن أنه رابح، وربح من كان يظن أنه الخاسر. وكثيراً ما فغرت الأفواه، وعلت الوجوه الدهشة عندما كشف الباطن، وأظهر المخفي؛ وقد

يستولي ظن على بعض الناس سنوات عديدة، فيزول هذا الظن فجأة، لأن نوراً شع، فأضاء ما كان مظلماً، وأنار ما كان داكناً.

والكرم والجود، والشح والبخل أمور لا يخلو منها زمن من الأزمان، ولكن أهل الأزمنة يختلفون، فبعضهم يسجل ما يراه أو يتصوره، وبعضهم يتمتع به في وقته، ثم يطويه الزمان مع أهله، فلا يعرف منه شيء؛ ومن حسن حظ بعض الأزمنة أن أجدادنا فيها اعتنوا ببعض ما مر بهم فسجلوه، وبعضه قاسوا عليه، وركبوا عليه قصصاً ترسم بوضوح بعض الجوانب التي تصوروا أنها يمكن أن تقع قياساً على ما وقع فعلاً في زمنهم؛ وفي بعض ما سجلوا ما يوحي بالمغالاة، ولعل هدفهم الوعظ في الإقناع بفضائل الكرم والجود، وما يأتي به من فائدة، وما يترك لصاحبه من ذكر حسن؛ ومثل ذلك التنفير من البخل، وما يجر على صاحبه من ذم. وقد دخلوا في أعماق الكريم ووصفوا الدوافع التي تدفعه إلى البذل،

وتعمقوا داخل نفس البخيل وعرفوا الأسباب التي تحكم إمساكه وتقتيره.

والوصايا امتلأت بها كتب التراث، وهي ظاهرة تصادف كل قارئ، وتلفت نظره، لا بكثرتها فقط، ولكن بتنوعها، ومقدرة أصحابها على الإتيان بالإبداع والإفاضة فيها؛ والنظرة لا تقف عند هذا الجانب المدهش، ولكن تتعداه إلى المواضيع التي تطرقت لها الوصية، والظرف الذي قيلت فيه، والمعاني التي احتوت عليها؛ وأصبحت الوصايا بهذا مظهراً أدبياً متميزاً، يمكن أن يفرد له في كتب تاريخ الأدب ما يليق به، وقد أفرد له بعض الكتاب ذلك، وأحسنوا فيما وصفوا فيه؛ وبعض هذه الوصايا عام يأتي من حاكم على منبر، أو على فراش الموت؛ أو يأتي من حكيم استقرأ حوادث الزمن، فعصر منها فكراً صبه في أذهان معاصريه، نضراً مضيئاً، سطع نوره حتى وصل إلى زمننا.

وللمجتمعات عادات وتقاليد تحكم الناس نبعت

من تصرفهم، وتبلور هذا التصرف، وطريقة الجلوس في المجالس العامة من العادات التي اهتم بها ذوو الحجا، وأعطوها حقها من التفكير، فكان لهم في ذلك من الآراء السديدة ما جاء منيراً وهاجاً، سجلوه في جملة ما سجلوا من التراث؛ وفي المقال المعنون: «صدر المجلس» بعض المواقف التي تري حسن التصرف تجاه القعود في المجالس، والإحسان في ذلك، وما قد يحدث من طرائف عند مخالفة القواعد المرعية في مجتمع ما في هذا الجانب؛ وقد ينتج عن المخالفة موقف مؤلم غاية الألم، إما نفساً أو جسماً وعملاً؛ وإفراد مثل هذا الأمر في كتب التراث وتتبعه يدل على مقدرة الكتاب، ودقتهم في الحرص على عدم ترك أمر يستحق الإلتفات دون التفات.

والأمانة هدف كل فرد سوي، وكل أمة ناضجة، بريقها يخلب الأبصار، ورداؤها الجميل يجذب إليها الأنظار، وهي هدف نبيل، يسعى إليه الخيرون؛ ولهذا أفرد لها مقال يعطي صورة واضحة عما كانت

عليه في التراث، والقصص التي أتي بها تبين مدى تقدير الناس للأمين، واحتقارهم لغيره، وما يختلف زمنهم عن زمننا، ولهذا جيء ببعض القصص من زمننا، لتوازن بعض ما قيل عن ذلك الزمن وأهله. وبعض القصص المدونة تشد القارئ، ويشعر معها أن الكاتب محق عندما دونها، لأن الأمانة فيها أرت ضياءاً داخل نفس الأمين، يستحق أن يقتدى به من أجل إشعاعه؛ وتلتقي الأمانة، والحفاظ عليها مع ذكاء القضاة، وفراستهم، فتوقف الخيانة، وفي المقال أمثلة على ذلك.

وللأقوال وميض، ولها ضياء، يسطع إذا جاءت من نفوس مليئة بالأنوار، مشعة بالأفكار الحسنة، والنظرات الصائبة، وأفرد لمثل ذلك مقال بهذا اللفظ، سردت فيه قصص احتوت على أقوال وقفت عملاقة مع الزمن، لم يخفت نورها، ولم يبهت ضياؤها، لما احتوت عليه من قوة في داخلها أعطتها القبول لدى الناس. جاءت بعض هذه الأقوال في خطب، سمعها

من سمعها وتأثر بها، فآتت أكلها في وقتها، وبقيت تعطي ثمارها إلى اليوم؛ وبعضها لفتات جاء بها أصحابها لثاقب فكرهم، وبصيرتهم التي ملأها بالنور الوهاج مثل موقف النبي ﷺ عندما زارته صفية، ورآها أناس، ورسوله الله ﷺ يودعها خارجة من المسجد، فقال قولاً أبعد سوء الظن، قبل أن يحدث.

وبحر اللغة العربية واسع وعميق، ولا ينضب ما يقال عن اللغة العربية، وما فيها من ميزات، وما تحتوي عليه من درر وجواهر، ولم يخل هذا الجزء من حلية توضع فيه عن اللغة العربية، فجاء المقال: «مراوغة بين لفظ ومعنى» ساداً لهذه الثغرة، كاشفاً عن جانب مهم من جوانب اللغة، وما أكثر الجوانب المهمة فيها وعنها؛ وأرت هذه المقالة ما قد يكون من لعب جميل يقوم بين اللفظ والمعنى، فيه متعة للقارئ لأنه يكشف عن كنه العقول، وما يمكن أن يأتي منها من إبداع؛ وقد يكون بعضه مفتعلاً جيء به لرياضة الفكر، ومتعة القارئ والترويح عنه والإحماض، بعد

قراءة الجاد من القول والفكر، وهو يكشف بجانب ما يكشف عنه أساساً عقل أصحابه، وما يدور فيه، وكيف تعمل آلاته.

والموت دويهية تصفر منها الأنامل، وتعصر القلوب، ويهتز بها الكيان، ففقد عزيز يشل التفكير، ويستوجب المواساة، ويتطلب العزاء؛ ولهذا جاء العزاء محتفًى به في التراث؛ تعددت صيغه، واختلفت شعبه، وأبدع في القول فيه القائلون، وتفنن الفصحاء، فجاؤا بما يدهش؛ وهؤلاء غرفوا من معين الفكر الذي لا ينضب، وأسسوا قولهم على ما يعرفونه مما يجول في داخل نفس الحزين، فحاولوا أن يأتوا بما ينطلق من ذلك؛ فصار لقولهم قبول، أزاح من كاهل الحزين حزناً مخيماً، أو خفف وطأته، والمعزي، وهو في موقف يسمح له بالتفكير كان قادراً على صياغة ما يأتي بالقبول؛ وتوالي العزاء بصيغه المختلفة، من أناس متعددين؛ لابد أن يؤثر التأثير المقصود.

هذه لمحة سريعة عما احتوى عليه هذا الجزء،

وهي إنما تعطي خطوطاً ساذجة لما احتوت عليه المقالات، وهي علائم على الطريق تشير إلى ما يوصل إلى الهدف، وهو كشف ما هناك عله يغري بالقراءة.

والله الموفق..

عبدالعزيز الخويطر

# مساقط لذة وإعجاب[1]

اللذة في حياة الإنسان حسٌّ ومعنى، ولا يعنينا هنا الحسّ أكثر من المعنى، لأن لذة الحس تلمس البدن، ولذة المعنى تلمس الروح، والروح أغلى من البدن، وأعلى قيمة؛ ولذة الحس قصيرة العمر، لا يلبث مفعولها أن ينتهي بانتهاء موجبها، فالدفء اللذيذ ينتهي بزوال المدفِّئ، سواء كان ناراً مشعلة، أو ثوباً سميكاً ملبوساً؛ والشبع من أكل على مائدة، تنتهي لذته في الفم بمجرد أن ينتهي الإنسان من الطعام، وإن بقي شيء منه، أو من الدفء، فما يبقى هو خاص بالروح، لإنه ذكرى، والذكرى ليست للحس، وإنما هي للروح.

ولذة المعنى تكاد أنواعها لا تحصى، فالكلمة الحسنة لها زاوية لذة، تبعث المتعة في النفس، ومثلها العمل الرقيق، في قلب حنون، والمعروف يُسدى

---

(١) نشر أولها في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٧٧) في ٢/٣/١٤١٦هـ الموافق: ٢٩/٧/١٩٩٥م.

مسقط لذة، وشُكر المعروف مسقط لذة، وعطف الكبير على الصغير مسقط لذة، وبِرّ الصغير بالكبير مسقط لذة، ورفد الغني للفقير مسقط لذة، وهي لذة للروح والنفس في كل من هذه الأمور، وأمثالها.

ومساقط اللذة هذه لرقيق العاطفة، تجعل العين تغرورق بالدمع، من التأثر من سماع هذه المواقف، أو رؤيتها مكتوبة، لأنه يقدرها، ويعرف وقعها في النفوس، هذا وقد حدثت مع غيره، في زمن غابر، فكيف لو كان الموقف الشغوف هذا حدث له، أو وقع لإنسان أمامه.

هذه المواقف لا تقف فائدتها عند أصحابها، ولا يقتصر نفعها على زمنها، ولكنها تتعدى إلى من عنده استعداد للاقتداء، وقدرة على التغلب على نفسه، والمساهمة في فعل الخير، والمسابقة في سبيله؛ وتتعدى كذلك إلى أزمنة أخرى متتابعة، وتبقى نوراً يهتدي بضوئه الخيِّرون، ويسير على نهجه الموفّقون، ويكون لمن ابتدعه أجراً، يتراكم، برضى الله، مع الزمن،

ومع تعدد الاقتداء، لأن من سن سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. وهذا جزاء وافٍ من رب كريم، يجزل العطاء، ويزيد في الهبة.

وسيكون لنا وقفة مع بعض النصوص المضيئة، التي سجلت عن مواقف تدل على صفاء نفس، وطيب قلب، وتدل على أن ناساً عاشوا، ولهم ميزات، بزوا غيرهم، في تصرفهم الحسن، وامتازوا بنظرتهم إلى الأمور، من زاوية دلت على زكاء العنصر.

أول مسقط لذة نبدأ به موقف للرسول ﷺ إن صح الحديث، عند من يعلمون عن سند الأحاديث، وهو موقف يدل على الرحمة، والتواضع، وسعة الصدر؛ وليس هذا غريباً، فهو المعلم الأول، وطرق التعليم عنده متقنة، وهي قواعد يقتدى بها، ويتبرك، ويهتدى، ويسترشد:

«دخل رسول الله ﷺ على سيرين، أخت مارية وهي تصفق، وتقول:

هلْ عَلَـيَّ وَيْحَكُمَا    إنْ لَهَوْتُ مِنْ حَرَجْ

فقال رسول الله ﷺ: لا.

قال سعيد: فصار سرورنا بالحديث أكثر من سرورنا بالبيت». [1]

جارية متعبة، طرأ على بالها أن ترفه عن نفسها، لتبعد عن جسمها التعب، وعن روحها الإجهاد، فنفث لسانها عن صدرها هذه الآهة، التي جاءت في صورة هزج؛ فسمعها الرسول ﷺ فلم ينهرها، ولم يعاتبها؛ وإنما قدر ما دفعها، فأخبرها عما سألته عنه، وأراح نفسها من الشك الذي كان يزعجها.

لقد نظر الرسول ﷺ إلى الأمر من جميع جوانبه، ولم يكن متزمتاً، ولا صلفاً، وقد سر سعيد بما قاله الرسول ﷺ بهذه الفتوى، التي أثلجت صدره، ولعل فرحته بها لأنّها تَرُدُّ على من كان يرى غير ذلك في زمن سعيد، ممن كان يرى عدم لياقة مثل هذا العمل أو القول، سداً للذريعة، وحتى لا يعمد الناس إلى

---

(١) البصائر: ٥/ ١٨٤.

اللهو، فيتخذونه سبيلاً لهم، يضيِّعون فيه وقتهم، ويصبحون أمة لهو وطرب.

وعروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ ابتلي فصبر، ورضي بما قدره الله عليه، إذ في رحلة له إلى الشام، ابتلى بمرض في قدمه، مما أدى إلى قطعها، ودخل ابنه اصطبل الخيل، فرمحه أحد الخيل، فقتله، فصبر على هذه البلوى الثانية، وكان عندما أرادوا قطع رجله، قال لهم: اقطعوها عندما أدخل في صلاتي، ففعلوا، فلم يشعر بما فعلوه، حتى انتهوا. ولما عاد من رحلته هذه إلى المدينة، وسئل عما لقيه فِيْها قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.[1]

الله أكبر على هذا الصبر، وهذا التسليم بقدر الله، وما يأتي به منه ـ سبحانه وتعالى؛ وما ذلك إلا من قوة الإيمان، والتعلق بحبله المتين، والتسليم بأن ما يأتي من الله هو الخير، حتى ولو ظهر للإنسان الجانب المؤلم من الأمر.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٢.

ولقد تأثر الوليد بن عبدالملك بما حدث لعروة، وشاركه آلامه، وحمل هذا الألم في نفسه إلى أن رأى رجلاً مر به مثلما مر بعروة، وأكثر، فتمنى أن يسمع عروة ما جرى لهذا الرجل حتى يتعزى، ويعرف أن هناك من ابتلي بأكثر مما ابتلي به. والقصة تروى هكذا:

«قال المدائني:

أتي الوليد بن عبدالملك برجل من عَبْس، فسأل عن حاله، وذهاب عينه؛ فقال:

ما كان في الأرض، يا أمير المؤمنين، عبسي أكثر مالاً مني، وولداً، فأتى السيل ليلاً، فلم يُبق لي مالاً، ولا أهلاً، ولا ولداً، إلا بُنيًّا صغيراً، وبعيراً، فحملت الصبي، وندّ البعير، فوضعت الصبي، وتبعته، فنفحني برجله، ففقأ عيني؛ فرجعت إلى ابني، فإذا الذئب يلغ في دمه.

فقال الوليد: إذهبوا به إلى عروة بن الزبير، ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه». [1]

---

(١) البصائر: ٥/ ١٨٦.

في هذه القصة، وما ركبت عليه، مساقط لذة، الأول صبر عروة بن الزبير، ورضاؤه بقضاء الله وقدره، وعدم شكواه؛ والثانية إيمانه بالله، وقوة إسلامه، بحيث إنه إذا دخل في الصلاة خرج عن الوجود حوله، فهو لم يحس بقطع قدمه، لتعلقه بربه، وإنعدامه في جو الصلاة، ومناجاة ربه؛ والثالثة تذكر الوليد له، ومشاركته حزنه ـ ربما أكثر منه ـ ورغبته في تخفيف آلامه، باطلاعه على حال الرجل الذي ابتلي بأشد مما ابتلي به عروة.

وفي القصة الآتية مسارب لذة، ومساقط متعة، وهي قصة جميلة، تُرِي نهجاً من مناهجهم، وطرق حياتهم، ونظرتهم للأمور، وتقديرهم لها، وتعاملهم بعضهم مع بعض:

«وفد زياد الأعجم على المهلب بن أبي صفرة، وهو يقاتل الأزارقة «بتوج»، فأكرمه، وأنزله على ابنه حبيب، وقال له: أحسن قراه.

فبينما هما في بستان، غنّت حمامة على فنن، فطرب

لها زياد، فقال له حبيب:

فإنها فاقدةُ إلفٍ، كنتُ أراه معها.

فقال زياد: هو أشد لشوقها، وأنشأ يقول:

تَغَنَّيْ أَنْتِ فِي ذِمَمِيْ وَعَهْدِيْ
وَذِمَّـــةِ وَالِـــدِيْ أَلاَّ تُضَـــارِيْ
فَـــإِنَّـــكِ كُلَّمَـــا غَـــرَّدْتِ صَـــوْتًـــا
ذَكَـــرْتُ أَحِبَّتِـــيْ وَذَكَـــرْتُ دَارِيْ
فَـــإِمَّـــا يَقْتُلُـــوكِ طَلَبْـــتُ ثَـــأْراً
لأَنَّـــكِ يَـــا حَمَـــامَـــةُ فِـــيْ جِـــوَارِيْ

فضحك حبيب، ودعا بجلاهق (بندق)، فرماها، فسقطت ميتة؛ فنهض زياد مغضباً، وقال:

أخفرت، أبا بسطام، ذمتي، وقتلت جاري؟

فشكا إلى المهلب؛ فغضب، وقال لحبيب:

أما علمت أن جار أبي أمامة جاري، وذمته ذمتي، والله لألزمنك دية الحر والعبد.

وأخذها من ماله، ودفعها إلى زياد، فقال:

فَلِلَّـهِ عَيْنَـا مَـنْ رَأَى كَقَضِيَّـةٍ
قَضَى لِيْ بِهَا شَيْخُ العِرَاقِ المُهَلَّبُ
قَضَى أَلْفَ دِيْنَارٍ لِجَارٍ أَجَرْتُهُ
مِنَ الطَّيْرِ إِذْ يَبْكِيْ شَجَاهُ وَيَنْدُبُ

فرفع خبره للحجاج، فقال:
لِشَيْءٍ ما سَوَّدَت العرب المهلب». [1]

مسقط اللذة إعجاب زياد بالحمامة، وتحركه ليقول فيها شعراً جميلاً معبراً؛ والمسقط الثاني إكرام المهلب له، لمعرفته قدره، فجعله في رعاية ابنه، حتى لا ينقصه أمر من أمور الضيافة، ولكن الرياح جاءت بما لا يشتهي السَّفِنُ، فأغضب حبيب بن المهلب ضيف أبيه، بأن هصر قلبه بقتل الحمامة، التي كانت أوحت إليه بالأبيات الجميلة التي قالها، دليل أنه شاركها، من قلبه، حنينها لإلفها، كما اشتاق هو إلى أهله وداره؛ وما درى حبيب أنه طعن زياداً في سويداء قلبه، بالبندقة التي اخترقت قلب

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤١١.

الحمامة، فسقاً وظلماً.

والمسقط الثالث عندما ثأر المهلب من ابنه من أجل ضيفه، وغرمه غرماً مضاعفاً عن المعتاد، حتى رضي الضيف، وأبدى رضاه عن طريق أبيات غرّ، دلت على أن المهلب غسل قلب زياد من الحسرة التي أصيب بها من حبيب.

والمسقط الرابع إعجاب الحجاج، وهو الذي في نظر منتقديه، لا يرضيه شيء، بل، في ضوء الصفة التي يصفونه بها دائماً، كان المتوقع أن يحسد المهلب على فعله الحسن؛ أو على الأقل لا يمدحه ذلك المدح الذي أكد فيه تقدير العرب للمهلب، واستحقاقه التقديم الذي قدموه به. مساقط لذة متتالية في هذه القصة تُري جانباً من جوانب حياة الناس حينئذ، والوقفات الإنسانية التي يقفونها مع ما يمر بهم في حياتهم، مما يلمس شغاف القلب بطريق أو آخر.

وما دمنا في إطار الضيافة، ورعاية الضيف، فهناك رواية عن ضيف، رغم أنه ثقيل، ومؤذ،

وضار بفئة من الناس، قد يوصلهم إلى قاع الفقر، إلا أنه وجد من يضيفه ويحميه، ولكنه لم يضر مضيفه، كما فعلت الضبع، أم عامر، مع الأعرابي الذي حماها من مطارديها، وأضافها في خيمته، وأطعمها من خير طعامه، فتغافلته وهو نائم، وبقرت بطنه، لا، إن هذا الضيف أقل خطراً، وهو في بعض المواقف؛ ولا يعتبر مخيفاً وهو مفرد، ولكن خطره عندما يتجمع، ويهاجم مزرعة، أو روضة، فيأتي على الأخضر منها، واليابس؛ هذا هو الجراد، وله قصة تروى هكذا:

«سقط الجراد قريباً من بيت أبي حنبل، جارية بن مرّ، فجاء الحي، فقالوا:

نريد جارك.

فقال: أما إذ جعلتموه جاري، فوالله لا تصلون إليه، فأجاره حتى طار من عنده، فسمي مجير الجراد.

وفي ذلك يقول هلال بن معاوية التغلبي:

وَبِــالْمَعْقِلَيْــنِ لَنَــا مَعْقِــلٌ
صَعَــدْنَــا إِلَيْــهِ بِصُــمِّ الصِّعَــاد
مَلَكْنَـاهُ فِـيْ أَوْلِيَـاتِ الــزَّمَــانِ
مِــنْ قَبْـلِ نُـوْحٍ وَمِـنْ قَبْـلِ عَـاد
وَمِنَّــا ابْــنُ مُــرٍّ أَبُــو حَنْبَــلٍ
أَجَارَ مِنَ النَّاسِ رِجْلَ الجَرَاد
وَزَيْــدٌ لَنَــا وَلَنَــا حَــاتِــمٌ
غِيَاثُ الوَرَى فِي السِّنِن الشِّدَاد»[1]

مسقط اللذة في التفاتة أبي حنبل إلى كلمة «جار»، لقد سرى في بدنه تيار نخوة، فنسي الجراد، وضرره، ولم يذكر إلا أنه جار، ولكلمة جار لذة لا تعدلها لذة، جعلته يقسم أن سيحمينّه، وقد فعل.

ومسقط اللذة الثاني اهتزاز هلال لهذا الموقف، وانفعاله، مما كان نتيجته هذه الأبيات من الفخر، التي تداعت فيها معاني العزة والفخار، فجاء بكل ما عنده ليمدح قومه، وما عرفه عنهم.

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤١٤.

والجار عند العرب له مكان مميز، يُحْمَى، ويُضاف، ويُعتنَى به، ويدلل الدلال المتناهي، ويلحق العار من لا يفعل ذلك، ويلحق الشرف من يفعل هذا، وترتفع درجته بقدر ما يبذل تجاه الجار؛ ويتسلسل الشرف، ويبقى في الفروع، كما كان في الأصول، وهذا مثل من الأمثلة في الجاهلية، مما بقي أثره في الإسلام:

«كان أبو سفيان إذا نزل به جار، قال له:

يا هذا إنك قد اخترتني جاراً، واخترت داري داراً، فجناية يدك عليّ دونك، وإن جنت عليك يد فاحتكم عليّ حكم الصبي على أهله.

ويوشك أن يكون هذا من الأسباب الموصلة إلى أن شرف بقول رسول الله ﷺ يوم الفتح:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».[1]

حتى هذه القصة فيها مساقط لذة، لأن أبا سفيان يعرف حاجة الضيف إلى رعاية، وهو غريب في بلد غير بلده، وقد بالغ في اكرامه، فجعل خطأه مغفوراً،

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٢٣.

ويتحمل أبو سفيان إثمه؛ أما إذا أخطئ عليه، فليختر ما يرضيه دون حدود، مثل الصغير يتدلل على أهله، ويطلب منهم ما هو فوق طاقتهم. هذا هو مسقط اللذة، لأنه يأتي لأبي سفيان بالذكر الحسن، ينشر بين القبائل، القاصية والدانية. والمسقط الثاني هو ما جاءه من ثمرة هذا الفعل، باعتراف الرسول ﷺ بهذا العمل المجيد، الذي يشرف صاحبه، وعائلته، وقبيلته، ويجعله أهلاً لسبق غيره في موقف مشهور مثل فتح مكة.

ومسقط لذة يأتي من هداية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لشباب اعترضهم ما غير طريق سيرهم المنتقد إلى طريق محمود، وهي لذة لا تعدلها لذة؛ لأنها نقلت هؤلاء الشباب من قاع الضلال، وظلمة الباطل، إلى أعلى مراتب الهداية، ونور اليقين، والقصة هكذا:

«اجتمع في بغداد عشرة فتية على لهو، فبعثوا أحدهم في حاجة، فرجع وفي يده بطيخة، يشمها، ويقبلها، فقال:

جئتكم بفائدة: وضع بشر الحافي يده على هذه

البطيخة، فاشتريتها بعشرين درهماً، تبركاً بموضع يده.

فأخذها كل واحد منهم، يقبلها، ويضعها علي عينه.

فقال بعضهم: ما الذي بلغ بشراً؟

قالوا: تقوى الله، والعمل الصالح.

قال: فإني أشهدكم أني تائب إلى الله، وإني داخل في طريقة بشر.

فوافقوه على ذلك، وخرجوا إلى طرسوس واستشهدوا». [1]

كلمة أثارت فكراً، وفكر قاد إلى روض من رياض الحق، فأنار الله طريق الحق لهؤلاء الفتية، وأقفل طريق الغواية، لقد ملوا حياة اللهو واللعب، واستشرفوا لرضى الله، فنبذوا ماضيهم المعتم، وتطلعوا إلى يوم مقبل مشرق؛ وقارنوا أنفسهم بحالتهم الراهنة المزرية، بحالة بشر الحافي، الرجل الصالح، الذي

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٧٣، انظر ما سيأتي ص: ١١٨.

مجرد وضعه يده على بطيخة شغل ذهنهم، وهزّ روحهم، فأجروا المقارنة بينه وبينهم، ووجدوا الفرق بينهم وبينه، يساوي البعد بين السماء والأرض، وبين الخير والشر، والطيب والسيء، ورأوا أن بإمكانهم أن يكونوا مثله، ما داموا عرفوا الصفة التي ميزته عنهم، وجعلته في المقام الأعلى، والتقدير الفائق، حتى عندهم، وهم أبعد عن صفته؛ ولكنه الذهب غالٍ عند كل أحد؛ والدين والخلق ذهب، ومعدن نفيس، وما داموا عرفوا أن بإمكانهم أن يلبسوا ثوب التقوى الذي زانه، وأن يعملوا العمل الصالح الذي حافظ عليه، وداوم، فَلِمَ لا يلبسونه؟

وقد أردفوا النية بالعمل، وبادروا إلى اتخاذ أول خطوة تجاه الفعل العظيم الذي صمموا أن يعملوه، والطريق السوي المستقيم الذي قرروا أن يسلكوه، وهو الجهاد في سبيل الله، والاستماتة من أجل الإسلام؛ فاختاروا أحد الثغور، وهو طرسوس، فذهبوا إليها، ورابطوا، وجاهدوا، حتى استشهدوا.

ـ[1] نهايتهم كانت في سبيل الله، ولما يرضي الله، فيرجى لهم بذلك خير.

وإذا أراد الله لأحد خيراً هيأ له الأسباب التي تدخله في حيز الخير، وقد يكون المدخل ضيقاً، صغيراً، تافهاً، ولكنه يؤدي إلى بهو واسع، وروض فسيح، وخير كبير لا نهاية له، مثلما ختم هؤلاء الفتية حياتهم هذا الختام الحميد.

وقد تأتي اللذة من مسقط الألم والقصة الآتية تبين ذلك:

«قال مصعب بن عثمان:
دعا حكيم غلامه بالماء، وقد كان شرب، فقال:
يا مولاي، قد شربت شربتك.
فقال: وإن.
فأقام على شربتين كل يوم» .[2]

هذا رجل في ذهنه مسقط لذة، لم يتنازل عنه،

---

(١) بدء الجزء الذي لم ينشر في صحيفة «عكاظ».
(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٢٤٣.

يأبى أن يظهر بمظهر المخطئ، ولعله يخشى أن يتبين فعل الزمن به، وأنه قد كبر، وأن الضعف وصل إلى ذاكرته؛ ومسقط اللذة أنه لم يكذِّب الخادم، ولكنه فضل أن يعاني شرب ما زاد عن حاجته، حتى لا يكسر كلمته، ويتبين ضعفه أمام خادمه؛ ومن تعود على القوة فعلاً أو معنى، لا يرضى أن يظهر بخلافها، لأنه يخشى أن تتغير نظرة من حوله. مع أن القريب منه من أهله، وأصدقائه، وخدمه المخلصين، تزيد عنايتهم به إذا كانوا في الأصالة بمكان.

ومسقط اللذة يأتي من خلو المرء من العقد النفسية، ثقة منه بنفسه، وشجاعة معنوية تملأ فؤاده، لا يهمه ما يقوله الناس، ما دام يعرف أنه على حق؛ وعندما تطلب منه الحجة على سلوكه ما خالف الناس، فحجته حاضرة، لأنه لم يأتِ ما أتى إلا على بصيرة، ولم يقدم على ما أقدم عليه إلا بعد تأنٍّ وتفكير، ولم يركب الصعب إلا عن فهم وإدراك، وقوة قلب، والشعبي فيه هذه الصفة، وهذا مثل على ذلك:

«سئل الشعبي عن مسألة فقال:
لا علم لي بها.
فقالوا: ألا تستحِيي؟
فقال: ولِمَ استحيِ مما لم يستحيِ منه الملائكة حين قالت: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.»[1]

لا يتوقع أن العالم في أي حقل يعلم كل شيء فيه، لأن أي علم نطاقه واسع، وسوف تستمر الزيادة فيه، والإِضافة إليه، ما دامت السمٰوات والأرض. ومن ادعى الكمال في أي علم فقد ظلم نفسه، وظلم العلم؛ ومن وصف العلم بأنه محدود يستطيع إنسان ما، مع أوتي من الذكاء، والحفظ، أن يحيط به، فهذا دليل على تفاهة العلم، على الأقل في نظر المدعي.

وعلم الدين من أوسع العلوم، لا يكاد يحده حد، ويقتصر أي عالم في أي حقل فيه على ما قاله سابقوه، وعلى ما قد يستنبطه، ويبقى كثير منه لم يصل إليه، أو لم يدر عنه، أو لم يفهمه على وجه الصحيح، والعلم

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٢. البصائر: ٤/ ١٨٤.

لا يكمل إلا لخالق العلم وخالق العلماء ـ سبحانه ـ.

لم يخش الشعبي أن يتهم بالنقص، لأنه يعرف أن هذا فيه، لأنه بشر، ولم يخفه، لأنه شجاع، وقال ما قال، معتمداً على حجة قوية من القرآن، وناهيك بها حجة.

قليل من الأخبار التي تقال عن الصلة بين بني هاشم وبني أمية صادقة، ولكنها إذا جاءت صادقة جاءت مضيئة حقاً وفيها مساقط لذة مثل هذا الخبر:

«كتب عبدالله بن عباس إلى عبدالملك بن مروان، لما خرج محمد بن الحنفية إلى الشام:

إنه خرج إليك رجل منّا، لا يبدؤك بالشر، ولا يمالئ على الظلم، يتحرى الحق، ولا ينوي الباطل، فاحفظنا فيه.

فأجابه عبدالملك:

ما أسرّني لصلة رحمك، وحفظ توصيتك، وكل ما سألت مفعول، وكل ما هويت متبع». [1]

---

(١) البصائر: ٣/ ١٢١.

بذرة طيبة، من نفس طيبة، في أرض طيبة، أتت بثمرة يانعة؛ مساقط اللذة هذه المتتابعة، تشع نوراً، من هذه الأنفس المضيئة، فابن عباس يصل رحمه، ويوصي بابن عمه للخليفة، ويشير باستقبال يليق به؛ وخليفة يقدر هذا، ويَعِد بأن ينفذ كل ما أشار به، ويمتن من هذا الفعل.

والخليفة يسعده أن يُنَبَّه إلى بعض الأمور التي تليق به مع ضيفه، فقد يغفل عن ذلك؛ ويحب أيضاً أن يعرف من عقلاء القوم ما يتوقع الناس منه، حتى يكون عند حسن ظنهم، ويستجيب لما في نفوسهم، ويظنون أن هذا من إدراكه، ومعرفته، وحسن تقديره للأمور، فيزيد ولاؤهم، وتقوى صلتهم به. وعبدالملك في حاجة إلى ولاء مثل هؤلاء، لأهميتهم في المجتمع، ومدى تأثيرهم، ونظرة الناس إليهم، واحترامهم لهم؛ لأنهم ركائز بينهم، يواسون المريض، ويساعدون المحتاج، ويرفدون الفقير، ويسندون الضعيف، يُلجأ إليهم في الشدائد،

ويستهدى بهم في المشكلات، هم دائماً في سمع الناس، وبصرهم، وفي قلوبهم ومهجهم؛ لهذا قال عبدالملك «ما أسرّني!». لقد فرح بهذه الإلتفاتة الخيّرة من ابن عباس؛ ولولا أن ابن عباس كان على يقين من أن عبدالملك سوف يسر بما فعل، لما أقدم على ما أقدم عليه، ولو لم يكن محمد بن الحنفية يستحق هذه التوصية، لما عَنَّا نفسه ببعثها. مساقط لذة مطربة بَهِجة، تُري قوة صلة الرحم بين هذين العنْصرين الزاكيين.

وعلاقة الرجل بأهله فيها مساقط لذة، فيها الحنان والعطف والرفق، وفيها الصبر والتحمل، وفيها مراعاة الظروف، وما يأتي منها مما قد يخرج المرء من صوابه، ويدفعه في لحظة إلى عمل قد لا يقدم عليه في وقت آخر، والعقل ثابت هادئ؛ والحكماء أقرب الناس إلى إيجاد مساقط لذة، في أوقات هي أقرب إلى مساقط الألم المتناهي، وهذه قصة تمثل موقفاً من هذا القبيل:

«قيل عن فيثاغورس:

شتمته امرأته، وظلّت تسمِّع به، وتؤذيه، وهو ساكت؛ فلما اشتد غيظها من سكوته، أخذت غُسالَةَ ثياب، كانت تغسلها، فصبتها على رأسه، وعلى كتاب كان في يده.

فرفع رأسه وقال:

أما إلى هذه الغاية فكنت تبرقين، وترعدين وأما الآن، فقد أَمْطرت». [1]

لم يغضب فيثاغورس، فيكيل الصاع صاعين لزوجته، ولم يرم عليها صخرة الطلاق؛ لم ينفعل، ولم يغضب، لعل همه كله أثناء ارعادها، وإبراقها، هو دراسة حالها، والسبب الذي جعلها في مثل هذه الحالة الهائجة، ولأنه وصل إلى أنها معذورة، وأن طبيعتها هكذا، ولا تستطيع أن تكون إلا هي، أو أنه عرف أنه السبب، بالتفاته إلى كتبه وقراءتها، مما أشعرها بأن لها ضرة، تشاركها فيه؛ فهو في البيت، وليس في البيت، وهو معها، وليس معها؛ هي تريد

(١) البصائر: ٢/ ١٧١.

من يتحدث معها، ويرد عليها، ويسمع منها، ويُسمعها؛ ولكن فيثاغورس كالصنم، حتى إذا أرادت أن تخرجه من صمته بالمشادة، والمنازعة، لا يشاركها محاولتها، وأعطاها أذناً صماء، وعيناً عمياء، فأرعدت، فلم يلتفت، وأبرقت، فلم يلتفت، فخرجت من طورها، وسبّحته بالماء غير النظيف، الذي بقي بعد أن نظفت ما بيدها من الملابس.

ومسقط اللذة أنه تحمل هذا كله، لأنه زوج، وهي زوجة، ولأن لها في ذهنه عذراً، فلم يلمها، وتلذذ بانفجارها، ما دام قد قضى على ما اكتنز داخلها من بُخار، لو لم يخرج بهذه الصفة، فالله وحده العالم كيف يخرج!

والقناعة مسقط لذة، ونظرة الرضى إلى الأمور مسقط لذة، هذا إذا جاءت من الزاوية التي يختارها الإنسان، لا أن تفرض عليه؛ والأمور نسبة، فما يراه شخص مقنعاً ومرضياً، قد لا يراه آخر كذلك؛ وما يعتبره شخص فضيلة وميزة، قد لا يراه آخر

كذلك، بل قد يراه بخلاف ذلك؛ فانظر إلى مساقط لذة رآها أعرابي، وقد لا تتفق معه فيها، ولكنك بلا شك تسلِّم بأنه محق فيما اختاره مسقطَ لذة؛ ولا تلبث بعد التفكير أن ترى وجهة نظره، وتقدره على اختياره ما فيه له رضى، خاصة وأن الأمر امر تمنٍّ، وفي التمني يِسمح بما لا يسمح به في الحقيقة والواقع. وهذه قصة تَمَنٍّ فيه قناعة ورضى، فيهما مسقط لذة:

«قال الأصمعي: قال بعض الأعراب:

اللهم إني أسألك ميتة كمية أبي خارجة: أكل بذجا (حملاً)، وشرب معسلاً، ونام في الشمس، فلقي الله شبعان، ريان، دفآن». [1]

وخلاف النص السابق تأتي مساقط اللذة بصفة مبادئ عامة، تنطبق على الناس أجمعين؛ كل من فعلها أحس باللذة الغامرة، وصدق ما قيل، لأنه لمسه بيده، وجربه تجربة حية، لا لبس فيها، ولا ريب. والأمر كما هو في النص التالي:

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٣٩٨.

«عن مجاهد[1] قال:

ثلاث يُصفين لك ودّ أخيك:

أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه»[2]

ويقع مسقطان للذة عندما يتناطح قرنان متكافئان، فتأتي الحكمة، والقول الفصل، على لسانهما، فما يقولانه هو الواقع والصدق، وهذا مسقط لذة واضح وممتع، والقصة هكذا، بين ملك قائم، وملك متوقع:

«كتب كسرى إلى بزرجمهر وهو في الحبس:

كانت ثمرة علمك أن صرت بها أهلاً للحبس والقتل.

فكتب إليه بزرجمهر:

أما ما كان معي الجَدّ، فقد كنت انتفع بثمرة العلم، فالآن إذ لا جدّ، فقد صرت انتفع بثمرة الصبر؛ مع أني إن كنت فقدت كثير الخير، فقد استرحت من

---

(١) تروى لعمر بن الخطاب.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ١١.

كثير الشر» .[1]

لقد كان عتب كسرى على بزرجمهر، لتطلعه لأخذ الملك، لاذعاً، فيه لمز، بِأَنَّ عِلْمَهُ بدل أن ينفعه ضره، ولكن بزرجمهر رد رداً فيه مسقط لذة مرتين: الأولى أنه عندما كان الحظ معه فقد استفاد من العلم؛ أما وإن الحظ لم يعد معه، فسوف يستعيض عن لذته بلذة الصبر.

ثم أردف مسقط لذة آخر، جاء الإشعاع فيه من صدقه وصوابه، وهو إذا كان فقد كثير الخير في تولي الملك، فإنه استراح من كثير الشر، وأوله الدسائس، التي إحداها أوصلته إلى ما هو فيه من السجن، وتوقع القتل.

هذه بعض مساقط اللذة، رأينا أنواعاً منها، والتراث مليء بأمثالها، إذا نظرنا إلى بعض النصوص من هذه الزاوية. وما هذه إلا نماذج، جاءت عفواً، واختيرت جزافاً.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٤٢.

# أمهارة هي أم خسارة[1]

التجارة مهارة تُكسب في الغالب صاحبها مالاً، ويعود عليه البيع والشراء بالربح، قليلاً أو كثيراً، حسب رأس المال، صغره وكبره، ولابد أن التجارة عُرفت منذ أن احتاج الإنسان إلى ما في أيدي الناس، واحتاجوا إلى ما في يده، وتطلّع إلى ما عندهم، وتطلعوا إلى ما عنده، ورغب الإنسان أن يحوز ما بيد الآخرين سلماً، كما ودّوا أن يحوزوا ما بيده رِضىً.

لعل الواقع كان مقايضة في أول الأمر، عيناً بعين، أو عيناً بجهد، ولابد أنها كانت غير منظمة تخضع لما في يد هذا، ويد ذاك، مما يعتقد من الجانبين أنه متكافئ، متساوٍ في القيمة، دون هضم أو بخس، أو معهما، ولكن الحاجة من قبل أحد الجانبين توجب غض النظر، والسكوت على الغبن. وجاء زمن استقرت الأمور بأن هذا النوع، وهذه الكمية، لها هذا النوع، وهذه

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٨٤) في ٩/ ٣/ ١٤١٦هـ الموافق: ٥/ ٨/ ١٩٩٥م.

الكمية، يحكم الأمر الوجد أو القلة والعدم؛ وقد يختلف الأمر في القيمة تبعاً للموسم، وظروف الطرفين.

وبقى الأمر يتدرج حتى عرف الإنسان النّقد، فأصبح الشيء الكبير يُشترى بالشيء الصغير: الحمل يحمل على الفيل أو الجمل، يكفيه نَقْدٌ يُحمل في الجيب، بيعاً أو شراءاً. ثم صار النقد أنواعاً: منه الرخيص، لتدني جوهره، والغالي لارتفاع مادته، والتدني إما من سوء المعدن، أو كثرته، والغالي لطيب طبيعته، أو لندرته؛ فالفضة في زمن من الأزمان، في منطقة من المناطق، كانت أغلى من الذهب.

ثم استقر الأمر في الأمم المتحضرة على ثلاثة أنواع من المعادن: الذهب، والفضة، والنحاس. وصار الأدنى يدخل في الأعلى، فعدد من الأدنى يساوي واحداً من الأعلى، وسمي هذا صرفاً، ولعل مأتاه أنه صرف من طبيعة إلى طبيعة، وتحويل من مادة إلى مادة، فعشر قطع من النحاس، تُحول بالمبادلة بواحدة

من الفضة، واثنتان من الفضة تأتيان بواحدة من الذهب؛ إلى أن دخل عنصر ثالث وهو الورق، وهو لا يعدو أن يكون وثيقة ضمان لمبلغ من الذهب في حرز مكين، لدى الدولة، يقابل به صاحبه نظرياً متى شاء!

وأصبح لكل دولة نقدها، وعليه دمْغتها، تحمل اسمها، وصور رؤسائها، واسم العملة، ورقمٌ بمقدارها، تكبر حيناً، وتصغر حيناً آخر، تأخذ شكلاً مستديراً، أو فيه احديداب على دائرته. وتبارت الأمم في سك نقود تتميز بها عن غيرها، بمجرد النظر إليها، ولكن لكثرة الأمم، ولكثرة العملات، تقاربت الصور، وتقارب الوزن، وتقارب الثمن.

ودخل على هذا الحقل غش وتزوير، لأن تقليد العملة، والغش فيها، مُرِبح، وقامت حرب عوان بين الدول، ومُزَوِّري العملات؛ ولم يقف حائلاً دون التزوير ما حاولت الحكومات أن تضعه من أمور فنية دقيقة في السبك، تؤمل الا يستطيعها المزور، ولكن

التزوير لم ينقطع، لأن الإنسان «العادي»، الذي تمرر عن طريقه النقود المزورة، ليس عنده من القدرة التمييز بين الأصيل والمزور؛ وجاءت عملات الورق، ونشط التزوير، وكلما ارتفع ثمن المستند الورقي زاد النّهم إلى التزوير، والحرب لا تزال قائمة، ولن تزال، ما دام في الحياة خير وشر، وما دام للخير رواد، وللشر رواد.

ومثلما تطور النقد تطورت التجارة، حتى أصبحت فناً، له أصوله وله قواعده؛ يحتاج التاجر إلى الإلمام به؛ ولكن هذا لا يكفي، لأن الأصول والقواعد لا تحكم إلا بعض الأمر في التجارة، وليس كله. وأهم من هذا كله نباهة المرء، وحسن إدراكه، واستفادته من التجارب، وأخذ العظة مما يحدث للآخرين.

والحذر في التجارة من الأسس التي يحرص عليها العاقل، والمجازفة قد تأتي بما لا يأتي به الحذر، ولكن الضمان في هذا الجانب معدوم، ولا يلجأ إليه إلا من باع نفسه رخيصة. ومن طبيعة التجارة التغير

والتطور الدائم؛ فالذي يسود اليوم قد لا يكون السائد غداً، والخط الذي تسير عليه التجارة اليوم، قد يتغير غداً؛ وليس الأمر بيد إنسان واحد في أي مجتمع، وإن حدث هذا فهو أمر لا يدوم.

والحديث عن التجارة في مجالها اليوم يحتاج إلى مجلدات ومجلدات، وقد ألفت فيه كتب، وأنشئت لهذا كليات، وقدمت رسائل للدكتوراه؛ وأصبحت الأمور معقدة؛ وللتجارة مدارس للتفكير متباينة، وطرق مركبة، ولم تعد بالسذاجة المعهودة.

وما يهمنا في إطلالتنا هذه هو ما جاء في التراث من أقوال عن أفعال قام بها آباؤنا في الماضي، بعضها خاص بالأسس والقواعد، وبعضها عن تجارب مرت بهم، وبعضها نصائح جاءت من أعين بصيرة ناقدة مصلحة؛ وسوف نفتح نافذة على هذا القول، ونافذة على ذاك القول، لنرى ما كان يدور في أذهانهم، وما هي نظرتهم، وما يحكمهم، ومدى مراعاتهم لأوامر الدين في هذا؛ وما الذي نفعهم في حياتهم

وهم يبيعون ويشترون.

وأول ما يهمنا هو نظرة الدين إلى البيع والشراء، وقد جاء عن هذا الشيء الكثير مما هو مرصود في الكتب الصحاح عن نظرته صلوات الله عليه إلى التجارة، وبعض أمور البيع والشراء، مما أبداه بدءاً، أو سئل عنه فأجاب. وهذا يأتي مع ما جاء في كتاب الله عن التجارة وأمورها، حيث انتقل الأمر بالمسلمين من أيام الجاهلية إلى الإسلام؛ وتغير الأمر في كثير من أحوال التجارة، فالربا حُرم، وتَحْيِيْن الدابة اعتبر غشاً، وتلقي الجلب نهي عنه؛ وبنص القرآن أوقفت التجارة إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، ووجب على المسلم أن يجيب الداعي، ويسعى إلى ذكر الله، ويذر البيع.

هذا إذا أراد الفلاح، ورِضَى الله، وهو أكبر مكاسب الدنيا والآخرة.

وسوف لا نستقصي الأمر في هذا، فمجاله في كتب الحديث والفقه، ولكنا سوف نأتي ببعض

الإِضاءات التي طُعِّمت بها كتب الأدب، وكَشفت عن الجهد المبذول للانتقال من روح الجاهلية إلى روح الإِسلام؛ وعن حياة الناس في هذا المجال، وبعض ما مر بهم، مما أوجد عندهم تجارب، استفادوا منها، وسجلت لأن فيها ما يلفت النظر.

والرسول ﷺ خير من يلحظ العمل المؤدي إلى الخير، فينصح به، ويهدي إليه؛ والتجارة من الأمور، التي تلمس حياة الناس اليومية؛ ولهذا فلا غرابة أن يأتي منه ـ عليه سلام الله ـ إرشاد يلمس الأسس، ويعالج القواعد، ومن ذلك ما قاله لأحد التجار:

«مر رسول الله ﷺ برجل يبيع شيئاً، فقال: عليك بالسّوم أول السّوق، فإن الرباح مع السماح» .[1]

إن الملاحظة دقيقة، وجاءت صادقة، فالبيع مع أول السّوم، يدل على السماح، وعدم الطمع؛ وفيه ضمان للبيع، وعدم الكساد، لأن التشدد قد يؤدي إلى بقاء السلعة عند صاحبها، فإن كانت مما يفسد

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٥٨.

بالتأخير، ضاعت عليه بضاعته، وإن كانت مما لا يفسد، فقد فقد مشترياً كسبه غيره.

ويأتي الحديث من باب آخر، فيرويه صاحب «بهجة المجالس» هكذا:

«قال ابن شهاب:

مرّ رسول الله ﷺ بأعرابي، وهو يبيع مسوّمة، فقال: عليك بأول سومة، أو بأول سوم، فإن الربح مع السماح». [1]

والناس في زمنه ـ صلوات الله عليه ـ حريصون على معرفة الحلال من الحرام في البيع والشراء، فيلجؤون إليه، لمعرفة المبادئ في هذا السبيل، فيهديهم إلى الحلال ليقدموا عليه، وينبههم على الحرام، ليجتنبوه، ويأتي هذا في كلمات جامعة مانعة، كما جاء ذلك في نص، يروي سؤال مستفت له ـ عليه السلام ـ والسؤال والجواب هكذا:

«سأل حكيم بن حزام رسول الله ﷺ، فقال:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ١٣٤.

يا رسول الله، إني اشتري شراء، فما يحل لي مما يحرم علي؟

فقال: إذا اشتريت بيعاً، فلا تبعه حتى تقبضه، ولا تبع ما ليس عندك». [1]

ولو حافظ الناس على هذه القاعدة الثمينة، لاستراحوا من مشاكل عظمى تقوم بينهم أحياناً؛ لأن البائع قد لا يستطيع تسليم ما لديه، أو يسلمه معيباً، أو بوصف مختلف عما ظنه المشتري، فإذا ما باع المشتري ما اشترى قبل أن يقبضه، تعقد الأمر، وأَدْخلت المسألة أكثر من شخص، أصبح بينهم نزاع، كان بالإمكان تفاديه، لو أخذوا بإرشاد الرسول ﷺ.

وهناك حديث يُروى، له صلة بهذا الحديث، مما يدل على أهمية عدم بيع البيعتين في بيعة، والحديث الثاني، يأتي هكذا:

«قال رسول الله ﷺ:

(١) تاريخ بغداد: ١١/ ٤٢٥.

«مطل الغني ظلم، فإذا أُحِلْتَ على مليء فاتبعه، ولا تبع بيعتين في بيعة» .[1]

والفقير قد يُماطِل رغماً عنه، فهو لا يملك ما هو مطلوب منه، ولعله في ألم من موقفه هذا، فيكون بذلك معذوراً، أما الغني القادر على دفع دَينه، وسداد ما عليه، للآخرين، فلا عذر له، ويدخل عمله هذا في حدود الظلم، والظلم ظلمات، فإن كان المماطل فيه في تجارة، فلن يبارك الله له فيها، وإن كان في زراعة فالله قادر على أن يعاقبه بالآفات، وعوامل الطبيعة، وهي جند من جند الله، يرسلها على من يشاء، وإن كانت في صناعة أرسل الله عليها الكساد؛ ولهذا فحقوق الناس لا تنتظر المزاج، والرغبة.

وهناك أناس ممن رضي الله عنهم، وهداهم إلى فعل الحق، والمبادرة به، يستميتون في سبيل سداد ما عليهم، وقد يضطرون إلى بيع أعز ما عليهم، وقد

---

(١) تاريخ بغداد: ١٢/ ٤٨ .

تكون أداة صناعتهم، أو مزرعة منها قوام أودهم. وهؤلاء مهما فقدوا فالله كفيل ـ ما دامت نيتهم طيبة، أن يعوضهم، جزاء صبرهم على هذا الامتحان، ونجاحهم فيه.

وبعض الناس تسهل له نفسه إعطاء المال هبة، بغية جلب المدح، وقد يكون هذا بمقادير باهظة، ولكنه لا يهون عليه دفع الدين، ولو كان قليلاً، أو تافهاً، وكأنه يحلو له مطاردة الناس له، أو كأنه ينتقم منهم لأنهم أقرضوه بدلاً من أن يكافئهم.

ويحتاج ما قاله الرسول ﷺ إلى فحص دقيق من علماء الحديث، لأنه ليس كل ما جاء في الكتب عنه صحيحاً، خاصة كتب التواريخ والأدب. وقد أغرم الناس بوضع الأحاديث تبريراً لبعض ما يقولونه، ودفعاً لآرائهم؛ وفي التجارة أقوال موضوعة، مثلما في غيرها، وقد يأتي الوضع عن حسن نية واجتهاد، إبعاداً للناس عن خطأٍ فاحش يرتكبونه، فينصح الناصح، ويعظ الواعظ، ويدخل بعض ما يقول

احتساباً، وطلباً للثواب، وينسى قوله ﷺ: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار؛ لأن أقواله الصحيحة ﷺ جزء من الشرع الإسلامي، وإدخال شيء عليها، قد يناقض بعض أقوال القرآن، أو أقوال الرسول، وهذا يوجد بلبلة وخلطاً، ولا يعلم إلا الله مدى ما يحدثه، من تأثير، أي حديث يُفترى، مهما كان قصيراً، أو في موضوع تافه.

ومن الأحاديث الموضوعة؛ كما أشار الخطيب البغدادي، في كتابه: «تاريخ بغداد»، الحديث الآتي:

«قال النبي ﷺ عندما غلا السّعر بالمدينة، وجاءه أصحابه، فقالوا: يا رسول الله غلا السعر، فسعِّر لنا.

فقال رسول الله ﷺ:

الله هو المعطي، وهو المانع، وإن لله ملكاً اسمه عمارة على فرس من حجارة الياقوت، طوله مد بصر، يدور في الأمصار، ويوقف في الأسواق، فينادي ألا ليغل كذا وكذا، ألا ليرخص كذا وكذا». [١]

---

(١) تاريخ بغداد: ١٢/ ٩٢.

وكان الخيرون يتحرجون من الغش، أو السكوت على العيب فيما يبيعونه، لأن رسول الله ﷺ يقول: من غشنا فليس منا؛ فكانوا يبادرون في كشف الخلل، ولو نزلت قيمة السلعة، لأنهم حريصون على الكسب الحلال، لأن الحرام مهما قل، فإنه يُوْدِي بالكثير؛ ويذكرون دائماً أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ «أكبر» فهو ـ عز شأنه ـ أكبر من أن يغيب عنه خداع المخادع، وغش الغاش، وهو «أكبر» لا يترك حق المهضوم، ومن دُلِّس عليه؛ فإن دخل «القرش» الحرام في زراعة مزرعة أَوْشَكَ أن يصيبها بالعطب، وإن دخل في البيت فأحرِ به أن ينهدم، أو يحل به الشؤم، وإن دخل في سفينة فسوف تكون عرضة للغرق، أو في طائرة، فهي عرضة للاحتراق، وإن دخل في شركة، فسوف تدخلها سوسة الإفلاس، وهكذا لأن الحرام سوسة، وشرارة، وعامل هدم وغرق.

كانوا حريصين على التنبيه على العيب بطريقة واضحة، حتى لا يكون هناك وَهْمٌ، أو لبس، وحتى

لا يبقى في نفس أحدهم شك، إذا ما قبل المشتري السلعة بعيبها، والقصة الآتية تبين واحدة من القصص، التي حرص كل بائع أن يبين ما يعرفه عنها من العيوب:

«قال أبو مسلم حدثني أبي عن أبيه عبدالله قال:
جاءت امرأة إلى عمرو بن قيس بثوب فقالت:
يا أبا عبدالله اشتر هذا الثوب، واعلم أن غزله ضعيف.
قال: فكان إذا جاءه إنسان فعرضه عليه قال:
إن صاحبته أخبرتني أنه كان في غزله ضعف.
حتى جاءه رجل، فاشتراه؛ قال:
قد أبرأناك منه». [1]

لم يضع الخير، والنية الطيبة، تجاهه، فرغم أن الثوب معاب، فإن سوقه لم يكسد، وما بارت بضاعة غلفت بالصدق، وأحيطت بالنية الحسنة، وحب الخير للناس، والبعد عن حب النفس.

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/ ١٦٥.

هؤلاء أناس ربطوا حبلهم بحبل الله، ووصلوا سببهم بسببه، وبقوا تحت ظل أوامره يتبعونها، ونواهيه يجتنبونها، فلا يتصرفون تصرفاً إلا بعد أن يعرضوه على بوتقة الدين، ويهذبوا عملهم، ويشذبوه، حتى يدخل حيّز الدين؛ ولهذا عاشوا سعداء، لأنهم تساووا بالتقوى في مجتمعهم، فأصبحوا جسداً واحداً، متناغماً، لا نفرة بينهم.

والقصة الآتية رغم أن العيب لا يحتاج إلى أن يذكر، لأنه ليس عيباً يمنع من بيعه، إلا أنه من الأمور النسبة، ونعتبره عيباً، لأن بائعه باعه من أجل هذه الصفة فيه، ولم يخفها عندما سئل عنها، والقصة توضح ما نقصده:

«حدث شيخ من أهل البصرة قال:

رأيت محمد بن واسع الأزدي، بسوق مرو، يعرض حماراً، فقال له رجل: يا أبا عبدالله أترضاه ليَ؟

قال: لو رضيته لما بعته». [١]

---

(١) تاريخ بغداد: ١٢/١٦.

إن محمد بن واسع لم يغش أحداً عندما أراد بيع الحمار ، لأنه ليس فيه عيب ظاهر ، إلا أنه لم يعجبه ، لأن فيه ما لا يتناسب مع طبع ابن واسع ؛ ولهذا لما سئل أبان أنه لم يرضه .

وما لا يُرضي شخصاً قد لا يهم آخر ؛ وهناك قصة تؤكد هذا، لأن البائع كان أميناً، وذكر العيب ، وهو عيب نسبي أيضاً ، فهو نقص في نظر الحاضرة ، ولكنه ليس عيباً عند رجل البادية، الذي جاء ليشتري، ويريد غلاماً يسرح بالدواب، ويخدم ، وهذا أهم ما يريد من الغلام ، والقصة هكذا :

«اشترى أعرابي غلاماً ، فقال للبائع :

هل فيه عيب؟

فقال : لا ، غير أنه يبول في الفراش .

فقال : ليس هذا بعيب، إن وجد فراشاً فليبل فيه» . (1)

الغلام سوف يفترش الرمل في أغلب الأوقات ،

---

(1) عيون الأخبار : ١/ ٣٦٢ .

وقد يُعتنى به وقت الشتاء، لأنه مدفوع فيه ثمن غال، ولابد من المحافظة عليه، أما في غير الشتاء فعليه أن يعتني بنفسه.

ـ[1] ونعود مرة أخرى إلى الأسس التي كانوا يبنون عليها المعاملة في التجارة، وكانوا بتوفيق الله، على أثرها، ناجحين. وهذا هو الزبير، عندما سئل عن أسباب نجاحه في تجارته، كشف الغطاء عن المخبأ في نفسه من أسرار النجاح فيها، فقال:

«قيل للزبير، بم بلغت ما بلغت من اليسار؟
قال: لم أرد ربحاً، ولم أشتر[2] عيبا».[3]

وكلمة أشتري الواردة في كلامه تعني أنه لم يبع شيئاً معيباً، أي أنه لم يغش أحداً، هذا أحد شرطين أتى بهما، والشرط الثاني أن السوم الأول إذا جاء له بربح، فإنه يبيع، ولا ينتظر من يأتي بما هو أعلى،

---

(١) الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».
(٢) وقيل «استر» بدلا من «اشتر» وأستر أقرب للقبول، وإن كانت كلمة «اشتر» تعني أحياناً «أبيع».
(٣) عيون الأخبار: ١/ ٣٥٩. بهجة المجالس: ١/ ١٣٤.

طلباً لربح فاحش، وطمعاً في كسب مغالى فيه؛ ولهذا أنزل الله له البركة فيما يبيعه، أو يشتريه؛ لأن في عمله هذا بعداً عن الشطط، الذي حصيلته الندم؛ وما يأتي منه إلا الكساد في المدى الطويل.

وقصة عبدالله بن جعفر في كرمه، ثم في مُمَاكسته في الشراء معروفة، تناقلتها الكتب، وتسابق إليها الرواة؛ وهي قصة حيرت مشاهديه، ومراقبي كرمه المتناهي، وجعلتهم لا يصبرون عن التقدم إليه بسؤالهم عما حيرهم منه، فأجابهم بما كشف لهم المُعَمَّى، وأبان لهم سر ما خفي عليهم، مما أقنعهم، والقصة كما يلي في إحدى صورها:

«رُئي عبدالله بن جعفر يماكس في درهم، فقيل له: أتماكس في درهم، وأنت تجود من المال بما تجود به؟ قال: ذلك مالي جدت به، وهذا عقلي بخلت به». [1]

كرم عبدالله بن جعفر متناهٍ وذِكره فيه طبق

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٥٩.

الآفاق، وقد بلغ فيه مبلغاً لم يبلغه إلا قليل من المشهورين في الكرم، سواء كان ذلك في الجاهلية، أو في الإسلام، كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، تأتيه الصلة من الخليفة، فلا تكاد تستقر في يده، ويأتيه فقير فيعطيه عطاءاً يذهله، وكان يعطي على مقداره هو، لا على مقدار السائل.

ولكن عبدالله بن جعفر يتعب البائع عندما يريد أن يشتري منه سلعة، فيساوم، ويلحف في المساومة، حتى يصل إلى أدنى سعر يمكن أن ينزل إليه البائع؛ ووراء هذا فلسفة، فهو لا يرضى أن يضحك منه أحد، فإذا كان يعطي من ماله عن رِضًى، وقناعة، فهو لا يرضى أن يؤخذ منه ماله بالحذق والمهارة، ولا يريد أن تكون لأحد عليه اليد الطولى، ويُحتل، فيباع عليه بأكثر مما يباع على غيره؛ لو رضي بهذا، فهو مهين لعقله الواعي، العارف بالخدعة.

وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من الخلفاء النشطين، الذين لا يكلون، ولا يتعبون، من متابعة

أمور الناس، واستقراء الأحوال، والخروج عنها بما ينفع الناس، فهو يعطي حصيلة تبصره، وملاحظته، لأهل المهن، يعطيهم إياها في صورة توجيه، وإرشاد، ونصح، وأحياناً في صورة تحذير وتخويف، ومن الأسس التي يروى عنه أنه نبه إليها الأساس الآتي:

«من تجر في شيء، ثلاث مرات، فلم يُصب منْه، فليتحول إلى غيره». [1]

وفي هذا القول بعض الصواب، سواء قاله عمر، أو قيل على لسانه؛ لأن عدم الربح عدة مرات، قد تعني أن الرجل ليس عنده الملكة، أو الإتقان، لهذا العمل؛ فإن كان أخفق في بيع الغنم، وشرائها، فليجرب الأقمشة مثلاً، فقد يفتح الله عليه باباً يتناسب مع معرفته، وتفكيره، وتكون قدرته في هذا خيراً من نقصها في ذاك، وقد يكون في الناس الذين يتعامل معهم هنا، غير ما في الناس الذين يتعامل معهم هناك، لاختلاف الطبيعة هناك؛ فلو تحول من

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٠.

تجارة الدواب إلى تجارة الثياب، فقد يكون اختياره لأقمشة النساء، فيكون عنده من المنطق معهن والإقناع ما لا يكون مع الرجال الجفاة الغلاظ، رعاة الإبل، و «شواة» الأغنام!!

وروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه تحدث أيضاً عن مبدأ آخر من مبادئ التجارة، وأساس من أسسها، قال:

«فرقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين، ولا تُلِثُّوا بدار معجزة» .[1]

وفي هذا حيطة لأن من وضع تجارته في رأسين من الإبل، متوسطي النوعية، أو رأسين من الغنم، أو غلامين، فمات أحدهما غنم المشتري أحدهما، بدلاً من أن يخسرهما، والموت أمر متوقع. ويدخل في هذا إذا كان تاجراً، يبيع ويشتري، فالأفضل إذا كان السوق يسمح، والموسم مناسباً، أن يشتري غنماً بدلاً من بقرة واحدة، وبقرتين بدلاً من بعير واحد،

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٠.

وهكذا، ولن يسبقنا بهذا الإنجليز في قولهم «لا تضع البيض في سلة واحدة».

وبقية القول: «لا تُلِثُّوا بدار معجزة» حكمة بالغة، فالناس قد لاحظوا أن إنساناً يكسب في بلد، وآخر يكون كسبه في بلد آخر، فعمر نبه إلى عدم العناد والمكابرة، فالإنسان الذي يستعصي عليه الربح في بلد، عدة مرات، ويخفق في محاولته الكسب، فعليه أن لا يلبث في هذه البلدة، وأن يرحل عنها إلى غيرها، فلعله يجد فيها بديلاً أفضل. والعامة أخذوا هذا القول فقالوا: «ليجرب حظه في بلد آخر، وصنعة أخرى».

ومبدأ ثالث يضعه عمر، وينتزع الملاحظة فيه من واقع الأمر في وقته ذاك، فيقول:

«إذا اشتريت بعيراً فاشتره عظيم الخَلْق، فإن أخطأك خير لم يخطئك سوق».[1]

هذه حكمة واضح صدقها، فكمال السلعة وبهاؤها، يضمن عدم كسادها في يد مشتريها، فإذا

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٠.

اشترى شخص بعيراً للركوب، فوجده شرساً، أو مشيه مزعجاً، وركوبه صعباً، وأراد أن يتخلص منه، فإن بإمكانه بيعه بسهولة، إذا كان ضخماً حتى لو أبان للمشتري عيبه، لأنه يمكن أن يأتيه فيه ربح إذا كان المشتري يريد أن يذبحه، ويبيعه لحماً.

وهذا يذكرني بأمر كان شائعاً منذ ثلاثين عاماً: كان الناس ينصح بعضهم بعضاً إذا أراد أحدهم شراء سيارة، أن يشتري سيارة «شفر»، لأنه سوف يبيعها بعد استعمالها عدة سنوات بثمن مُجْزٍ، لأن «الشفر» مرغوب، لأنه يُشترى سيارة أجرة «تاكسي». وقد كان كثير من الناس يفعل ذلك، بناء على هذا الرأي، واتباعاً لهذه النصيحة، حتى أصبحت هذه السيارة من أكثر السيارات رواجاً. واليوم وقد تغير وضع سيارات الأجرة، إلا أن هذه السيارة بالذات لا يزال لها في قلوب بعض الناس مودة، وهم يعللون هذا بسماحة أمرها في رخص قطع الغيار، وكثرة «الْوِرَش» التي تصلحها؛ ويبدو أن في القلوب جزءاً

مخصصاً لحب نوع من السيارات دون بعض!

ومن أقواله ـ رضي الله عنه ـ وفيه نظرة صائبة:

«بعِ الحيوان أحسنَ ما يكون في عينك»[1].

هذا قول صحيح، ويعني هذا أنك قبل أن تنهك السلعة، وقبل أن ينتهي جهدها، وقبل أن تصبح في وضع لا تصلح لشيء معه، تخلص منها، وأبدلها بغيرها، ما دامت هذه السلعة لا تزال تعمل، ولا تزال تصلح لأحد غيرك؛ وهذا أمر يصدق اليوم على السيارات، فكثير من الناس يتبع هذه القاعدة، ويبيع سيارته ما دام فيها «عرموش» أو «عراش»، أي ما دام هناك لحم باق على العظم.

وقال رجل لابنه في زمننا هذا:

«يا بني، لا تجعل تجارتك فيما يأكل أو يشرب».

والمقصود ألا تجعلها في الدواب، ولا في المزارع، لأن الفوت والموت في الأولى متوقع، وفي الثانية

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٠.

العطش والجفاف ليس مستبعداً. وقد ورد قول لمعاوية يسير محاذياً لهذا، يقول معاوية:

«دخل ناسٌ على معاوية، فسألهم عن صنائعهم، فقالوا:

بيع الرقيق.

قال: بئس التجارة: ضمان نفس، ومؤونة ضرس». [1]

ولقد صدق معاوية فيما قاله، فلقد جاء في هذه الجملة القصيرة بمعنى كبير؛ فتجارة الرقيق من أسوأ المهن، أولاً لطبيعتها في بيع إنسان، لا يُعرف كيف استرق؛ وثانياً لا يعرف متى يُشترى إن جُلب، فقد يبقى مدة طويلة لدى النخاس، ومن المتوقع أن يكون في عيشة متدنية، وبيئة منحطة، وبهذا يكون عرضة للمرض ثم الموت، والخسارة فيه كبيرة، مثلما أن المكسب المتوقع منه كبير. فإذا لم يبع سريعاً، فإنه ضرس طاحن على النخاس، وهو ليس مثل الحيوان،

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٠.

يوضع في حظيرة تشبه الحبس، يُعطَى له ما يشتهي المعطي أن يعطيه؛ المملوك إنسان، وله عقل الإنسان في الطلب، وفي الحِيَل، وفي المكر، وفي الخداع، مما قد يخسر النخاس بسببه كثيراً.

وهناك قول قاله مجرب لثقل حيازة المزرعة، أو الضيعة، وكثرة مؤونتها، وقلة مردودها، والقول كالآتي:

«باع رجل ضيعة، فقال للمشتري:

أما والله لقد أخذتَها ثقيلة المؤونة، قليلة المنفعة.

فقال: وأنت والله لقد أخذتَها بطيئة الاجتماع، سريعة التفرق». [1]

والضيعة تحوي المنقصتين، ففيها الحيوان الذي يأكل دائماً، وعرضة للموت، وفيها الأشجار والزرع، نُهِمة بطلب الماء، وعرضة للعطش والجفاف. ولم يقل هذا القائل قوله، ولم يبع ضيعته، إلا بعد أن عانى منها، ولم يجد بُدّاً من التخلص منها؛ ويبدو أن الثمن

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٠.

لن يكون نقداً حاضراً في مجلس حاضر، ولكنه، أو جزء منه، مؤجل، مما دعا المشتري أن يقلل من ربح البائع، في طول استيفائه الثمن، وسرعة تفرقه.[1]

ومن أمور الحِجَاج والجدل بين البائع والمشتري، التي تُري تكافؤ الاثنين في جدلهما، وتوفيق كل منهما إلى أخذ الزاوية التي تعضد نظرته، القصة الآتية:

«اشترى رجل من رجل داراً، فقال له المشتري:
لو صبرتَ لاشتريتُ منك الذراع بعشرة.
فقال: وأنت، لو صبرتَ بِعْتُك الذراع بدرهم».[2]

ولهم من كرم النفس، وحب النصف ما يليق بهم في عصر الصحابة والتابعين، وكان الواحد يعطي الحق من نفسه، ولا يتساهل فيما للآخرين من حق، وحتى لو أراد البائع أن يبرهم، لم يرضوا، لأن في هذا نقصاً عليه، ولابن عمر موقف هذه صفته:

«ابتاع ابن عمر شيئاً، فحثا له البائع على المكيال،

---

(١) والمعنى الأقرب: طول انتظار الثمرة، وسرعة أكلها، أو ثمنها.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥١.

فقال له ابن عمر :

أرسل يدك، ولا تمسك على رأسه، فإنما لي ما يحمله المكيال» .[1]

لقد أراد البائع أن يبرئ ذمته، فوضع يدهُ عند أعلى الصاع، حتى يزيد في طوله، فيزيد للمشتري في الكيل، فلاحظ هذا ابن عمر، ورأى أن فيه زيادة على حقه، فلم يقبل ذلك، وأراد أن يكون الرجحان للبائع .[2]

ومحاولة تبرئة الذمة هذه تتبين في قصة لعمرو بن عبيد مع بائع، وكان في الموقف نبل من الطرفين، وهي كمايلي :

«اشترى عمرو بن عبيد إزاراً للحسن بستة دراهم ونصف، فأعطاه سبعة دراهم، فقال الرجل :

إنما بعته بستة دراهم ونصف .

---

(١) عيون الأخبار : ٣/ ٢٥١ .

(٢) قال الشاعر :

إذا ما تاجر لم يوف كيلا فصُبَّ على أنامله الجُذام

عيون الأخبار : ٣/ ٢٥٣

فقال عمرو: إني اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهما». [1]

لعله أعطاه إياه تبرئة لذمته، لأنه قدره بأكثر مما رضيه البائع، أو أنه أعطاه إياه سماحاً وتكرمة، ولا شك أنه موقف محمود من الرجلين، هذا لتنبيهه بأصل البيع، وهذا بتسامحه بباقي الثمن.

وكنا تحدثنا عن الرجل الذي أوصى ابنه أن لا يجعل ماله فيما يأكل أو يشرب، لما في هذا من مخاطرة، وقد يكون توصل إلى هذا بالتجربة، وبمراقبة الناس، أو لعله اطلع على ما قاله سهل بن حنيف لبعض أقاربه، عندما قسم بينهم أمواله، وهذا ما قاله لأحدهم:

«يا بن اختي إني أوثرك بالقرابة؛ إعلم أنه لا مال لأخرق، ولا عيلة على مصلح، وخير المال ما أطعمك، لا ما أطعمته، وإن الرقيق جمال، وليس بمال». [2]

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥١.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥١.

الذي يدخل في نطاق حديثنا هو الجملتان الأخيرتان، فمؤداهما يتفق مع ما سبق أن قلناه، في أمر الحيوانات والمزارع، وما قاله معاوية لتجار الرقيق.

والجشع قد يكون صفة بعض التجار في بعض العصور المتأخرة عن صدر الإسلام، فيظهر منهم ما لا يتفق مع الروح الإسلامية المطلوبة، ويتبين ما يخالف ما ذكرناه عن إرشاد الدين، والسلف الصالح، ومن القصص التي تروى عن بعض مظاهر الطمع عند التجار، القصة الآتية:

«قال رجل لآخر: بكم تبيع الشاة؟

قال: أخذتها بستة، وهي خير من سبعة، وقد أُعطيتُ بها ثمانية، فإن كانت من حاجتك بتسعة فزن عشرة». [1]

هذا الرجل لو تُرك يتكلم، ويبني الرمال في الهواء، فالله وحده يعلم أين ينتهي، ولولا أن نَفَسَه قد انقطع، فاضطر إلى الوقوف، لوقف به خياله عند المئة!

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٢.

وليس كل صاحب مال يتفق مع غيره، فقد يرى هذا غير ما يرى هذا، ولولا ذلك لكسدت بعض السلع، فالذين لم يكونوا يرون العقل في زراعة المزارع، وإحياء الضياع، لحكمة توصلوا إليها، يخالفهم آخرون، يحثون على الزراعة، ويصورونها صوراً جميلة، ويكادون لا يرون أن يوضع المال إلا فيها؛ ولولا هذا الاختلاف في الرأي، وتباين وجهات النظر، لأصبح عمار الكون فيه نقص عما هو عليه الآن، من تسابق الناس على انتهاز الفرص، وتوقع الربح في بعض ما قد لا يأتي منه ربح، وهذا قول مخالف لبعض ما سبق أن وصفناه من حال بعض المجربين:

«كان يقال:

خير المال عين خَرَّارة، في أرض خوارة، تفجرها الفارة، تسهر إذا نمت، وتشهد إذا غبت، وتكون عَقِباً إذا مت» .(١)

والصالحون يحبون الوقار، والوقار يتنافى مع رفع

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٢.

الصوت، تَمَثُّلاً بما جاء في القرآن الكريم من: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ .(١)

ويطبقون هذا على التعامل في التجارة، فيشمئزون مما يحتاج منها إلى المناداة بصوت عال، وقد جاء شيء عن هذا في نصٍّ في التراث، يقول:

«قال سعيد بن المسيب:

إن الله إذا أبغض عبداً جعل رزقه في الصياح.

وقال الفضيل مثل ذلك.

وقال: أما سمعت إلى أهل دار البطيخ، والملاحين، ودَوِيِّهم؟» .(٢)

هؤلاء يضطرهم عملهم إلى المناداة لجلب زبائنهم بصوت عال، وهو ما يتنافى مع ما يوجبه الوقار، وتقتضيه الرزانة، وتتطلبه المروءة.

والسلع تختلف من زمن إلى زمن، ومن أرض إلى أرض وما قد يكون محموداً في زمن، قد لا يكون

(١) سورة لقمان، الآية: ١٩.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٢.

محموداً في زمن آخر، وما قد يكون مرغوباً في بيئة قد لا يكون كذلك في بيئة أخرى؛ فقد تحمد الزراعة في العراق على الأنهر، وقد لا تحمد قرب العيون المعرضة للجفاف، وقد تحمد سلعة الأغنام حيث الأحراش والمراعي، وقد لا تحمد في أماكن عرضة للجفاف.

ومما قيل عن طرح بعض البيئات:

«قال عبدالله بن الحسين:

غلة الدور مُسْكَة، وغلة النخل كفاف، وغَلَّةُ الحَبِّ الغِنَى» .[1]

هذه أمور وصفُها صادق في بيئتها، فغلة الدار المؤجرة، ثابتة معروفة، وهي تفيد صاحبها في حدود أجرتها، التي تكون عادة بنسبة شبه ثابتة من قيمة بنائها.

والحِكَم في التجارة مثل غيرها، تأتي صادقة، ومدلولها ثابت، لأنها عصير تجربة، ونتيجة تبصر وتمعن، روقبت فيه الحوادث، وتصرفات الناس،

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٢.

مقرونة بظروفها، ومحيطها، وهذا نموذج من هذه الحكم، وكما نرى، هي عين الحق والصدق، في دلالتها، وانطباقها على الواقع:

«قال ميمون بن ميمون:

من اشترى الأشياء بِنَعْتِ أهلها غُبِن» .[1]

البائع عادة، إذا لم يراقب الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكون همه بيع سلعته بأعلى الأثمان، وليتم له ذلك فإنه يمدحها مدحاً زائداً عن الحقيقة، ومخالفاً للواقع؛ واللوم حينئذ ليس عليه، وإنما على من صدقه.

وهذا يذكرنا بتحذير العقلاء من الخاطبة، التي تكيل المدح عمن تريد أن تزوج، وتحسِّن البنت في عين طالب الزواج، فهي لا تترك صفة من الصفات الحميدة إلا وتجعلها فيها، ولا صفة مذمومة إلا وتنفيها عنها؛ لأن عينها على ما سوف يأتيها من هذا الزواج من المال من جانب الرجل، ومن جانب المرأة. والعامة تقول في مجال التعجب: «مَنْ مّداحتها؟! خطابتها!».

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٢.

والاهتمام في التجارة مثل الاهتمام بغيرها من الأمور القيّمة في حياة الناس، وفي معيشتهم، ومجتمعهم؛ ومن مظاهر الاهتمام في هذا وضع القصص للتأثير، وأحياناً تكون القصص غير حقيقية، وتأتي رمزاً للفكرة التي يراد بثها، وإشاعتها بين الناس، أملاً أن تجلب خيراً، وتبعد شراً، وتُقوِّم معوجاً، وتملأَ فراغاً، وتحسِّن قبيحاً، وترفع ضرراً، وتأتي بنفع، ومن ذلك القصة الآتية:

روي عن الحسن أنه قال:

كان رجل يتجر في البحر، ويحمل شراباً يأتي به قوماً، فعمد إليه، فمزجه نصفين، وأتاهم به، فباعه بحساب الصِّرْف، واشترى قرداً، فحمله معه في السفينة، فلما لجّج في البحر لم يشعر إلا وقد أخذ القرد الكِيس، وعلا على الصّاري، وجعل يلقي ديناراً في البحر، وديناراً في السفينة، حتى قسمه قسمين». [1]

هذا عقاب مخفف، وإلا فالمعروف أن الحرام يذهب

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٥٣.

بالمال كله، لأنه يكون آفة عليه، فيقضي عليه، مثلما يدخل اللبن الفاسد على الصالح، فيفسد الفاسد الصالح، ولا يصلح الصالح الفاسد. ولكن القصة الرمزية هذه أرادت أن تؤكد مضرب الخطأ، وجاء العقاب من جنسه، عظة واعتباراً.

هذه بعض ملامح من التجارة في العهود السابقة، أرت بعض الجوانب مما كان يراه القوم، وما كانوا يأتون به في تجارتهم. وهو قليل من كثير مما دُوِّن، وبعضه مدهش، ولكننا اكتفينا بهذه النماذج، ونرجو أن تكون أعطت فكرة عن بعض ما لمسته النصوص.

* * *

# ظاهر وباطن[1]

يكاد يكون لك أمر ظاهرٌ وباطنٌ، وقد يُكتفى بالظاهر عن الباطن، وقد يكون الظاهر مدعاة للبحث عن الباطن، لأن فيه من الغرابة ما يدعو إلى الدهشة والتساؤل، والبحث في الأعماق عما يكمن مما أغرى به الظاهر.

والإيهام فيه من الجاذبية أحياناً ما يشغل الذهن، ويدعو إلى البحث والاستقصاء، والغوص في الأعماق، ولعل هذا آت من غريزة حب الاستطلاع عند الإنسان، وهي غريزة قوية تولد معه وتبدأ تتشكل وتتبلور مع تقدم السن، ونضج الإنسان، حتى تصل إلى المستوى المحمود، فتكون دافعاً له للبحث العلمي والتنقيب.

وقد يكون في ظاهر الأمر ما يشد إلى الحد الذي لا يجعل الإنسان يهنأ بعيش حتى يكشف المعمى، ويعرف الأسباب، لأن الظاهر شغل ذهنه، وشد انتباهه،

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٩١) في ١٦/ ٣/ ١٤١٦هـ الموافق: ١٢/ ٨/ ١٩٩٥م.

وأبقاه في حيرة مقلقة .

وقد لا يكون الكامن خلف الظاهر مهماً، ولا يستحق الاهتمام الذي صرف إليه، ولا التطلع الذي وجه نحوه، فيكون تافهاً ساذجاً يخيب أمل مكتشفه، والساعي وراء معرفته؛ وقد يندم اللاهث خلفه، والمدلج وراءه، على طول الركض، وبذل الجهد، وضرب أخماس في أسداس في الخرص والحدس والتخمين؛ ويأسف على التصور العميق، والخيال الجامح الذي بذل في الغوص على هذا الباطن؛ ومع هذا يبقى الإنسان على ما هو عليه في التعلق في كشف المعمى، والبحث عن السر، والغوص على الأسباب .

بل إنه على كثرة ما يمر بالإنسان من أمور مغلقة الأسباب، خفية البواطن، وعلى كثرة ما يخيب ظنه، ويندّ أمله، عند بيانها، وكشف معماها، فهو لا يقلع عن عادة الركض خلف السر، ولا يستطيع أن يقاوم رغبة هذه الغريزة، أو يقف في وجهها، حائلاً بينها وبين ما تطمح إليه، وما هي متعلقة به، لأن هذا طبع

متمكن من نفسه، ومختلط بها، ولعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوجدها في الإنسان، لتكون باباً لتطور العلم، ومفتاحاً لمغلق أبوابه، فيبقى حيّاً نامياً، بما يبذل من جهد موفق، وعمل صواب، يساهم في كشف غوامض الكون، وما يكمن في طبيعة الأشياء. وإلى توفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم إلى هذه الغريزة، وحدّتها، وتمكنها، يعود اكتشاف كثير من مخبآت العلم الحديث، واختراع الجديد في كل فن.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر الإنسان ألا يقف مكتوف الأيدي أمام غموض الكون حوله، فأمره أن يتدبر، ويتبصر، ويفكر فيما حوله؛ وأمره أن يبدأ بنفسه، وهي أقرب موقع جغرافي له، وفيها من الغموض والإبهام ما يكفي لشغل ذهنه، واندهاش عقله، وما يأخذ وقتاً طويلاً في التعرف على داخله، وما خلق من أجله، والهدف منه، والغرض الذي يؤديه، وعمله منفرداً، وعمله مع غيره، ولا حدود لما أجنّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الجسم والنفس، ثم في

الكون كله، وما فيه من مخبأ، كَشْفُهُ ينفع الناس في زمن كشفه، وما بعده من زمن.

بل إن الإنسان ليشعر أن هداية الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع كل مستكشف، وخلف كل مخترع، يرشده إلى معرفة ما فيه صالح جيله، وما يأتي من أجيال. وهذا شعور بعض الباحثين والمكتشفين والمخترعين، الذين لاحظوا أنهم أحياناً يبدؤون طريقاً في البحث، يهدفون منه إلى الوصول إلى تجربة وضعوا نظريتها، وفكرة أرادوا أن يروا عملاً مدى صحتها، ولكنهم، وهم في طريق إثباتها، أو نفيها وإبطالها، وجدوا أنهم تعرضوا دون قصد إلى ما وقف في طريقهم، وأخرجهم عن النهج الذي بدؤوه، والطريق الذي اختاروه، وتدريجاً جرهم إلى ما أبعدهم عنه؛ جرهم إلى أمر لم يريدوه، وهدف لم يقصدوه، وإذا هم على رأس مكتَشَفٍ جديد أهم، أو مخترع مدهش لم يكن في اتجاههم الأصل؛ وتفسيرهم أن الله وجههم هذه الوجهة، وغيّر خط سيرهم إلى ما أراده

هو، وصرفهم عما أرادوه هم. وتكاد كل المكتشفات المفاجئة، والمخترعات الضمنية، توحي بهذا لهؤلاء المفكرين الباحثين.

وتعلق الإنسان بمعرفة الأسباب التي تكمن خلف الظواهر أمر يسيطر على أذهان الناس سيطرة تامة، ولا يقتصر على شخص دون شخص، وإنه ليهتم به الطفل، ويهتم به الشاب، وتهتم به المرأة، وتهتم به البنت، ولا يقتصر على سن بعينها، ولا على شعب بعينه، ولا على جنس بعينه، ولا في أمّة بعينها؛ ولا على نوع بعينه، ولا في أمر بعينه؛ وهو يتعلق بكل أمر يحتاج الأمر فيه إلى معرفة السبب خلف ما هو ظاهر؛ وكل أعمال الناس فيها مراحل ثلاث: الحادثة، وما أوجبها، وما انتهت إليه، أي أن هناك سبباً على أثره يَحدث حدث، وتكون له نتيجة، وكل أمر من هذه الأمور الثلاثة يُحدث حدثاً، وتكون له نتيجة، وكل أمر من هذه الأمور الثلاثة يلبس لباس ما جاوره، فالسبب يكون حادثةً لسببٍ قبله ونتيجةً لما بعد

حدوثه، وهكذا في تسلسل لا ينقطع.

وقد استغل واضعوا القصص في القديم والحديث غريزة حب الاستطلاع، والرغبة في معرفة المخبأ، والتلهف على ما يكمن في الباطن خلف الظاهر، فاستفادوا استفادة كاملة، لجلب الناس لما يضعون من قصص؛ وأخذوا يتفننون في التعمية في أول القصة، وفي الإيهام، زيادة في شد القارئ، ولا يكشفون السر المخبأ إلا بعد أن ينالوا بغيتهم من السيطرة على تركيز القارئ أو السامع، واستنفاذ طرق تفكيره. وقد تبع هؤلاء ممثلو القصص في استغلال هذه الصفة في الإنسان، وبدؤا، أول الأمر، عملهم في هذا الاتجاه محدوداً، ثم أخذوا يمطونه، ويطولونه إلى مسلسلات، تصل حلقاتها إلى العشرات أحياناً.

وهذا جانب يتصل بالنفس، أحسن القوم استغلاله، وأمعنوا في الاستفادة منه، وتبلور إلى منهج، له أصوله وقوانينه، والذين يعتمدون فى الاستفادة مما يكتشف عن النفس، والعوامل التي تأتي منها، يفتحون باباً

واسعاً، إلى روض بهيج.

والتراث مليء بالنصوص الممتعة، دَوَّنها من دونها لطرافتها، وسجلها من سجلها لأنها تمثل جانباً من الفكر في تلك الأزمان، ووصلت إلينا فأصبحت جزءاً مما نستشهد به لهذه الظاهرة. وهي متنوعة، تأخذ مناحي مختلفة، وتسلك طرقاً متباينة، وتأتي في أغراض متعددة، لا يكاد عددها يحصى، ولا يُبَيِّن هذا الاختلاف إلا الإتيان ببعض النماذج منها، مما يمثل صورة من الصور، التي يمكن، على قياسها، أن يبحث عما لم يقتبس، ويقاس عليه.

فهذا رجل من دقيقي الملاحظة، والمتبصرين في أعمال الناس، يجلس عند أحد القضاة المشهورين، ويلازمه في عمله، في بعض الأحيان؛ وكان يرى منه أمراً عجباً، ولم يكن يعرف سببه، لأنه يظن أنه خارج عما يعتقده من طبع هذا القاضي العالم. ولعله، داخل نفسه، كان ينتقد القاضي على تصرفه، ويرى أن القاضي يغضب دون سبب، لأنه لم ير السبب، ولم

يقده تفكيره إليه، أو إلى مبرر يحلل هذا الفعل، الذي ظنه مشيناً، ويلحق العيب بالقاضي، وهو من هو في مقامه وعلمه.

ثم اكتشف السبب في نفسه، ورأى أنه هو يغضب حين يجب عليه ألا يغضب، وأن وراء هذا ما وراءه، وأن الغضب تغطية خارجة لما هو داخل، وأن المُظْهَر يظلل على المبطن، وأن في الأمر ذكاءاً مغطى، لا يرى الرائي إلا بعض دلائله، وهذه هي القصة، وما تكشف عنه:

«قال القاسم بن معن:

كنت أرى شريكاً يغضب على الخصم، فأعجب من غضبه، وأقول:

أمره نافذ، وقوله جائز، ففيم الغضب؟

فلما وليت القضاء، جعلت أكلم الخصوم، فلا أغضب، فإذا ورد عليّ الأمر لا أعرفه، غضبت. فإذا شريك إنما كان يغضب مما يرد عليه، مما لا يعرف الجواب فيه». (١)

---

(١) تاريخ أخبار القضاة: ٣/ ١٦٤، ١٨٠.

لقد احتار القاسم بن معن في أمر غضب شريك، إذْ لم يجد داعياً له، ولا موجباً لثورته، لأن له غنى عن ذلك، باختصار الأمر إلى الحكم الذي يريده، فلا أحد يمنعه من إصدار أي حكم، طال الأخذ في المحاكمة أو قصر، وقد وجد القاسم أن هذا يتنافى مع موقف شريك في مرافعات أخرى، فما السبب؟

لقد اكتشف السبب عندما جلس مجلس شريك، وعمل عمله، وتعرض لما تعرض له، وتصرف مثل تصرفه، فعذره في فعله، وجاءه الحل يسير على قدمين، مهدياً نفسه له.

وعندما نتمعن في السبب، بعد أن كشفه لنا القاسم، نجد أنه لا يخرج عن أحد أمرين، أول لعلهما معاً يتعاونان على نفس هذين القاضيين، في حالة الغضب، التي أبان عنها القاسم؛ الأمر الأول أن القاضي شريك، وبعده القاضي القاسم، يغضبان على الخصم، لأنه أبان لهما عن جهلهما أمراً من أمور عملهما، ما كان لهما أن يجهلاه، وحُكْماً ما كان له أن يند عنهما؛

وليس العلم أو الحكم أو المسألة العويصة، إنساناً أو حيواناً أو جماداً، يركلانها كلاهما بأرجلهما، ويفرغان حنقهما فيها، فالمتنفس الوحيد لهما هو ابن آدم الذي أمامهما، وهو الذي فتح الباب لهذه المشكلة العويصة، هذا الوحش المخيف، الجهل، ولا أقرب من هذا الخصم الضعيف المسكين، فهو إذاً من يستحق الغضب، ومن هو جدير بأن يصب عليه وابل الحنق.

والأمر الثاني أن جهل القاضي بيّنه هذا الخصم، أمام الخصم الثاني، وأمام الشهود، وقد يكون في مجلس القضاء آخرون ينتظرون دورهم في المقاضاة، فالشهود إذاً على الجهل جمع، ولهم نفوس تحتقر، وصدور تشمت، وألسنة تسلق، والموعد عندهم لثلب القاضي خارج المجلس عندما تلتئم مجالس السمر، وتفتح أبواب الدكاكين في السوق، وتحلو الغيبة، وقد يستوجب هذا أن يكون الغضب شديداً، بحيث يشغل حجمه، ونوعه وقوته أذهان الحاضرين في مجلس القضاء، فينسون معه أن يفكروا

في أسبابه، وإنما يقولون، همساً، في المجلس: حمق القاضي دون داع، أو يقولون: غضب القاضي بدون حق، أو جار القاضي في ثورته، فهذا كله أهون عليه من أن يقولوا: جهل القاضي، لأن قليلين سوف يصدقون أن غضب القاضي بدون سبب، وكثيرون سوف يلتمسون له الأسباب البعيدة عن الواقع، لأنه القاضي، وأنه بعيد عليه أن يثور دون داع، ولكنهم لن يفكروا في جهله وبعضهم سوف يحتار على الأقل مثلما فعل القاسم، فلا يصدر حكماً، ويبقى مندهشاً، يقلب الأمر في ذهنه.

ومن الأمور المعماة، التي يكمن وراءها سبب، لو عُرِف لبطل العجب، والعجب، في القصة الآتية عجب واسع، وإندهاش عظيم، أدخل الرائي والسامع حقل الخرافة المورق، وأبعد الظن بعداً طلقت معه الحقيقة طلاقاً بائناً، لا رجعة فيه، وتوقف على سوء استنتاج السبب تسليم برج حصين مقاوم للحصار، بسهولة ويسر، وكسب أموالٍ عظيمة،

والقصة كمايلي:

«خرج أهل اشبيلية، بعد حصار عنيف، وبعد أن قتل عدد من المسلمين عند برج الشهداء، هناك، وقال الإفرنج:

قد كسرناه (موسى بن نصير)، فإن كان يوماً مجيباً إلى الصلح فاليوم، فاطلبوه إليه.

فخرجوا إليه، فألفوه أبيض اللحية، فراوضوه على شيء لم يوافقه؛ ثم رجعوا.

فلما كان قبل العيد بيوم، خرجوا إليه ليراوضوه، فإذا هو قد شبب لحيته بالحناء؛ فألفوه أحمر اللحية، فعجبوا، وقال قائلهم:

أظنه يأكل ولد آدم، أو ما هذا الذي رأيناه بالأمس؟!

ثم خرجوا إليه يوم الفطر، فإذا اللحية سوداء، فرجعوا إلى أهل مدينتهم، فقالوا:

يا حُمَقَاء! إنما تقاتلون أنبياءًا، يتخلقون، كيف شاؤا يتشببون، قد صار مَلِكُهم حدثاً بعد أن كان شيخاً؛ إذهبوا فاعطوه ما سأل.

فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى جليقية، للمسلمين، وأموال الكنائس، وحليها، لهم» .[1]

هذا وهم بُني على ظاهر لم يعرف ما باطنه، وخارج لم يدرك كنه داخله، أكسب مالاً وذخائر لفئة، وأخسر فئة هذه الأموال، وهذه المكاسب. والغريب هذا الجهل المطبق، إذا صحت الرواية، على هذه البقعة من الدنيا؛ وأحدنا يظن أن صبغ اللحي من الأمور البدائية، التي لا يجهلها أهل الكهوف والأدغال. ويصح لنا بهذا أن نقول: هزم الحناء برج اشبيلية!!

وفساد التعليل، وبعده عن الواقع، وقربه إلى الخيال أحياناً، يحدث للناس كل يوم، وفي بؤرة ميادين العلم والتقنية، مثل الأسواق المالية، والبورصات والحدس والتخمين فيها، وكيف أن التوقع، المبني على نظر كان يظن أنه قريب من الواقع، يكتشف أنه أبعد ما يكون إليه.

---

(١) أخبار مجموعة: ٢٦.

والسياسة تعاني أيضاً من الوهم في إعطاء الأسباب، ومعرفة ما تحت الظاهر من الأقوال، والتصريحات، والأفعال، وبعضها يقصد بها التضليل، وقد تقال الحقيقة إمعاناً في التضليل، فلا يصدقها من يسمعها، ويلتمس لها الأسباب، فيبعد بهذا عن الحقيقة بُعد المريخ عن الأرض.

والحروب هي الميدان الفسيح الملائم لصولات التضليل، وتعمية الأسباب، والإيهام تجاهها، والوهم فيها، بل إنها من لازمة الحروب، فإظهار خلاف المبطن سلاح فتاك، يصغر عنده المدفع والرشاش والطائرة والبارجة والغواصة، فكم حطم الإيهام كل هذه المعدات والأجهزة والأدوات والوسائل.

وننتقل من ميدان الحرب إلى ميدان السلم، ومن الدرع واللأمة إلى الثياب البيضاء، والمراكب البسيطة، غير الثمينة، وغير المزركشة، وندخل إلى غور لابسها، وتفضيله الثياب البيضاء البسيطة، والبعد عن مراكب الذهب والفضة، السائدة بين علية القوم في

زمنه، ونفحص السبب النفسي، الذي يكمن وراء هذا التفضيل، والخروج عن القاعدة، والرضى بما لم يرض به أمثاله ممن هم في زمنه أو قبله. والرجل حاكم ذو منصب متميز في زمنه، وهو عبدالملك بن نوح أبو الفوارس، تولى السلطة عام ثلاثة وأربعين، وثلاث مئة للهجرة، بعد وفاة والده، ولقب بالرشيد، وقصته مع الثياب والمراكب كمايلي:

«كان عبدالملك بن نوح لا يلبس إلا الثياب البيض، ولا يستعمل مراكب الذهب والفضة، أخذاً بقول المأمون:

«إنما يتكثر بالذهب والفضة من يقلان عنده». [1]

هذا الرجل تنبه لهذه الحكمة التي أطلقها المأمون، وقد بناها المأمون على معرفة بأنفس الناس، وما يعتريها من عقد، وما تتعرض له من اضطراب، يُغَطَّى بما يصرف النظر عن العيب الحقيقة، ويوهم بغيره، مما يتسلى به الناس، ويلتهون. والمأمون عرف مآتي

---

(١) آداب الملوك: ٢٠٧.

الحرمان، ودخوله إلى صدور الناس، وما يفعل بهم، ومن راقب الناس من حوله، سوف يرى ما رآه المأمون، ويحس ما أحس به، ويشعر نحوهم بما شعر به، ويحكم بما حكم به.

ـ[1] ولعل عبدالملك وضع حكمة المأمون أمامه، فوجدها تُعَضَّدُ بتعاليم الدين الحنيف، في البعد عن الثياب الزاهية البراقة، التى تليق بالمرأة أكثر مما تليق بالرجل، والدين حث على لبس البياض للرجل، وفضله على الملون، وأوجب على الرجل عدم التحلي بالذهب، وحلل من الفضة ما حلل بمقدار، وحلل الذهب فقط لعلة تحكم استعماله[2] فوجد عبدالملك أنه أمام دين وحكمة، وعقله يوجب عليه عدم المغالطة، وهي ضحك من المرء على نفسه، قبل أن يكون على الناس، الذين قد يجاملون فيسكتون، أو ينافقون فيمدحون.

---

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

(٢) يجوز للإنسان أن يركب أسناناً من الذهب، إذا لم يجد من المعادن الأخرى ما يقوم مقامه. وسيف عمر بن الخطاب ذو الوشاح كانت نعله فضة: المنمق: ٤١٣.

ونتقل من الدين الإسلامي إلى الدين المجوسي، ومن العرب إلى فارس، فنتلمس مثلاً عندهم لما هو ظاهر غريب، يحتاج إلى تعليل، ومعرفة ما يكمن خلف الظاهر، من أسباب أوجبت حدوث ما حدث، مما يحير من يتعرض لرؤية ما يدهش، ويستغرب:

يحرص المجوسي ألا يخلو جيبه من نقود، ويهتم بهذا، إلى حد الاستدانة إذا لم يكن مستطيعاً، ولا يضع أمام عينه إلا توفر النقد معه؛ وهو أمر لا مثيل له اليوم إلا في أمريكا، حيث يتناصح الناس بينهم بوجوب وجود مبلغ ولو طفيف في الجيب، عند الخروج من البيت، خوفاً من التعرض لبعض مدمني المخدرات المفلسين، والذين يطالبون السابلة ببعض المال، ولا يقبلون عذراً؛ وقد تضطرهم الحاجة والخرمة إلى قتل من يطلبون منه نقداً.

أما المجوسي، ووجوب توفر المال معه، حقيقته تختلف، ولها سبب قوي، يكمن في داخلها، ولا يظهره وجهها:

قال صاحب كتاب: «آداب الملوك»:

«لم تنفع يزدجرد بن شهريار منطقته الذهب، المرصعة بالجواهر الثمينة، حين طلب صاحب الطاحونة، الذي استجار به، أربعة دراهم خسروانية، فلما لم يَحْضُرهُ[1]، دل الجند الخارجين لطلبه عليه، حتى أخذوه، وقتلوه.

فمن ذلك الوقت لا يخلي مجوسي نفسه قط من دراهم تصحبه».[2]

ولعل قليلين ممن يرون هذه الظاهرة من المجوس، إن كانوا لا يزالون يتمسكون بها، يعرفون السبب الرابض خلفها، أو يحومون حول معرفته، إلا بمعرفة مفتاحه هذا، ولعل كثيراً من أمور الناس التي تقوم على الحيطة يمكن إرجاع ظاهرها إلى سبب، قد يكون قريباً، في متناول اليد، وقد يكون بعيداً، فأنت في سفرك عبر الصحراء تحمل الماء والزاد، حتى لو كانت الرحلة قصيرة، وقريبة، فلا تعلم ما قد

---

(١) أي: لم يحضره المال.

(٢) آداب الملوك: ٢٠٥.

يعترض طريقك، والماء تحمله خوف العطش، والزاد خشية الجوع، والغطاء خوف البرد، وعجلة السيارة الرفد، ، إتقاء لما قد يحدث لإحدى العجلات، وتملأ خزان السيارة في كل محطة لئلا تجد بعض محطات الوقود فيما بعد مقفلة، لخلل أو نقص.

وليس بين مكة ـ شرفها الله ـ و «الشرائع» إلا أميال قليلة، وهي اليوم ضاحية من مكة، وفي عشر الستين الهجرية كادت جماعة أن تهلك عطشاً بين مكة والشرائع، لخلل في السيارة، وانعدام الماء، لأن الركب كانوا عزموا أن يملؤا القرب من الشرائع عند خروجهم من مكة، فوقفت بهم السيارة دونها، فليسوا قريبين من مكة، ولا هم قريبون من الشرائع، وأصبحوا مُنْبَتِّين بينهما، ولا ماء معهم، والشمس كاوية، فكادوا يهلكون لولا أن لطف الله بهم، وصادف أن مر بهم عابر ساعدهم بالماء، وما أقل الماء في تلك الأيام.

وأذكر رحلة مخالفة لهذه الرحلة، كنت أحد أفرادها، وكنا قادمين من عنيزة إلى مكة، ومررنا

بالشرائع، وهي المحطة التي قبل مكة، فشربنا الشاي، ولم نتزود بالماء، وأصاب السيارة عطل، بعد أن تابعنا الرحلة، ومعنا نساء وأطفال، والسيارة فورد كبيرة من صنع ١٩٣٨، وكان الوقت بعد صلاة المغرب، في بدء فصل الصيف. وسرعان ما عطش الجميع، وبدأ الذعر يدب بين الضعفاء والنساء؛ وبدأ الاضطراب ينتشر بين الكبار، والسائق ومساعده في شغل بمحاولة إصلاح الخلل في السيارة.

ولاح نور سيارة قادمة من بعيد من مكة، واشرأبت لها الأعناق، وتطلعت إليها العيون، ونورها يصعد ويهبط، حسب ارتفاع الطريق أو انخفاضه، وأحيانا يغيب النور، وأحياناً يتبين، والعيون شاخصة، إن اختفى النور صرخ الجميع، وإن شع وظهر سكت الجميع؛ ثم عندما بدأت السيارة تقترب جدت مشكلة، فالصحراء كلها جواد، وقد لا تكون هذه السيارة على جادتنا؛ فاتفق الكبار على أن يتبعثروا يميناً وشمالاً، ويكونوا صَفًّا كأنهم في غزو، بين كل

واحد والآخر ما يقرب من ميل، واتفقوا على أن يقرب بعضهم من بعض، حسب ما يبدو لهم من اتجاه السيارة، وشددوا على الصغار أن يبقوا مع النساء، خوفاً عليهم، وخوفاً من شوشرتهم، وضَجيجهم.

وأخذت السيارة تقترب، والأمل مع ذلك يرتفع ويخبو، حتى وصلت السيارة، وأطبق عليها الأفراد من كل جانب، وإذا بالسيارة صغيرة، على «رفرفيها» قربتان، وكانت الفرحة كبرى ومضاعفة، لأن السيارة فيها ماء، ولأنها سيارة «ستودبيكر» حمراء مُصَنْدَقة، وهي سيارة عَلَمٌ في مكة، معروفة للجميع، وزادت الفرحة عندما رأينا الراكب فيها، وهو صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز نائب جلالة الملك في مكة.

ابتسم رحمه الله عندما رأى المهاجمين من كل صوب يمسونه بالخير بصوت واحد كبارهم، وصغارهم، لأن الأطفال لم ينصاعوا للأوامر، فيبقوا مع النساء، بل إن بعض الصغار بدأ يطل من النوافذ، ويسلم

على سموه، ويطلب ماءاً قبل أن يتم الكبار التحية اللائقة؛ ثم سأل ـ رحمه الله ـ منذ كم أنتم متعطلون، وما هي السيارة ونوعها، ومن أين أنتم قادمون؟ وكما يُتَصَوَّر السائل واحد، والمجيبون خمسة عشر تقريباً، تختلط أصواتهم، وتتحاسد عباراتهم، وتتنوع نغماتهم.

فحسم الأمر ـ رحمه الله ـ وقال: خذوا إحدى القربتين، وكان في طريقه إلى الطائف للمصيف، كما هي عادة أهل مكة وسكانها. وقال: عندما أصل إلى الشرائع، إن شاء الله، سوف أرسل لكم ماءاً كافياً، وسنتصل من الشرائع بمكة لإسعافكم، فأفرج الجميع عن سيارة سموه، بعد أن ملأ نفوسهم إطمئناناً، وحلت الفرحة محل الخوف، ولم يكونوا يحلمون أن من سوف يحل مشكلهم كان في قمة المسؤولية في مكة.

كلما مررت اليوم بالشرائع، وهي ترضع من ثدي مكة تبسمت متذكراً ليلتنا تلك، ومتذكراً،

أننا لم ننتظر الإسعاف الذي وعدنا به الأمير فيصل ـ عليه رحمة الله ـ وأصلحت السيارة بعض الشيء، وصارت تسير وتقف، وكلما وقفت نزلنا وأوقدنا ناراً ثم جَمَّرْنَاهَا. وفي الملة يضع السائق أو معاونه «البواجي»، لفترة قصيرة، ثم يعود لتركيبها، حتى وصلنا ضحى اليوم التالي المعابدة في أطراف مكة، وكانت آخر مرة «حمينا البواجي» في الششة أو قهوة عصمان، وأوصلتنا هذه «التحمية» إلى قدمي ريع الحجون، فوقف «حمار الشيخ» في العقبة، وتقافزنا، وأخذنا ما يخصنا، كل أخذ فراشه وشنطته، وأكملنا طريقنا على الأقدام بعض إلى شعب عامر، وهم أصحاب الحظ الوافي، وبعضنا إلى جرول أو أجياد، وهؤلاء كان تعبهم أكثر.

ذكريات ذلك الزمن كالأحلام.

ونعود إلى سبر غور الأمور، ومحاولة الغوص على دررها في غبتها، ومعرفة ما يكمن فيها، فنجد أحد الخلفاء، وقد جرى في مجلسه ما أبان أمراً تطلع

الخليفة إلى التأكد من أن الباطن، يتفق مع الظاهر منه. ومجالس الخلفاء تكثر فيها الحالات التي تحتاج إلى كشف، وأقربها التظلم الذي يتقدم به بعض الرعايا ضد بعضهم بعضاً، أو ضد حكام المناطق. وهذا سليمان بن عبدالملك يأتي في طريقه ما يتطلع إلى ما ظن أنه يكمن خلف أمر ظهر له:

«قال رجل من قريش:

كنا عند سليمان بن عبدالملك، فتكلم رجل، فأحسن، فأراد سليمان أن يعرف عقله، فإذا هو مضغوط، فقال سليمان: زيادة منطق على عقل خُدعة، وزيادة عقل على منطق هجنة؛ ولكن أحسن ذلك ما زيّن بعضه بعضاً» .[1]

كلمة «مضغوط» توحي بأن الرجل مزحوم أو مظلوم، وقد يعني هذا في ضوء تعليق سليمان أن القول الذي قاله الرجل محبّر، ومهيأ، ولم يكن من وحي الساعة، أو ابن اللحظة، وقد شد حديثه

---

(١) العقل وفضله: ٦٠.

سليمان، وأعجب به، فأراد أن يعرف إن كان هذا عن عقل، وحسن تفكير؛ ويبدو أن الرجل لم ينجح في الاختبار، فقد اكتشف سليمان أنه خلاف ما ظهر له أولاً، فتوهم قوة عقل الرجل في ضوء ما تبين من قوة منطقه؛ ولهذا وضع أمر الرجل بين رذيلتين: خدعة وهجنة، لا فضيلة معهما.

كان المعتاد في زمن العصور الإسلامية الأولى، بعد أن فتح المسلمون العراق والشام، وتوسعت الديار والمدن، أن يركب الموسرون الخيل أو البغال في غدوهم إلى عملهم، ورواحهم، وقل السير من قبل علية القوم على الأقدام، وبعض طبقات المجتمع يتعارف على ألا يكون لها إلا حصان واحد، أو بغل واحد، فإن زاد الأمر أوجب هذا الالتفات والتساؤل، والقضاة والعلماء من هؤلاء الذين لا يزيد ما يقتنونه من البغال عن واحد، وقد لفت أحدهم النظر عندما خرج عن القاعدة، وصار عنده بغلتان، ولم يزل التعجب، وتختفي الدهشة، ويبطل الاستنكار، إلا

بعد أن كشف المخبأ، وتبين السر، وغيص على السبب، كما في القصة الآتية:

«كانت لابن سيرين بغلتان: بغلة لخاصة نفسه، وبغلة للعارية». [1]

لعل القاضي ابن سيرين لجأ إلى هذا المركب الصعب، تفادياً لموقف أصعب، وهو أن تستعار بغلته، فيتأخر عن عمله، أو تجهد البغلة فوق طاقتها، أو يُعوِّدها مستعيرها على طبع يختلف عما عودها عليه ابن سيرين؛ فأدرك ابن سيرين أن ليس له مفر إلا أن يتحمل ثمن بغلة ثانية، بما تأخذ من مكان، وما تحتاجه من مؤونة، ليضمن بقاء بغلته له بهذا الثمن الغالي.

وهذا ليس غريباً، فقد انتقلت العدوى من البغال إلى السيارات، وأصبحت السيارة في زمننا تستعار، فلا يستفيد صاحبها منها الفائدة التي أرادها منها، والبغلة إن كانت تجوع، ويسوء طبعها، ويعاني صاحبها منها، فالسيارة كذلك تنهك، ويساء

---

(١) كتاب البغال: ٣٢.

استعمـالهـا، ويتسرب إليهـا الخـراب، ويستنـزف وقودها؛ ولهذا عمد بعض القادرين إلى وقف سيارة للإعارة؛ وهل سلمت سيارته الخاصة؟ لا، لم تسلم، وأول المتسلطين عليها أهله وأبناؤه وأقرباؤه وجيرانه.

وهذا يعني أن هذه الصفة متصلة بكل أداة ركوب، سواء كانت حماراً أو بغلاً، أو سيارة. وليس ابن سيرين القاضي هو أول من عانى، ولا آخر من عانى، وليس هو أول من فكر في بغلة وقفاً، ولا آخر من فكر.

وعمر بن الخطاب رجل عمل، لا يسكت على الغامض، ولا يستقر له قرار حتى يعرف كنهه، ويكشف أمره، ويغوص إلى لجة بحره، صغر الأمر أو كبر، لأن طبعه علّمه أن الصغير في الصفة مثل الكبير، فإن كان ما يكمن في الداخل عيباً فلابد من إصلاحه، وإن كان خيراً حسن نشره، وإشاعته، ولهذا انتفض عندما سمع ما استغرب، مما خفي عليه أمره، والتفت التفاتة الأريب، ليعرف حقيقة ما سمع،

والقصة كمايلي:

«قال المغيرة بن عيينة:

سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يقول في دعائه:

اللهم اجعلني من الأقلين.

قال له عمر: ما هذا الدعاء؟

قال: سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ .[1]

وسمعته يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ .[2]

فقال عمر: عليك من الدعاء بما يُعرف» .[3]

لقد لمح عمر غموضاً، وهو اللماح النابه اليقظ، فلم يرد أن يغمض عينيه، على ما قد يكون فيه قذى، أو يصم أذنيه عما قد يكون مؤذياً، وعمر، كما نقول دائماً، إنه تولى في فترة إسلامية حرجة، تشهد تلاقي الحضارات، في رقعة من العالم ضيقة، والمدينة

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٩.

المنورة بدأت تعج بالوافدين من فارس والشام ومصر، من الأحرار والموالي، وبدأ مجتمع جديد يتبلور، ولا يريد عمر أن يتغلغل فيه أمر فيه خلل، دون أن يعلم، فإن الخشية أن تتأصل جذوره، وتمتد فروعه، فلا يسهل قلعه، والتخلص منه، ولهذا فالمبادرة هي الدواء الناجع، والاجراء الوقائي النافع، والتصرف السليم.

حتى بعد أن جلا الداعي الأمر لعمر، لم يجد الحجة قوية، وخشي أن يكون فيها مدخل واسع للشيطان؛ ورأى أن البعد عن الشبهة أسلم، وأن التمسك بالدعاء الوارد عن الرسول ﷺ، فيه النجاة، وفيه الكفاية، وبه السداد، والغِنى.

وحسناً فعل عمر ـ إن كانت القصة صحيحة ـ لإنه لو لم يسأل، وبقي الدعاء يتوارث، فقد لا يعرف الأساس الذي بني عليه، ولا الآيات الكريمة التي استقي منها، واهتدي بها للوصول إليه. ولقد كان عمر سبباً في إبانة المعمى، وكشف السر المغلق.

وعمر رجل متبصر متدبر، وله فكر نير، وعقلية زاكية، برأيه يهتدى، وإليه يرجع في تفسير المجمل، وكشف سر المبهم، وفتح المغلق؛ لأنه لا ينظر إلى سطح الأمر، ولا يقف عند الظاهر، بل يتغلغل بفكره إلى ما يكمن في الأعماق، وقد كشف أمراً سئل عن كنهه، حير بعض من حوله، فأطفأ ظمأهم إلى ما عنده من ورد، وجاءهم بالجواب، حاملا العقل والمنطق.

«قال أناس من الصحابة لعمر:

ما بال الناس كانوا إذا ظلموا في الجاهلية فدعوا، استجيب لهم، ونحن لا يستجاب لنا، وإن كنا مظلومين؟

قال: كانوا ولا مزاجر لهم إلا ذاك، فلما نزّل الله ـ عز وجل ـ الوعد، والوعيد، والحدود، والقود، والقصاص، وكلهم إلى ذلك» . [1]

مثل هذا التفسير لا يأتي إلا من عقل مستنير،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٩ .

وفكر ثاقب، وبصيرة وتدبر، عرف الجاهلية، بما فيها، ومن فيها، وعرف الإسلام وتعاليمه، وما يراد من الناس، ويراد لهم؛ فجاء الحكم على الفترتين حقاً عادلاً.

والفلاسفة لهم قدرة على الغوص إلى عمق بحار الأفكار، يستخرجون منها الدرر الكامنة، واللآلئ الفريدة، ويأتي بعضهم بالحكمة ممزوجة بالسخرية، ليكون لها وقع أقوى، وتأثير أشد، فيكتب لها أن تتداول، وتسجل، وتكون محلاً للاستشهاد، مثل القول الآتي:

«قيل لسقراط:

ما أتعب فلاناً بخضاب لحيته؟

فقال: لخوف المطالبة بالحكمة، ولا تطلب إلا من المشايخ».[1]

هنا أمر غامض بدا لأحد أصدقاء سقراط، أو محدثيه، رأى رجلاً يتعب نفسه، ويبذل جهده،

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١٩٩.

ويلاقي العناء والعنت، في متابعة خضاب لحيته؛ وهو أمر لم ير فيه المتحدث الفائدة، التي تستحق كل هذا؛ ولم يخف دهشته، وفاتح بها سقراط، وكان سقراط عند حسن ظن محدثه في كشف السبب؛ وقد انطلق سقراط في تفسيره ما غمض على الرجل، مما هو واضح في ذهن سقراط، من مهنته، وهي الفلسفة، فجاء برأي فلسفي عميق. وقال بسخرية لاذعة: إن هذا الرجل اختار أن يصبغ لحيته بالسواد، حتى يبدو شاباً، وهذا يعفيه من أن يسأله أحد عن الحكمة إذا احتاجها في أمر من الأمور، أو الاستشارة إذا حزبه أمر، وأراد من عاقل أن يساعده برأي. والحكمة والمشورة تأتيان من الشيخ الناضج، العالم بأمور الحياة، وخفاياها، وهذا الرجل رغم تقدمه في السن إلا أنه لا يجد أنه وعاء حكم، فأراح الآخرين من سؤاله، وأشقى نفسه بخضاب لحيته.

هذا تفسير سقراط، وهو الحكيم، ولو كان شاعراً لقال إنه يخضب لحيته ليجلب نظر الفتيات، أو ليسلم

من نظرات الازدراء منهن، والغمز واللمز بأنه لم يعد له سوق بينهن، وهذه مهنة الشاعر، وهذا هو حانوته!

وتأخذ الدهشة رجلاً، ويشده موقف غامض، لأن أمراً حدث أمامه يختلف عما يعرفه، وأدرك أن في الأمر سراً، وشعر أنه لن يهدأ له بال حتى يعرف السر في الداخل لما ظهر له من أمر حيره خارجه. وقد أدرك بغيته بعد التفسير، وكشف المعمى، وإزالة الغمامة التي أخفت بدر الحقيقة التي عرفها من قبل، والقصة كالآتي:

«قال المدائني:

سقط عبدالله بن شبرمة، القاضي، عن دابته، فوثئت رجله، فدخل عليه يحيى بن نوفل، الشاعر، عائداً له، ومادحاً، وكان جاره، فأنشده:

أَقُولُ غَدَاةَ أَتَانَا الخَبِير
وَدَسَّ أَحَادِيثَهُ هَيْنَمَهْ
لَكَ الوَيْلُ مِنْ مُخْبِرٍ مَا تَقُول؟
أَبِنْ لِيْ وَعَدِّ عَن الجَمْجَمَهْ

فَقَالَ: خَرَجْتُ وَقَاضِي القُضَا
ةِ مُنْفَكَّـــةٌ رِجْلُـــهُ مُـــؤْلَمَـــهْ
فَقُلْـتُ، وَضَـاقَـتْ عَلَـيَّ البِـلادُ
وَخِفْـــتُ المجَلَّلَـــةَ المُعْظَمَـــهْ
فَغَـــزْوَانُ حُـــرٌّ وَأُمُّ الـــوَلِيْـــدِ
إِنِ الله عَـــافَـــى أَبَـــا شَبْـــرَمَـــهْ
جَـــزاءً لِمَعْـــرُوفِـــهِ عِنْـــدَنَـــا
وَمَـــا عِتْـــقُ عَبْـــدٍ لَـــهُ أَوْ أَمَـــهْ

قال الراوي:

وفي المجلس جار ليحيى بن نوفل، يعرف ما في منزله؛ فلما خرج تبعه، فقال:

يا أبا معمر، رحمك الله، مَن غزوان وأمّ الوليد؟

قال: سنوران في البيت، فاستر عليّ». [1]

وهكذا جلا جار يحيى الغموض الذي ران على أمـر الغـلام والجـاريـة، وعتقهمـا نـذراً إن شفـي القاضي، في حين أنه لا غلام ولا جارية.

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٤. عيون الأخبار: ٣/ ٥٦.

ويجتمع فتية غلب عليهم السفه، وخفة الدين، ولكن الله تداركهم بملاحظة لاحظها أحدهم، في أمر غامض، عرض له، فهم في عمق أنفسهم مؤمنون صادقون، ويبجلون العلماء، ويقرون لهم بالفضل، ويسيرون في مجتمعهم في مدينتهم في تقدير أحد العلماء، وتعظيمه، ثم فجأة تساءلوا لماذا هو محل تبجيل وتعظيم، فما زاده عنهم؟ وما فيه مما ليس فيهم؟ فاكتشفوا أن الفرق هو الطاعة والتقوى. فلما انجلى الغموض، ووجدوا أنهم بسهولة يمكن أن يكونوا مثله، يجلهم قومهم، ويحترمونهم، تمسكوا بحبل الدين بقوة وعزم وتصميم. والحادثة طريفة، وهي كمايلي:

«اجتمع ببغداد عشرة فتية على لهو، فبعثوا أحدهم في حاجة، فرجع، وفي يده بطيخة يشمها، ويقبلها، فقال: جئتكم بفائدة: وضع بشر الحافي يده على هذه البطيخة، فاشتريتها بعشرين درهما تبركاً بموضع يده.

فأخذها كل واحد منهم يقبلها، ويضمها على عينه.

فقال بعضهم:
ما الذي بلغ بشراً؟
قالوا: تقوى الله، والعمل الصالح.
قال: فإني أشهدكم أني تائب إلى الله، وإني داخل في طريقة بشر.
فوافقوه على ذلك، وخرجوا إلى طرسوس، واستشهدوا». [1]

غموض اكتُشِف كنهه، فكان سبباً في هداية هؤلاء الفتية.

وهناك قصة يبدو أنها خيالية، ولكنها طريفة، وفيها أمر غامض، احتاج حل رموزه إلى جهد وعناء، ولعله من ابتداع بعض الأدباء والكتاب، حفظ بيتاً من الشعر، فركب عليه الخبر الآتي:

«كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج:
أما بعد، فإنك سالم والسلام.
فلم يدر، فنبه على أنه أراد قول عبدالله بن عمر في

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٧٣، انظر ما سبق ص: ٣٥.

ابنه سالم:

يُدِيْرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيْرُهُم
وَجِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ والأَنْفِ سَالِمُ»[1]

وقول إن الحجاج جلدة ما بين العين والأنف لعبدالملك تكرر في المصادر، ثم تـلاه قول الوليد: إن الحجاج جلدة وجهي كله، مما دل على إن هذه الفكرة صارت موضع تركيز للنحت والتقول من الأدباء، وما أمر: «وأنت سالم والسلام»، إلا إحدى الاختراعات.

ومن المناسب أن نذكر أن جملة «وأنت سالم والسلام» انحدرت إلى زمننا، وصارت تختم بها الرسائل، وأصبحت متواترة إلى الحد الذي يجعل الكاتب يضعها دون أن ينتظر أن يأمره بوضعها مملي الرسالة! وقد بدأت في هذه السنين الأخيرة تختفي، ويحل محلها دعاء آخر: إما: «والله يحفظكم» أو «ودمتم» أو «ولكم وافر الاحترام، أو التقدير»، أو ما يسير على هذا

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٥٩.

النمط، ولم تعد تعني كثيراً إلا لبعض الناس.

وقول عبدالملك للحجاج «فإنك سالم والسلام» لغز، واللغز أدعى أن يشغل الذهن، ويطلب له الحل، وقد يقوم عليه رهان كبير، تكسب من ورائه مكاسب، وآخر قصة سمعتها عن الألغاز وحلها قصة أريد بها لمز قبيلة بكاملها، ورميها بالغباء إلى حد مفرط، وليس غريباً أن تَتَّهِمَ القبيلةُ المتَّهَمَة فيما بعد القبيلةَ المتَّهِمَة، وتروي عنها القصة نفسها. وتدخل هذه فيما سبق من صراع المدن، والقصة كمايلي:

«ركب رجل مع صاحب سيارة أجرة، وبعد أن عرف السائق أن الطريق سوف يكون طويلاً، قال للراكب:

ما رأيك في أن ألقي عليك لغزاً، فإن عرفته، وأتيت بحله، فأنت في حل من الأجرة، وإلا تدفعها مضاعفة.

فوافق الراكب، وقال:

هات اللغز.

قال السائق : من هو الذي أبوه أبي وأمه أمي ؟

فأخذ الراكب يفكر ، ويحاول أن يحل هذا اللغز العويص . فلم يوفق ، فلما قارب الطريق أن ينتهي ، كشف للرجل أنه قد عجز أن يأتي بالحل ، وسأله عن الحل .

قال السائق : إنه أخي ، فأبوه أبي وأمه أمي .

فلما وصل الراكب إلى المكان الذي قصده ، ووجد عدداً من رجال قبيلته في سمر لهم في أول الليل ، وجدها فرصة أن يكسب منهم ، فقال لهم :

عندي لغز ، إن حللتموه ، فعشاكم الليلة عليّ ، وسيكون خروفاً ، وإن لم تفعلوا فالعشاء عليكم .

فقبل أصحابه فقال لهم :

من هو الذي أبوه أبي وأمه أمي ؟

قالوا : أخاك .

قال لهم : لا ، يا أغبياء ، هذا أخو سائق سيارة الأجرة ، الذي أحضرني من المطار » .

في تركيز مؤلف القصة على التبكيت على القبيلة

التي قصد أن يهاجمها، فات عنه أن يدرك أن بقية أفراد القبيلة قد حلوا اللغز، فهم ليسوا أغبياء، إلا إذا كان هؤلاء ليسوا من قبيلته، وقد سهي على الراوي أن ينبه أنهم من قبيلة أخرى.

والأمثال في زمنها تكون معروفة لأهل ذلك الزمن، ولكنها تصبح مع مرور الوقت مبهمة غامضة، لا يعرف أصلها، فيتشوق الناس إلى سبر أغوارها، ومعرفة سرها، ومن قالها، وفيم قيلت. وهم كثيراً ما يرددونها، ويأتون بها في حالة تناسب قولها، ويتعارفون على الاستشهاد بها، وهم لا يعرفونها إلا إذا رجعوا إلى الكتب التي تعطي شرحاً لها، وأغلب الأمثال غامضة إلا إذا شرحت، ما لم تحمل تفسيرها في ألفاظها، وحتى هذه ربما يحوم الفكر حول معرفتها إجمالاً، ولا تتم معرفتها تفصيلاً، إلا بشرح وافٍ ودقيق، فمثلاً عندما يقولون: «فلان مثل وتد جحا»، يعرفون أن هذا المثل قيل عن جحا، وفي وقته، ولكنهم لا يعرفون القصة التي تكمن خلف هذا المثل، وهو

أن جحا باع داره، واستثنى وتداً فيها، ولكن هذا الوتد طرد أصحاب البيت؛ فقد أخذ جحا يطرق الباب، في أوقات مزعجة، ليعلق ثوباً على وتده، أو يأخذ ثوباً من فوق الوتد، حتى كاد الأمر أن يؤدي بأصحاب الدار إلى الجنون، وساوموه على وتده، فأبى أن يبيعه، واضطر أهل البيت أن يتركوا البيت كله له.

وجحا على أفواه الناس، وفي أذهانهم، قيلت عنه أقوال من المؤكد أن كثيراً منها جحا منها بريء، هذا إذا صح أن هناك شخصاً اسمه جحا البتة، ومن الأقوال المتداولة عنه في بعض مناطق نجد، مما أصبح مثلاً قولهم «راحة من جحا راحة»، يقولها من كان في ضيق بسبب وجود شخص ثقيل، وتخلص منه، والقصة التي تروى كامنة خلف هذا المثل لا تختلف كثيراً عن وتد جحا وهي كمايلي:

«باع جحا بيته، واشترط أن يحتفظ لنفسه منه بما يكفي فراشه، فوافق المشتري على ذلك، فأخذ جحا

يأتي إلى البيت كلما أراد، بحجة الاستفادة من فراشه للراحة، ويدخل ويخرج في القيلولة، وفي الليل، مما أزعج مالك البيت، فاتفق مع زوجته أن يتخلص من جحا ومن فراشه، برميه من أعلى السطح، وكان الوقت صيفاً، وكل من الفريقين ينام في سطح مجاور للآخر.

وقد سمع جحا المؤامرة التي خطط لها الزوج مع زوجته، فمشى على أطراف أصابعه في الليل، والرجل وزوجته في نوم عميق، فحمل جحا المرأة، ووضعها في فراشه، ونام مكانها بجوار الزوج، فلما انهزع من الليل ثلثاه، أيقظ الزوج النائم بجانبه، جحا، ظناً أنّه زوجته، فقام معه جحا، صامتاً، لا ينطق ببنت شفه، وبهدوء حملا الزوجة من فراش جحا، ورمياها من أعلى «سترة» السطح، ثم تنهد الزوج، وقال:

«راحة من جحا راحة» أي يا لها من راحة.

حينئذ فقط تكلم جحا، فرد عليه، وقال:

«راحة من أم العيال راحة».

والله أعلم ما حدث بعد ذلك، فأمهاتنا، وهن يقصصن علينا قصص جحا وأمثالها، لا يكدن يتممن قص قصة، حتى نكون دخلنا في نوم عميق، خاصة في ليالي الصيف، ونحن ننام في سطوح المنازل، في ذاك الهواء العليل، والليل الهادئ، الذي لا يعكر صفوه شيء، حتى تلك البعوضة التي نسمع غناءها، فلا تصل إلينا إلا بعد أن ننام كالموتى من تعب النهار، وفي الصباح فقط نرى أثر عضها هنا أو هناك على وجوهنا، أو أذرعتنا، أو سيقاننا، أما أصوات الحمير في المزارع التي على أطراف مدينة عنيزة، فهي الموسيقى الوحيدة التي يحملها النسيم إلينا في تلك الليالي المظلمة أو المقمرة.

وهي ليال لا تنسى، تُطْوى الفُرُش بالنهار، وتدخل تحت سقف سطح آخر، وهذا المكان يسمى «المنفوح»، وتفرد بعد غياب الشمس في السطح، لتبرد قبل النوم بعد صلاة العشاء مباشرة للأطفال. وأحياناً للصغار قبل صلاة العشاء، لأنهم الوحيدون في

البيت الذين لا يعرفون نوم القيلولة، فمنذ قيامهم في الصباح إلى وقت نومهم في المساء وهم في حركة، وإقلاق لما حولهم.

فإذا وردوا إلى فرشهم، ولا سراج ولا نور حولهم إلا نور القمر أحياناً، وإذا لم يكن قمر، فتكون النجوم لامعة مغرية بالنظر والمتابعة، فهذه بنات نعش، وهذه المجرة، وهذا نجم ساقط أو شهاب «شاعط»، يقول الكبار والصغار عند رؤيته «على رأس شيطان». ويمر فريق من الطير مهاجر، فيقال للأطفال إن هذه السحارات يسافرن من عمان يتفسحن، راكبات نبع نخلة، يطير بهن حيث شئن؛ ويركبون على ذلك قصصاً خيالية، والأفضل ألا يكلمن، ولا ينظر إليهن، لأنهن صاحبات مزاج، فقد يطلب منهن شيء فيرمين ما يفيد أو ما يضر، فقد رمين ـ كما يروى ـ في إحدى المرات قرن زباد، وهو عطر فاخر، ورمين مرة أخرى فِهْراً، أو يَدَ هاون. وهن ينزلن في الليل على بعض الغدران، ويغتسلن، ويلعبن،

ويعدن إلى نبع النخلة، ويقلن للنبع: «طِرْ بَيْنَ انْثَوَيْنِ أو ثلاث» ثم يطير.

وينام الطفل، وتتجاذبه الأحلام مما رأى قبل النوم من أفلاك تتخاطف في السماء، وسحارات، ونجوم وبدر وهلال، ومن جمل بارك في الطريق، وقد سده، في النهار، فلم يستطع الطفل المرور، إلا بعد أن ساعده رجل ناضج، وهذه بقرة بقرونها الطويلة قد حصرته في شارع غير نافذ، وهذا مجنون آل فلان قد أقبل من أول السوق، والأفضل أن يعود أدراجه، وهذه بئر قد أطل من جوبتها، والماء يصطفق فيها، وهذا المطوع بعصاه أو جذماره، وهذا أبو فلان بيده عصا، لا يمر به طفل إلا أذاقه منها ضربة أو ضربتين، لأنه يعتقد أنه ممن أضاع عليه لذة قيلولته. وهكذا كل ما يمكن أن يأتي بأحلام مزعجة، يرويها في الصباح لزملائه.

وإذا كانت الأمثال حول جحا يمكن تفسيرها، ويمكن حدس معنى المثل: «في الصيف ضيعت اللبن»

فإن هناك أمثالاً تبقى محيرة، وتحتاج إلى تفسير وإيضاح، لأنها كالألغاز، والمثل الآتي أحدها، والعرب تضرب بهذا المثل في أن الحاجة تُطلب فيحول دونها حائل:

«سد ابن بيض الطريق».

قال أبو عبيد البكري: إن ابن بَيْض لما حضرته الوفاة قال لابنه:

لا تقارب لقمان في أرضه، فسر بأهلك ومالك، حتى إذا كنت بثنيّة كذا فاقطعها بأهلك ومالك، وضع فيها للقمان حقه؛ فإن له عندنا في كل عام حُلَّة، وجارية، وراحلة؛ فإن هو قبله، فهو حقه عرفناه له، لإجارته وخفارته؛ وإن هو لم يقبله وبغى، أدركه الله ببغيه.

ففعل الفتى ما أمره به أبوه، فأتى لقمان الثنية، فأخذ حقه وانصرف، وقال:

سد ابن بيض الطريق». [1]

---

(١) تمام المتون: ٥٦.

والأحلام فيها ألغاز، وفيها إبهام، وصاحب الحلم يبحث عمن يفسره، ويكشف له ما لم يتبين له منه، ويبقى قلقاً، خاصة إذا كان الحلم مزعجاً، حتى يحل. ومن أجل هذا جعل الناس لمن يفسر الأحلام منزلة متميزة في المجتمع، وكان ابن سيرين من أشهر من عرفوا بتفسير الأحلام، والأحلام التي فسرها عجيبة، وقد وجدت طريقها إلى التدوين، وتناقلها الكتاب والأدباء، لما يبدو فيها من ذكاء، وتطابق بين الحلم والتفسير، وما يلحظه الإنسان من توافق وتراكب، ويكون الحلم غامضاً، حتى يفسره ابن سيرين، فيصبح كالسهل الممتنع، وهذه بعض أمثلة من ذلك:

«قال رجل لابن سيرين:
رأيت في المنام كأن في حجري صبياً يصيح.
فقال له ابن سيرين: اتق الله، ولا تضرب العود».

«وقال رجل لابن سيرين:
رأيت في المنام كأني أطير في السماء والأرض.
فقال: أراك تكثر الأماني».

قال رجل لابن سيرين :
رأيت في المنام كأن لحيتي بلغت سرتي، وأنا أنظر إليها .

فقال له : أنت رجل مؤذن تنظر في دور الجيران» .

«قال رجل لابن سيرين :
ما تقول يا أبا بكر في امرأة كانت ترى في المنام كأنها تأكل رأس جزور؟

فقال : تتقي الله، ولا تبغض العرب» .[1]

ومن القصص الطريفة، التي يغلب على الظن أنها من تأليف أحد المفكرين، ولم تقع ممن ادعي أنها وقعت منه، ولكنها تدخل في بابنا، لأن لها ظاهراً وباطناً، وظاهرها يغري بمعرفة باطنها، بل يوجب ذلك، ويحتمه، والإيهام فيها يدخلها باب الألغاز، وهي :

«وجه ملك الروم إلى معاوية بقارورة، فقال :
إبعث إليّ فيها من كل شيء حي .

---
(١) بهجة المجالس : ٣/ ١٤٦ .

فبعث بها إلى ابن عباس، فقال:
تملأ له ماءًا.
فلما ورد به على ملك الروم قال له أخوه:
ما أدهاه!
فقيل لابن عباس: كيف اخترت ذلك؟
قال: يقول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.(١)

من الواضح أن الفكرة طرأت على ذهن أديب، فصاغ عليها هذه القصة، وقد تكون جاءت إلى ذهنه، نتيجة التدبر في الآية الكريمة، ووَضْع ماء في قارورة يمكن أن يكون من دلائل الآية، فوضعها في هذه الصيغة الطريفة.

وبعض الكشف عن الباطن، وما يخفيه الظاهر، مما ينتهي بخيبة أمل، وندم على البحث المبذول، والتشوف المحاط بالتطلع، ما قد يعطي الإنسان في المستقبل الا يؤمل كثيراً في مثل هذا الأمر الذي

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠. بهجة المجالس: ٣/ ١٥٥.

أثبتت التجربة أنه خاوي الوفاض، وهذه قصة تمثل ذلك:

«كان الشعبي يوماً جالساً في مجلسه، والناس يتناظرون في الفقه عنده، ومعه شيخ يطيل السكوت، فقيل له يوماً:

لو سألت عن مسألة تنتفع بها.

فقال: إني لأجد في قفاي حِكَّة، أفترى لي أن أحتجم؟

فقال الشعبي: الحمد لله الذي صرنا من الفقه إلى الحجامة». [1]

ويكاد كل سؤال أن يكون استظهاراً للباطن مما وراء الظاهر، وتفسيراً لأمر غامض، ومن هذه الأسئلة سؤال هارون الرشيد في القصة الآتية:

«قال مُطَرِّف بن مازن، قاضي اليمن:

قال لي الرشيد يوماً: مَنْ عبدالرزاق بن همّام الصنعاني؟

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٥٦١.

فقلت: رجل من أهل الحديث، سليم الحديث ثقة.

فقال: إن صاحب خبرنا باليمن كتب يذكر أنه كتب ثقلاء اليمن.

فقلت: صدق، يا أمير المؤمنين، فكتبني فيهم.

قال: ولم كتبك فيهم؟ إنك لحسن الحديث، خفيف المجلس، فما استثقل منك؟

قلت: عظم قلنسوتي، وطول عنق بغلتي.

فضحك هارون الرشيد فما خرجت من عنده حتى أمر لي بكسوة وحملان». [1]

ولعله من المناسب أن نختم القول بالتذكير بما ورد في القرآن عن بعض التساؤلات التي ترمي إلى كشف الباطن لما شوق إليه الظاهر، أمثال الأسئلة الملقاة على الرجل الصالح، لكشف المغيب في فعله، في خرقه للسفينة، وقتله الشاب، وإقامته الجدار، وما كان من سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ وتوعده

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٧٤٣.

للهدهد الذي تأخر عن موعد مجيئه المعتاد. وغير ذلك مما جاء في بعض سور القرآن الكريم.

* * *

# الجـود مـودود[1]

الجود فضيلة مثلما أن البخل رذيلة، فالجود فيه حب الناس، ونسيان النفس، وهذا إشعاع نبيل؛ ويكمن وراء الجود فكر ناضج، وعقل سليم، فصاحب الجود، وقد عرف نعمة الله عليه، يريد أن يرى شيئاً منها عند الناس؛ فهو يفكر في مجتمعه، سلامته وسعادته، وانسجام أفراده، وارتفاع الحسد، والغيرة عن هذا المجتمع؛ والحسد والغيرة لا تقترب من مجتمع متكافل، والجود من أهم عناصر التكافل الاجتماعي، وقد كان هذا ديدن الناس في زمن مضى، عندما كان الناس لا يعرفون الحكم المنظم، الذي يقع على عاتقه تنظيم تبديد العبء الاجتماعي على أفراده، ويكاد يقتصر الحكم على جوانب محدودة مما نعرفه اليوم عن واجبات الحكومات تجاه مجتمعاتها، وكان الدين الإسلامي، بما فيه من تعاليم إلهية، قد

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٥٩٨) في ٢٣/ ٣/ ١٤١٦هـ الموافق: ١٩/ ٨/ ١٩٩٥م.

رفع قيمة المجتمع الذي يعتنقه، لما فيه من تنظيم ثابت للتكافل الاجتماعي، وأبرز مظاهره صلة الرحم، فلا يحتاج فقير، وله قريب غني، ولا يضيع فقير وجاره يجد؛ وصلة الرحم، وما توجبه من رعاية الأقرب فالأقرب، وعلى رأس هؤلاء الوالدين، شملت بتنظيمها جزءاً كبيراً من المجتمع؛ يضاف إلى هذا، التوصية بالجار حتى أربعين بيتاً، وهي أمور لا نجدها اليوم في أرقى المجتمعات غير الإسلامية، التي أصبحت «الأنانية» ديدنها، وحب النفس هو المسيطر عليها، وانتقلت العدوى إلى دولها، فصار لا يهمها من أمور الناس إلا ما فيه صالحها، وشمل هذا علاقات الدول، مما جعل هذا العصر، رغم ما فيه من تقدم تقني، من أتعس العصور، قياساً على ما كان يؤمل منه بعد أن توصل إلى هذا الإنجاز المادي!

لهذا كان لهذه النبتة الخيرة «الجود» رنينها في الأنفس، قبل رنينها في جوانب المجتمعات، فانداح مفعولها يبتعد من جود فرد على فرد، إلى جود أمة

على أمة، لو استقام الأمر، واتسق.

فالجود على هذا نبل، محاط بالشرف، ومشبع بالخلق الكريم، إذا جاء صافياً، دافعه داخلي، وهدفه إدخال السعادة إلى القلوب، وإزالة العسرة، وإشاعة الفرحة؛ وهو لمسة حنان، ورمز محبة، وعنوان صداقة.

والجود يفرض نفسه أحياناً، وقد يصفه بعضهم في تحكمه في صاحبه، وطغيانه عليه، وعجزه عن هجره، أو إيقاف عادته فيه، بأنه داء، ومن درس حال عبدالله بن جدعان في الجاهلية أدرك لماذا وصف من وصف الجود بالداء، ومدى صدق ذلك من عدمه.

وجوانب الجود التي وردت في التراث متعددة، والنصوص المسجلة عنها تكاد لا تحصى، وهي من المتعة بحيث تكرر وتعاد وتستعاد. وقد يكون في بعض ما دون مغالاة، أو خيال، ولكن ما يبقى صافياً كثير، ويكفي لإعطاء صورة عما كان عليه القوم في تلك الأزمان.

والجود، والكرم، ليسا وقفاً على زمن دُون زمن، فلكل زمن أجواده، ولكل وقت كرماؤه، ينبتون في المجتمعات مثل الرياحين، تزهو في العين، ورائحتها زكية، وقد رأينا منهم أمثلة في زمننا، وفي زمن آبائنا القريب، وسيرتهم العطرة هي حديث المجالس الممتع؛ وقد ترك بعضهم الدنيا، ولكن عبق أعمالهم لا يزال ينعش النفوس، ويثلج الصدور.

والصحراء طبيعتها تدعو إلى الجود والكرم، لانقطاع المسافرين، وتعرضهم للعوز والحاجة، وكان لابد أن تنبت في الصحراء نبتة تسد هذه الثغرة؛ فوجدت هذه النبتة، وقامت بعملها خير قيام، ودون عما فعلته العجائب، وسجلت الغرائب؛ ونكاد لا نقبل بعض ما قيل عن بعض أناس في الجاهلية والإسلام، لغرابته، ولكننا رأينا في زماننا أناساً فاقوا هؤلاء، وقد سجل لهم من المكرمات، ما سوف يشك أبناء زمان آت بصدقه. وما كتب عن بعضهم، ودون من أناس لمسوا هذه المظاهر من الجود يقضي

على أي مجال للشك.

وأجواد العرب كلمة تتردد في كتب الأدب والتاريخ، ويأتي تحتها تعديد لأشخاص عرفوا بالجود المتناهي، وجاء منهم من الأفعال ما يدهش، وهم أهل بأن يوصفوا بهذه الصفة، فقد استحقوها بما أعطوه من أنفسهم، سواء فيما أعطوه من مال أو أفعال أخرى.

وفي النصوص الآتية سوف نتلمس طريقنا إلى ما يكمن خلف النصوص من عوامل نفسية أو غيرها، لنسبر غور غبة أصحابها، ولجة بحارهم.

ولعل من حق عبدالله بن جدعان علينا، وقد مَرَّ اسمه، أن نبدأ به وبأخباره، وقد شغلت العرب زمناً طويلاً، تداولوا سمعته في كرمه، وأشاعوا مظاهر الكرم عنده، وضرب به المثل في الجود، حتى خشي أهله فناء ماله، فحجروا عليه، ورفعوا يده من التصرف في ماله، ولكنه احتال على التغلب عليهم، ونجح.

ويذكرون عن جوده، وكرمه، وسعة ضيافته ما يقترب من الخيال، فقالوا إن له جفنة ذات سعة فائقة، لا تخمد النار تحتها، وقد وقع فيها طفل فمات من عمقها!

ومن القصص التي تتداول عنه القصة الآتية:

«كان عبدالله بن جدعان التيمي، حين كبر، أخذ بنو تيم عليه، ومنعوه أن يعطي شيئاً من ماله؛ فكان الرجل إذا أتاه يطلب منه قال:

ادْن مني، فإذا دنا منه لطمه، ثم قال:

اذهب فاطلب بلطمتك، أو تُرضى.

فترضيه بنو تيم من ماله.

وفيه يقول ابن قيس الرقيات:

والَّـذِيْ إِنْ أَشَـارَ نَحْـوَكَ لَطْمـاً
تَبِـعَ اللَّطْـمَ نَـائِـلٌ وَعَطَـاء»[1]

لقد كبر عبدالله بن جدعان، وكبرت معه خصلة الجود، وتضخمت غدة الكرم، ولم يعد يستطيع

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٥٨.

الإقلاع عن عادة تمكنت منه، ولازمته طوال حياته، إنها جياشة، ولهذا فهو يبحث عما ينعشها، ويعيد لها رونقها؛ ولم يخنه عقله، وهداه إلى طريقة يحافظ بها على ما اعتاد عليه، رغم حجر أقربائه عليه؛ ما الذي يكمن داخل نفس عبدالله بن جدعان، وهو يعطي، قد يكون شعور الانتصار على نفسه في أنه أنفق ما تحبه، وجاد بما تبخل به أنفس غيره، وقد تكون رؤية الفرح في أعين الناس، فهذا يطربه، والأمتنان في وجوههم، يبهجه؛ وقد يكون طموحه إلى أن يبز غيره، فهو حرّ يريد أن يكون في المقدمة، ولا يريد أن يتعداه أحد، فيسبقه.

وعطاء الكريم يأتي في ضوء معرفته بنفسه، لا في ضوء معرفة الناس له، فهو أقرب لتقويم نفسه، ومعرفة داخلها، والناس ليس لهم إلا الظاهر. وإذا كان عبدالله بن جدعان لم يرد أن يسبقه الآخرون في الصف فيزيد بن المهلب لم يرض بالموقع الذي أراده له غلامه، وفرق بين نظرة السيد للأمر، ونظرة

الغلام، والأمر في هذا تبينه القصة الآتية:

«لما هرب يزيد بن المهلب من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبدالملك، وهو يومئذ بالرملة، فمر في طريق الشام بأبيات من الأعراب، فقال لغلامه:

استسقنا هؤلاء لبنا.

فأتاه بلبن، فشربه.

فقال: اعطهم ألف درهم.

قال الغلام: إن هؤلاء لا يعرفونك.

قال: لكني أعرف نفسي، اعطهم ألفاً». [1]

هذا قائد كبير، وله مركز خطير، تعوّد على العطاء، وعطاؤه بقدره، فرغم أنه كان شريداً، وبحاجة إلى ما بيده، إلا أنه لم يذكر، في وقت هُزّ عنده غصن الجود في دوحته، إلا العطاء، والعطاء بجزالة، جعلت الغلام يبدي ملاحظته وفيها من المنطق ما كان يجب أن يكون مقنعاً ليزيد، ولكن الغلام لا يعرف من سيده إلا الظاهر له، ولم يغص في عمق بحر

---

(١) الإشراف: ٢٣٠.

نفسه، فيرى صدى الجود عندما يتردد في جنباتها، والبهجة التي يحدثها هذا الرنين المطرب، والسرور الذي يبطن جدرانها، والمتعة التي تملأ وعاءها.

إن يزيد يعرف نفسه جيداً، ويعرف ارتفاع القيمة التي وضعها لها، وما عليه إن عرفه الأعراب أو جهلوه، ومع هذا فلابد أن يعرفوه بعد أن مد لهم يده بهذا العطاء الجزل، والأريحية المدهشة، ولعلهم تمنوا أنه بقي عندهم ليذبحوا له ما يليق بمقامه، ولكنه كان عابر سبيل في عجلة من أمره، فلم يأتهم منه إلا «شليل» سحابة الجود.

وعروة بن الزبير - رضي الله عنه - مر به ما مر بمعاصريه من شظف العيش، ورقة الحال، وكان يتمنى أن يكون له بستان يدر عليه ما يجعله في بحبوة من العيش، ولقد منّ الله عليه بما تمناه، وكان الجود فيه مزروعاً، وجذوره في نفسه عميقة، فعندما أصبح له بستان ماذا فعل؟ لقد أباح للناس منه ما لم يبحه أحد، والنفس الغنية تكون سبباً في الغنى لغيرها،

وهذا خبر عروة مع بستانه، ومع الناس:

«كان عروة بن الزبير، إذا كان أيام الرطب، ثلم حائطه، وأذن للناس في أكله وحمله، وردد:
ما شاء الله لا قوة إلا بالله».[1]

لم يكتف عروة بالسماح للناس في الأكل، وإطفاء غائلة الجوع، وفي هذا ما يرضي الناس، ويلهج ألسنتهم بالمدح والدعاء، وهذا العمل كفيل بأن يشيع في الناس، ويدور في مجالسهم، ولكنه سمح لهم بأن يحملوا ما يحتاجون إلى حمله، لأن عروة أدرك أن وراء الجائع جائعاً، بل وجائعين، والأجر في هؤلاء مثل الأجر في ولي أمرهم، والأجر فيهم مثل الأجر فيه، والله سبحانه يبارك هذه الأعمال. وقد سبق أن قصصت قصة لعلها في كتابي «أي بني» وهي قصة الرجل الذي نحى في الخير منحى غير منحى ابنه، فرعى أمر الفقراء عندما حرمهم ابنه، فبارك الله للأب بركة واضحة، رآها الابن بعيني رأسه سريعاً،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٩٧.

وملخص القصة هكذا:

كان رجل وابنه في عنيزة، في منطقة القصيم، يملكان بستانا للنخيل، مناصفة بينهما، وجاء وقت «جداد» النخل وصرامه في ذلك العام في رمضان، فأشار الابن على والده بأن يتم جني الثمرة في هذا الشهر، فهذه فرصة أن يتم ذلك والعمال صيام، حتى لا يأكلوا من الثمرة، فلم يوافقه والده على ذلك، ورأى تأجيل الأمر إلى ما بعد رمضان، حتى يأكل العمال ما شاؤا، فلهم في الثمرة رزق، مثلما للعصفور فيها رزق. ولما زاد إلحاح الابن على الحد، قال له والده، اقسم النخل بيني وبينك، واختر القسم الذي يعجبك، و «جُدّ» في رمضان، واترك لي قسمي أجده بعد رمضان.

نفذ الشاب الرأي الذي توصلا إليه، وحصل على بغيته، وحرم العمال من الاستفادة من التمر، فلما انتهى رمضان جَدَّ الوالد، وتجمع تلال من التمور في بيت الرجل، فلما رآها الابن فغر فاه متعجباً من

كثرتها بجانب حصته، فأبدى ملاحظته لوالده، وادعى الغبن، عندما رأى ما رأى أن حصة والده جاءت ضعف ما جاءه هو، أو تكاد، ولكن والده نبهه إلى أمرين مهمين:

الأول: أنه هو الذي قسم النخل، وهو الذي اختار القسم الذي أعجبه؛ وفي هذا تمييز له، وغبن لوالده ان كان هناك غبن، لأن العادة أن أحد الشريكين يقسم، والآخر يختار، وفي هذا ما يضمن العدل في القسمة.

الثاني: أن الوالد أقرض الله قرضاً حسناً، فضاعفه له كما وعد، لأن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾.[1]

والبر والمعروف إذا زرعا انبتت السنبلة منهما سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة.

والله ـ سبحانه ـ رقيب على أفعال الناس، يبارك الخير فيها، ويزيده نمواً، بقدر نية صاحبه؛ وقال

(١) سورة التغابن، الآية: ١٧.

الأب : وقد راعيت الفقراء، وهم عيال الله، وأنت حرمتهم، فلم تعط أكثر من حقك، وما جاءك إلا ما هو في حدود اجتهادك في عملك، وكدك وكدحك، ووقفت نيتك في طريق الزيادة، فحرمت البركة التي نزلت في قسمي؛ لأني أجلت جني الثمرة، مع ما في هذا من مخاطرة، حتى أسهم في إشباع نفس رطبة، جائعة؛ ولكل عمل زكاة، فلا يكفي أن تستأجر هؤلاء العمال على «جداد» النخل، وهم يرون التمر، ويلمسونه بأيديهم، فلا يأكلون منه، وهم جياع، ونحن في أثر أيام عيد، ولابد أن الولد اقتنع واعتبر.

-[1] وكرماء العرب في الجاهلية والإسلام كثيرون، اشتهر منهم من اشتهر، وخفي من خفي، ومن أشهر الأجواد في الجاهلية حاتم الطائي، الذي يضرب بجوده المثل، وطبق ذكره الآفاق، وفي الإسلام معن ابن زائدة، وله قصص كثيرة في العطاء، تظهر كرمه، وحبه للجود، واندفاعه للإنفاق، ومن جملة ما يروى

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

عنه في هذا المجال القول الآتي :

«استحمل رجل معن بن زائدة، فأمر له بفرس عتيق، وجمل وبغل، وحمار وجارية. وقال:

لو وجدنا مركوباً غير هذا لأعطيناكه» .[1]

هذا رجل تقدم إلى معن، يطلب منه دابة يركبها، وهذا ما يريده فقط، ولا يتعدى تطلعه إلى غير ذلك، وهذا منتهى ما يتمناه، وهذا غاية ما يصل إليه طموحه، ويبلغه أمله، همته لا تبعد كثيراً، وتصوره لكرم معن لا يزيد على هذا؛ ولكن معن يعرف من نفسه غير هذا، فإذا كان الرجل اقتصر في طلبه إلى أدنى درجات الأمل، فمعنٌ ذهب إلى أبعد معنى تتحمله كلمة «احملني»، التي معناها: أعطني ما أركبه، ودارت عجلات ذهن معن حتى يحيط بأدوات الركوب المعروفة في زمنه كلها، فوجد أن ما يحتاجه الرجل هو الفرس، واختاره أصيلاً، حتى يبلغ الغاية في العطاء؛ والجمل وهو أدارة ركوب وحمل، ثم البغل

(١) البصائر: ٥/ ٢٠٧. عيون الأخبار: ١/ ٤٦١.

وله مهامه في الحمل، والركوب في الأمور التي يفوق فيها الفرس والجمل والحمار، والحمار أدارة ركوب لها فائدتها لرجل معه خادمة، ومعه قطار مراكب!

ولم ينس معن أن له طريقاً إلى الزيادة، ووجد الوسيلة التي ترتبط بهذا الموكب، وهي الجارية، وقد يكون الراوي نسي الغلام، أو أن مع الرجل غلاماً مما دعا إلى الاقتصار على الجارية.

وإذا كنا قد أعطينا مثلاً عابراً بجود معن، وهو مسلم، فهناك حاتم ابن عصر الجاهلية، ونظرتها إلى الكرم والكرماء، وهي الأرض التي زُرعت فيها نبتة الكرم الأولى، فأنبتت، وازهرت وأثمرت، وتفنن أهلها في بذل الكرم، مادياً ومعنوياً، وأبقى الإسلام على هذه الخصلة، ونظمها، وحدد للكرم حدوداً، ونهى عن الإسراف، ووضع الأمر في إطاره الطبيعي، وسار المسلمون على هذا الهدي، إلا من كان الكرم عندهم مَرَضاً كما سبق أن قلنا؛ وقد ثبت أن هذا الداء عنيف، ويستشري أحياناً، ولا يكون لمن أصيب

به طاقةٌ على مقاومته، حتى قال بعضهم عن بعض الأجواد: لو كانت نفسه بيده لجاد بها!

وتبرق جوانب حاتم الخيّرة، فلا يكون كريماً فقط، وإنما تضم نفسه صفات حميدة أخرى، لها قيمتها في العصر الجاهلي، ولعلها مجتمعة هي التي أعطت حاتما كل هذه الميزات، قيل فيه:

«كان حاتم جواداً، شاعراً، وكان حيثما نزل عُرف منزله، وكان ظَفِراً، إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح سبق، وإذا أسر أطلق، وكان أقسم بالله: لا يقتل وحيد أمِّه».[1]

كل ما قيل في هذا النص يكاد يكون محوره الكرم، وكل جزء منه يمكن أن يكون باختيار حاتم لهذه الفضيلة، إلا القداح، إن كان المقصود بها استطلاع الفأل، فهذه أمرها يخضع للصدفة، فمرة تصدق، ومرة لا تصدق، إنها لا تحكم، وليس للإنسان فيها

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٥٩.

يد، إلا إذا كان ضارب القداح يغش في لعبها، والقداح عادة جاهلية ضالة، تجعل الإنسان عبداً للصدفة، فهو يلغي عقله، ويعطل تفكيره، ويعتمد على غير معتمد، ويضلل نفسه بنفسه، راضياً طائعاً، يقاد بمقود كما تقاد الدابة، أو كما يوجه الطفل؛ ولهذا حرّمها الدين الإسلامي، لأنها اعتقاد باطل، والإعتقاد الباطل لا مكان له في الدين الإسلامي، فمن العار أن يرمي المرء أعواداً على الأرض، مكتوباً على أحدها «إفعل»، وعلى الثاني «لا تفعل»، أو يدسها في وجاء، ويستخرجها وهو لا يدري ما يخرج له منها، فيفعل ما أراد فعله من سفر أو غيره إن خرج له «إفعل»، ويحجم عن السفر إن نهاه سيده بقوله: «لا تفعل»، وقد خاب سهم القداح عندما أطفأ الإسلام نوره، وقضى على بريقه.

وباقي ما ذكر أمور تدور كلها تقريباً على محور الكرم، وفيها رائحته، وهي متصلة به، لا تنفك تدور معه، فمعرفة منزله إذا نزل دل عليه ضياء

الكرم، الذي يشع من مكانه أين حل. ووصفه بأنه ظَفِر إذا قاتل غلب، وذلك لأنه يجود بنفسه، لا يبخل بها، وهذا غاية الجود، ومن الكرم أن يُنْهب الغنائم، فيأخذها من معه، ويكون بهذا على مذهب عمرو بن كلثوم في معلقته:

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا
وَأُبْنَا بِالمُلُوكِ مُصَفَّدِيْنَا

ومن قلب الكرم ينطلق القول: إذا سئل وهب، فهو لا يمسك الشيء عن طالبه، لأن مصدر سعادته أن يعطي؛ وهو أحرص الناس على السعادة من هذا الطريق السهل، ومن الجود المتناهي أن يمن على الأسير بإطلاق سراحه، وسوف لا ينساها الأسير، فليس أغلى عنده من حياته أو حريته، وإحداهما قد وهب حاتمٌ، وتصرفه لا يأتي من عاطفة جوفاء، إنما ينطلق من عقل متبصر نيرّ، فهو لا يقدم على قتل وحيد أمّه، لما يتصوره من لوعة قلب الأم، وهو مُفرح القلوب، ولا يمكن أن يتناقض فعل من أفعاله مع

فعل آخر؛ وهي لفتة فريدة، لا يتنبه لها إلا عقل اعتاد على الخير، والبحث عن مكامنه.

وكرم الجاهلية لا ينافس كرم الإسلام، فكرم الإسلام يبزه، لأن كرم الجاهلية متعلق بالدنيا، وكرم الإسلام متعلق بالآخرة أولاً ثم بالدنيا ثانياً، ولهذا فضياء كرم الإسلام يعشي ضياء كرم الجاهلية، وتظهر قوة كرم الإسلام في المثل الآتي:

«جاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم بن خزام، فباعها من معاوية بمئة ألف درهم، فقال له عبدالله ابن الزبير:

بعت مكرمة قريش؟

قال: ذهبت المكارم إلا من التقوى، يا ابن أخي إني اشتريت بها داراً بالجنة، أشهدك أني جعلت ثمنها في سبيل الله». [1]

حكيم بن خزام باع أثراً من آثار الجاهلية، تعلقت به قلوب القوم، فهو برلمانهم، ومجلس شوراهم،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٣٠٢.

شهد أموراً عظيمة، وتقرر فيه قرارات أفضت إلى عواقب جسيمة؛ ولم يكن من السهل نسيان أهميتها، وعمق التصاقها بالقلوب، إلا أن الإسلام بعمق جذوره في نفس بعض المسلمين، وقوة إيمانهم بدينهم الجديد، محوا ما للجاهلية من صورة في أذهانهم، وانتزعوا ما في نفوسهم من آثار لها، وأحلوا مكانها تعلقاً بالآخرة، وعمل الخير المؤدي إلى الجنة، ولهذا فحكيم لم تَبْهُ في عينه الدار، بعد إسلامه، ولم يعد لها ذاك البريق، ولعل ما جاء في ذهنه عنها أن في هذه الدار حيكت بعض المؤامرات على الرسول ﷺ ونبتت بعض الآراء ضده، وتبلورت بعض الأفكار في غير صالحه أو صالح أصحابه، فَأَرْخِصْ بدار مرّ بها مثل هذا، وتجاوبت جدرانها مع نغمات العداء له صلوات الله وسلامه عليه.

وقد قلب حكيم أمرها إلى أمر آخر، حول الطين والحجر إلى مال، يساهم في نقل نور الإسلام إلى بلاد تحتاج إلى إزالة الظلمة، ونشر الضياء.

وعمر بن هبيرة من عمال الخلافة الأموية، ومن القواد المبرزين فيها، وقد تعرض لمحنة أدت به إلى السجن، وأفلت منه، وسار إلى الشام يريد النجاة، وهو في طريقه إلى الشام تعرض إلى موقف أبان شذى كرمه، فكان مثل الجمرة توضع على عود الند أو البخور، والقصة هكذا:

«لما أفلت عمر بن هبيرة من سجن خالد مرّ بالرقة السوداء، فإذا امرأة من بني سُليم، على سطح لها، تحدث جاراتها ليلاً، وهي تقول:

لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هبيره مما هو فيه.

فوقف عمر، وقال لأصحابه:

هل معكم شيء؟

فأتوه بمئة درهم، فصيرها في صرة، فرمى بها كلها، وقال لها:

خلص الله ابن هبيرة مما كان فيه، فطيبي نفساً»[1].

عمر بن هبيرة طريد مثل يزيد بن المهلب، وهارب،

(١) البصائر: ٣/ ٨٥.

وهناك من يتتبع أثره، ويقفو خطاه، ولم يكن لديه من الوقت ما يجمع فيه ما يكفيه؛ وابن هبيرة أشد من يزيد بؤساً في أمر المال، لأنه هارب من السجن، ومع هذا جاد بكل ما معه لمرأة حرك كرمَه كرمُها، واستدرت جوده بكلمة نابعة من القلب، لم تشبها نية سيئة، فلم تكن تعلم حين قالتها أنه يسمعها، وأراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفق بين النيتين، فنيتها هذه وافقت نيته الطيبة في الكرم، وهل مثل الإحسان جزاءاً للإحسان؟

ويزيد بن المهلب لم يكن الأول في أسرته الذي اعتنق الكرم، فقد رضع لبانه من والده، وهو من هو في زمانه، ولقد رَبَّى أبناءَه على التضحية، والبعد عن حب النفس، وأنشأهم على حب الآخرين، وبصرهم أن حبهم للآخرين هو أسمى حب للنفس، لما فيه من مردود داخلي وخارجي، فالشعور الداخلي هو ما يشعر به المعطي من أنه أدخل الفرحة على قلب المتلقي، والبهجة على صدره، بما أكسبه إياه مما

كان يرجوه، أو جاءه على حين غفلة، وهو ما قد يكون أحسن وقعاً.

والشعور الخارجي، تقدير الناس لعمله، ورؤيته هذا التقدير، وأن عمله لم يذهب هباء، ووضع في أرض خصبة، وكان فيه نموذجاً يحتذى، وقدوة يسار على نهجه، والمنزلة التي يحله مجتمعه فيها هي ما يليق برجل مثله، سعى لصالح المجتمع، ولم ينس حقه.

ويزيد بن المهلب أخذ بنصيحة والده، وهي نصيحة قيمة، وتدل على أن الكرم فيهم أصل، وليس متكلفاً، أو مكتسباً، ونصيحة المهلب لأولاده تُري عمق نظرته إلى الجود، وتفضيل غيره على نفسه، ونظرته إلى أن ما يعطيه لغيره، هو في الحقيقة إعطاء لنفسه بطريقة أرقى وأجمل. يقول المهلب لأبنائه:

«ما رأيت أحداً بين يديّ قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، واعلموا، يا بني، أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم»[1].

---

(١) البصائر: ٢/ ٢١.

ويبلغ الكرم مداه، ويوغل في نبله، تسبقه روح كريمة، ونفس خيرة، ويحيطه العدل، وحب الخير للآخرين، وتتلوه القناعة، والبعد عن الطمع والجشع، وهذا كله يتوفر في عبدالله بن عباس - إن صحت الرواية - وعبدالله بن عباس قريب من كل خير، وإن كانت سيرته لم تسلم من بعض الأخبار المضافة، مما لم يحدث، ولكن ظهور الدولة العباسية، وتفاخرها مع ما للدولة الأموية من أمجاد، جعل كثيراً من أنصارها يضع الأقوال، وينسبها إلى هذا أو ذاك من المنتسبين للسلالة العباسية.

والخبر الآتي الكرم فيه طافح، والجود فيه متناه، ولا يقدم على ما أقدم عليه عبدالله بن عباس إلا رجل يملك قياد نفسه، وفي يده زمامها، يديرها حيث يشاء، ويسيرها أين يريد، يدفعها إلى الخير، ويبعدها عن الشر، يُسلكها مسالك الفضيلة، ويقفل عنها أبواب الرذيلة، والقصة الآتية لا يستطيع أن يأتي بمثل ما أتى بما فيها إلا رجل من ذوى العزم، وهي كمايلي:

«ومن جود عبدالله بن عباس أنه أرعى رجلاً من الأعراب إبلاً، فأسمنها، وردها كأنها قصور، أو عذارى حور، فقال له:

كيف تراها؟

قال: تسر الناظر، وتخصب الزائر.

قال: فإنها لك، ولك أجرك.

فبكى الأعرابي.

فقال له: ما يبكيك؟

قال: أبكي ضناً بهذا الوجه أن يعفر في التراب.

فقال: هذا القول أحسن من قصيدة» .[1]

إن هذا الأعرابي المسكين لم يملك نفسه من الاعتراف بالجميل، فبكى، فكشف دمعه عما يعتمل في صدره، ويجول في نفسه، من عاطفة جياشة، وشعور فياض؛ لقد دارت آلات ذهنه، فأوقفت أمام عينيه هذا الرجل الكريم بفضله وطيبه، وأوقفت بجانبه حالة الميت في القبر معفراً وجهه بالتراب، فلم ير أن هذا المنظر،

---

(١) البصائر: ١/ ١٩٣.

وما يأتي منه من مقارنة، إلا صادعاً للقلب، وعاصراً لكيانه.

إن المعروف ليبكي، خاصة إذا جاء جزلاً، وعلى غير ميعاد، أو في ساعة عسرة، لأن الأمر يؤمل أن يكون دليل رضى من الله، ويُرجا ألا يكون استدراجاً، والمعروف المؤثر لا يشترط أن يكون مادة، أو عملاً، فقد يأتي كلمة تبرد كبداً حرّى، أو تحمي حقاً، أو تبعد أذى، أو تجلب نفعاً، أو تعيد ثقة، أو تنفي شكاً، أو تصد غائلة.

هذا الأمر حدث في زمن عبدالله بن عباس ـ إن كان حدث ـ والخير في النفوس، والرحمة في القلوب، ليسا وقفاً على زمن دون زمن، أو عصراً دون عصر، أو بلداً دون بلد، أو جنساً دون جنس؛ فالله يزرع هذا في النفوس متى أراد لها الخير والتوفيق، أذكر قصة رجل في زمننا هذا قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً، وهي هكذا: [1]

---

(١) انظر ما سيأتي، ص: ١٩٩ عن الخبر نفسه.

توسم أعرابي في أحد موظفي أمانة العاصمة، في مكتبه في الرياض، الخير، فطلب منه مبلغاً سلفا ـ إن لم تخني الذاكرة ـ يكفي قيمة عنز، فأعطاه إياه؛ فذهب الأعرابي، ونسي الموظف الأمر، لصغر الأمر، وقلة المبلغ، ولعله اعتبره صدقة، وإن كان الأعرابي طلبه سلفا، وبعد سنتين أو ما يقرب من ذلك، جاء الأعرابي، وبحث عن بيت الموظف، فُدل عليه. فطرق بابه، وكان يسكن حينئذ، مثل أغلب الموظفين في الملز؛ فلما فتح الموظف بابه شاهد الأعرابي، ومعه عنز، وصخلة يحملها، والمبلغ المشترى به كان سبباً في هذا الربح، وطلب منه أن يتسلم منه ماله، وما نمى منه.

فدهش الموظف من أمانة الرجل، ومن حرصه على رد المبلغ، ومن عناء الرجل في البحث عن بيته، حتى وجده، فما كان منه بعد أن رحب به إلا أن طلب منه قبول العنز وابنتها والمبلغ ضيافة له.

مثل هذه الأمور تدل على النفوس الصافية، وتوفيق الله لأصحابها، وتري زهاء المعروف، وطيب الأرض

التي زرع فيها هذا المعروف، تلتقي هنا البذرة الصالحة في الأرض المعطية.

وزراعة المعروف في أرض خصبة لا يُدرى مدى جودة المحصول الذي تأتي به هذه الأرض، ويبدو أنه يحدث تنافس صامت، مختف بين البذرة والأرض، كل منها تريد أن تكون في طبعها، وفي عطائها أجود من الأخرى. انظر إلى المعروف الوهمي في مظهره، النبيل في مخبره، ماذا أنتج في القصة الآتية:

«كان سعيد بن عمرو مؤاخيا ليزيد بن المهلب، فلما حبس عمر بن عبدالعزيز يزيد، ومنع من الدخول عليه، أتاه سعيد، فقال:

يا أمير المؤمنين، لي على يزيد خمسون ألف درهم، وقد حلْت بيني وبينه؛ فإن رأيت أن تأذن لي، فأقتضيه.

فأذن له، فدخل عليه، فسرّ به يزيد، وقال:

كيف وصلت إليّ؟

فأخبره، فقال يزيد:

والله، لا تخرج إلا وهي معك.

فامتنع سعيد، فحلف يزيد ليقبضنها، فقال عدي بن الرقاع:

لَمْ أَرَ مَحْبُوْسًا مِنَ النَّاسِ وَاحِداً
حَبَا زَائِراً فِي السِّجْنِ غَيْرَ يَزِيدِ
سَعِيدَ بنَ عَمْرٍو إِذْ أَتَاهُ أَجَازَهُ
بِخَمْسِيْنَ أَلْفًا عُجِّلَتْ لِسَعِيْدِ»[1]

وقد مر بنا قبل قليل ما كان عليه يزيد من الكرم، وكذلك والده المهلب، لقد هز دوحة جود يزيد الهواء العليل الذي جاء من قلب سعيد، فأسقط منها ناضج الثمر؛ وقد قدر يزيد ما عمله سعيد، مما لم يعمله الآخرون، وقد أكبر منه أولاً نصبه شركاً في اقتناص الحيلة للدخول عليه، وثانياً تعرضه لغضب الخليفة عندما يعلم بالحيلة، ومثل هذا الأمر لا يخفى، خاصة وقد قيل فيه شعر، والشعر من عادته، خاصة في المدح والهجاء، أن يسري في المجتمع سريان النار في الهشيم، في يوم عاصف.

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٦٦.

لقد أضمر سعيد عاطفة نبيلة في حرصه على رؤية يزيد في سجنه، لعله يؤنسه بما عنده من أخبار، وينقل عنه ما لا ينقله إلا هو، وهذا أمر يقدره السجين حق التقدير، فالوحدة تورث الجنون، وانقطاع أخبار الأهل والأحبة تشغل الذهن، وتبعد النوم، وتجعل المرء في قلق، وتطلّع، وانتظار.

والكرم خير، والخير يتبعه الخير، لأنه فعل جميل، والفعل الجميل لا يسكن إلا في الصدور المضيئة، والأنفس المنيرة.

ومن أمثلة الجود الذي جر إلى خير لم يقتصر ثوابه على الدنيا بل تعداه إلى الآخرة، وهل هناك ما هو أفضل من إدخال مشرك في الإسلام، وخاصة عند ظهوره في مكة، لأول مرة، وبين أعداء شرسين، والقصة كمايلي:

«قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

كانت قريش تألف منزل أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ، لخصلتين: العلم والطعام؛ فلما أسلم أسلم

عامة من كان مجالسَه» .[1]

من مجالسة هؤلاء القوم لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أفادهم بعلمه، فوثقوا بعقله، وما يحكم به، فلما رأوا حكمهُ على الدعوة، واستجابته لها، استجابوا معه، والكرم متمم لمكارم الأخلاق، التي يكون سببها العلم، الذي يهدي بنوره إلى الحق والعدل، وجمال الروح، ويبعد عن الزلل والشبهات، فكان هذا المجتمع الصغير كبيراً في نظرته، ثم في حكمه الذي أوصله إلى رؤية النور وسط ظلمة خيمت على مجتمعه إلا من أبصر طريقه بتوفيق الله.

وهناك مظهر من مظاهر الكرم، ذرفت فيه عين دمعها، كما فعل الأعرابي مع عبدالله بن عباس، ولكن هذه الدمعة غير هذه الدمعة، إلا أن صاحبي الجود متماثلان في الروح والنظرة، يتسابقان في ميدان الشرف، فيتساويان فيه، والقصة هكذا:

«باع أعرابي ناقة له من مالك بن أسماء، فلما

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٧٦.

صار الثمن في يده نظر إليها، فذرفت عيناه، ثم قال:

وَقَدْ تَنْزِعُ الحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَعْمَرٍ
كَـرَائِـمَ مِـنْ رَبٍّ بِهِـنَّ ضَنِيْـنُ

فقال له مالك: خذ ناقتك، وقد سوغتك الثمن». [1]

البعير عند الأعرابي رأس مال لا يماثله رأس مال، هو ذخيرة عمره، به يفاخر، وعليه ـ بعد الله ـ يعتمد، يحمل زاده، ويوصله مبتغاه، ينتقل عليه، وينقل عليه متاعه، يحارب عليه، ويحارب دونه، يهمه أمره صيفاً وشتاءً، إن جاع فكأنه هو الذي جاع، وإن مرض فكأنه هو الذي مرض، لا ينافسه في هذا إلا الفرس.

لهذا دمعت عين الأعرابي، ولهذا قدر مالك هذه الدمعة لأنه يعرف ما وراءها، وما تنطوي عليه، وما تعنيه.

ولكن ليس كل كرم يأخذ هذه الصفة، ولا يأتي

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٥٩.

الأمر كاملاً كما أتى في هذه القصة إلا إذا اتفقت البذرة مع الأرض التي وضعت فيها طيباً وجودة، فإن نقص أحدهما عن الآخر جاءت النتيجة هكذا:

«أضل فيروز بن حصين سوطه يوماً، فأعطاه رجل سوطاً، فأمر له بألف درهم. ثم أتاه بعد حول فقال:

من أنت؟

قال: صاحب السوط.

فأمر له بألف درهم.

فأتاه بعد حول، فقال: من أنت؟

قال: صاحب السوط.

فقال: أعطوه ألف درهم، ومئة سوط.

فانقطع عنه». [1]

هذه أمثلة عن بعض مظاهر الجود، وما يجلبه من ود، وما يأتي به من محبة، وما يضفي على صاحبه من ثناء، وما يُعطي من اعتبار، وهو يستحقه، لما في

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٦٤.

عمله من خير، وما يشتمل عليه من نفع؛ ولأن هذا عمل مقدر أسرع الكتاب إلى رصد وقائعه، ووجد بعضهم فيه مجالاً للانتحال، والمغالاة، أملاً في أن يشجع هذا بعض من يقرؤه، فيحتذي حذو الكرماء، الذين تصفهم القصص، وتمجد أعمالهم.

***

# وزن الوصايا[1]

الوصية تأتي عادة ممن يملك الرأي لمن يستحق الرأي، فهي تأتي من المتعلم لغيره، أو لمن هو أقل علماً منه، ومن الكبير للصغير، ومن المجرب لمن لم يجرب؛ فهي تأتي من الأب لابنه، ومن العالم لتلميذه، ومن الأم لابنتها، ومن الحاكم لمن يحكم؛ فهي فائدة ومنفعة تقدم على صحاف من ذهب؛ هي قيمة في نفسها، معتنى بها في أداتها وأسلوبها.

وتُعطى الوصية، وكثيراً ما تختلط بالنصيحة، عند الحاجة، أو تقع في زمن لاحق، فهي ترشد إلى طريق صائب، أو رغبة عزيزة؛ تأتي عند الإقدام على عمل، فهي عند الزواج درة، وعند الخروج للحرب جوهرة، وعند بدء التجارة لؤلؤة، وعند مقابلة الشدائد لجين.

وكثير منها سجل في التراث العربي الإسلامي

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦١٢) في ٧/ ٤/ ١٤١٦هـ الموافق: ٢/ ٩/ ١٩٩٥م.

عند الوفاة، وكأن فيها إيحاءاً على أن ما يقال فيها هو عصارة تجارب سنين عديدة، تُعطَى في وقتٍ المرء فيه أقرب ما يكون للتجرد من الدنيا، والإخلاص في القول، أملاً في الثواب في الآخرة؛ والموصي، في قوته ونشاطه قد لا يعطي وصية تخرج عن الظرف الذي يرى أن عليه أن يدلي بنصيحته فيه؛ ولكن عند الموت يمر ذهنه بأمور كثيرة، يرى أن يجمعها في قول مسهب أو مركَّز، لا يترك أمراً فيه فائدة، لمن ينصحه، دون أن يعرج عليه، ويعطي نصيحة عنه.

وقد تأتي الوصية في أمر يشعر الموصي أنه يحتاج إلى أن يعتني به، لأن المنصوح أقرب إلى أن يزل فيه، قياساً على ما لاحظه الناصح أو الموصي، فالعالم قد يلحظ في تلميذه عزوفاً عن أحد فروع العلم، فيوصي بالعناية به، ويبين فضل ذلك؛ والأم قد تركز على ما يغرس جذوراً عميقة في قلب زوج ابنتها، وتنفر عما قد يشوه صورتها عنده؛ والقائد المحنك، أو الحاكم المجرب قد يلحظ في القائد السائر بالجيش

إلى ميدان القتال بعض العيوب التي قد تحرمه من النصر، مثل التهاون بالعدو، أو الكبرياء، أو الغفلة عن بعض ما يخص القادة تحت إمرته، أو الجند تحت رايته؛ والأب قد يلحظ من أولاده نسمة فرقة، ويخشى أن تنقلب إلى إعصار، فهو يوصي بالتكاتف، ويبين فوائده، ويحذر من الفرقة وأضرارها، وهكذا كل موص أو ناصح، يصرف همه في الوصية إلى الجانب الذي يتصور أنه في حاجة إلى تنبيه من يهمه أمره إلى ما قد يصبح سوسة تنخر في كيان عمله، فتقوض أركان بنَائه، وتقضي على سكانه.

وكتب التراث ملأى بالوصايا في جميع العصور، وفي كثير من فئات الناس، وهي جانب متميز بين جوانب الأدب المدون، وفيها من الحكم، ودقة الملاحظة، وصواب الهدف ما جعلها من أثمن ما دون؛ وهي سجل مهم للفكر العربي والإسلامي في كل فترة من فترات المجتمع العربي والإسلامي، وقد غلب فيها وصايا الكبير للصغير، والمجرب

للذي لم يكتو إكتواءًا كافياً بأتون الحياة، وشدتها، وتقلبها، ولم يَخْبرُ الناس، ولم يعرف دخائل نفوسهم.

وقد تطول الوصية، وقد تقصر، وقد تشمل مواضيع عدة وقد تقتصر على واحد، أو عدد قليل من الأفكار، وهي تكشف عن الحالة النفسية التي عليها الموصي في حالة إلقاء الوصية، وحالة من حوله، ممن يتلقى هذه الوصية؛ ومن استقراء النصوص يمكن للإنسان أن يسبر هذا الغور، ويصل إلى ما يخفى خلف الكلمات، وما ترمي إليه المعاني، التي قد لا يُحتار أن تأتي مباشرة، وهو الغالب، فتغلف بغلاف يستر حدتها، ويخفي قسوتها.

والوصايا العامة، والنصائح التي تأتي نتيجة ملاحظة متأنية، يلقيها عالم بأمور الحياة، مجرب لأحداثها، محترق بنارها، ويهديها إلى من له في قلبه محبة، من قريب أو صديق أو جار، لا تخضع لزمن، ولا تحدد بوقت، وإنما تأتي بعد تبلورها مباشرة، وقد يقتضي الأمر عدم تأخيرها، وتكون الفائدة في

المبادرة بإخراجها، حتى تحجب خطأ، أو توقف أذى؛ والقضاة في زمن الأمويين، وعصر العباسيين، أنوار ساطعة في مجتمعهم، يُهتدَى بأفعالهم، ويسمع لأقوالهم، ويسترشد بنصحهم، ويحرص على الأخذ بوصاياهم، خاصة إذا كانت موجهة لقريب، تلهب العاطفة قلب القاضي لمصلحته، وتدغدغ نفسه، وهذا ابن شبرمة يسدي لبنيه، وبني أخيه نصيحة قيمة:

«لا تجالسوا السفلة، فيجترئوا عليكم، فإن هذه الزّطّ ليسوا بأشجع الرجال، فإنما يجترئون على الأُسْد لكثرة ما يرونها».(١)

صدق ابن شبرمة فيما قاله عن تأثير كثرة رؤية الأسود، والشاهد على هذا ما نراه في المرناة (التليفزيون) كثيراً من سكان أفريقيا في المناطق التي تكثر فيها الأسود؛ وهذا جعل من بينهم صيادي أسود، لدربتهم عليها، واستخفافهم بها، لكثرة ما يرونها، ويعالجون أمرها.

وقد استفاد ابن شبرمة من هذه الصورة الحية،

---

(١) أخبار القضاة: ٣/ ١٢١.

المحسوسة، ليلحقها بالموعظة والوصية التي أرادها لأبنائه وأبناء أخيه، كي يعضوا عليها بالنواجذ؛ ولعله رأى منهم كثرة جلوسهم مع متبوعيهم، ورأى جرأتهم عليهم، واستخفافهم بأوامرهم، وأدرك أن سبب هذا هو تبذلهم معهم، وكثرة لغطهم، مما أزال أسوار الهيبة، التي كان يرى في زمنه أنها يجب أن تكون بين الخادم والمخدوم، ليستقيم الأمر، وينجح العمل.

وليس شيء أقوى تأثيراً من تقديم الصورة المحسوسة أمام المعنى الفكري المتصور، فهي الإناء الشفاف الذي يبين بوضوح ما بداخله، ويقنع المخاطب بقبول القول.

وهي صورة من صور الإقناع، فإذا ما عدمت الصورة المحسوسة لجأ المجادل، أو الناصح، أو الموصي، إلى الأمثال، أو الحكم، يستنجد بما رسخ من صورها في ذهن المخاطب، فتكون خير شافع، وخير مقنع بالفكرة التي قد يكون اعتمادها على

تصور المدلول غير كاف.

ومن أبرز الوصايا تلك التي تخص الزواج، ولا غرابة في أهميتها، لأنها خطوة تؤدي إلى خطوات، وعليها ـ بإذن الله ـ يسعد المرء في حياته ويشقى، فإن وفق في زوجة تصاحبه بالحسنى في حياته، أنارت الدنيا أمامه، ووسعت الأفق في وجهه، وإن لم يوفق شقي وأشقى، وصارت حياته عناء وتعباً، وانقلب حلوها مراً، ومنيرها مظلماً، وواسعها ضيقاً؛ ولهذا تحرز الناصحون المجربون في إرشاد طالب الزواج، والمقدم على الاقتران بحليلة، تخطو معه في حياته، في الدرب الطويل، الذي أمامه.

وكل الناصحين، وملقوا الوصايا، يأخذون جانباً مهماً في الأمر، فيركزون عمود خيمتهم عليه، ويقيمون بناء قولهم على ما قوي مما ظهر لهم؛ وكثيرون منهم يؤكدون جانب النسب، ووجوب انتقائه، والبحث عن الصافي الأصيل منه، فالعرق في نظرهم دساس، والطبع المتمكن عامل فعال في العلاقة الزوجية،

والعرب قد يفخرون بالخال ونسبه أكثر مما يفخرون بالأب ونسبه؛ أما إذا اجتمع الاثنان فقد اكتمل المجد، وحازه من حازه من أطرافه؛ وكثيراً ما يرجعون إقدام المرء، أو إحجامه، شجاعته أو جبنه، كرمه أو بخله، وما فيه من ميزات أو عيوب، إلى آبائه أو أخواله، ويكادون ينسون مكتسبه من الطباع والأخلاق في حياته؛ ففكرة النسب مسيطرة على أذهانهم، وإدراكهم، سيطرة لا تتيح لهم فرصة الالتفات إلى غيره، أو الشك في النسب.

ومن القصص التي تروى في حرصهم على الاستشارة في أمر الزواج القصة الآتية:

«قال قدامة بن إبراهيم الجهمي:

حضرت رجلاً من ربيعة الوفاة، فقال لابنه:

يا بني، إذا أحزنك أمر، فاحكك ركبتيك بركبة من هو أسن منك، ثم استشره.

قال: فمات أبي، فأردت الزواج، فجئت شيخاً من قومه، فجلست في ناديه، فلما قام الناس من

عنده، قال:

ألك حاجة يا بن أخي؟

قلت: نعم، يا عم، إني أريد أن أتزوج.

قال: أطويلة النسب أم قصيرة؟ فالله[1] ما اخترت ولا أبديت.

فقال: إني أعرف في العين إذا عَرَفَتْ، وأعرف في العين إذا أنكرت، وأعرف في العين إذا لم تعرف ولم تنكر، فأما إذا عَرَفَت فإنها تتحاوص[2] للمعرفة؛ وأما إذا أنكرت فإنها تجحظ للفكرة؛ وأما إذا لم تعرف، ولم تنكر، فإنها تسجو سجواً[3].

يا ابن أخي، إياك أن تتزوج إلى قوم أهل دناءة، أصابوا من الدنيا ميسرة، فتشركهم في دناءتهم، ويستأثروا عليك بدناءتهم[4]، فقمت، وقد اكتفيت بهذا». [5]

---

(١) في طبعة مكتبة التراث: «فوالله ما احترت ولا آذيت» ص: ٦٢.

(٢) تنظر بمؤخرة العين.

(٣) تهدأ ولا تعبر عن شيء.

(٤) لعلها «عنك بمالهم».

(٥) في «بهجة المجالس»: وشوور بعض الحكماء في تزويج، فقال للمشاور: يا ابن=

هذا الرجل، وابنه لا يزال صغيراً، أرشده بوصيته إلى الطريق الذي يوصله إلى الهدف، ويبعده عن الزلل، فسؤال العاقل المجرب فيه كثير من الاطمئنان إلى حسن الرأي وصوابه، أكثر مما في رأي الشاب الذي لم يجرب الحياة، فينساق وراء فكرة لامعة براقة، تقوده إليها العاطفة، ويحكمه الهوى، وقد سمع الشاب لأبيه، وأطاع، وكان من أول ما احتاج فيه إلى الإستشارة أمر الزواج، فنفذ وصية والده، وجلس إلى الرجل المسن المجرب، فأراد الرجل في بدء الأمر أن يعرف منه إن كان قد حدد رغبته في صفة المرأة، طولها أو قصرها، ويبدو أنه اكتشف من عيني الشاب ونظراته أنه لم يفكر في هذا الجانب، وليس أحد الأمرين عنده أفضل من الآخر سواء الطول أو القصر. فلما تأكد الرجل أنه خالي الذهن من أي وصف يفضله، أعطاه الإطار العام الذي

---

= أخي، إياك أن تزوج لأهل دناءة أصابوا من الدنيا، فإنك تشركهم في دناءتهم، ويستأثرون عليك بدنياهم، قال: فقمت عنه، وقد اكتفيت بما قال» ٣/ ٢٣. تحفة العروس: ٤٦.

يحكم عمله، ويحدد التفاصيل له، دون أن يجهد نفسه؛ فحدد له أن يبتعد عن مصاهرة اللئيم، فلؤمه سوف يلحقه، ويلحق أولاده، ولا يعميه ما قد يشع من إشعاع كاذب، وهو إشعاع المال، الذي قد يخفي اللؤم وقتاً، ولكنه لا يلبث أن يظهر، فعليه ألا ينظر إلى المال، فيغتر ببريق ذهبه، وعظمة مظهره؛ يجب أن تكون عينه على الخُلُق.

وعندما يقولون: العرق دساس، فإنهم يقصدون أنه خفي، قد لا يظهر في وقت الخطبة، وفورة العاطفة، وعمى العين والبصر، ولكنه يبرز فجأة بروزاً ظاهراً، لا يخفى على أحد، وإن لم يظهر الخلق السيء في الابن، فإنه يظهر في ابن الابن، فهو يظهر في جيل متأخر ظهور الماء من تحت التبن!

وفي النص الآتي تأكيد على هذا المعنى:

«قال عثمان بن أبي العاص لبنيه:

يا بني المناكح مغترس، فلينظر أمرؤ حيث يضع غرسه، والعرق السوء قلما ينجب، وإني قد أنجبتكم

في أمهاتكم» .[1]

في هذا القول وصية بالغة، لأنها وُضعت في قالب حسي مؤثر، إذْ صُوِّرَت بصورة شجرة، لها طلع، ومن أراد أن يجني مما غرس فعليه أن يختار أرضاً خصبة تنبت ثمرة طيبة، وقد ذكّرهم أن هذا هو فعله بهم، إذْ اختار أمهم، من أرومة كريمة، ليجلب لنفسه ولهم الفخر، ويبعد اللوم والعتب، لأن الإهمال في هذا قد يأتي باللوم الشديد.

وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ له قول في هذا الصدد، يحث فيه على مراعاة الأصل، وما يتسم به صاحبه من خلق، والابتعاد عن ذات البريق من مال، أو مركز، أو صيت، مما قد يخفي تحته ما ينفر منه إذا عرف، وقد سماها عمر: خضراء الدمن، وهو وصف دقيق، فالنبتة الخضراء الزاهية قد تنبت على الدمن، وهو منبت فيه من القذارة ما يكفي للتنفير منه، وهذا ما قاله عمر:

(١) تحفة العروس: ٤٦.

«إياكم وخضراء الدمن، فإنها تلد مثل أصلها، وعليكم بذوات الأعراق، فإنها تلد مثل أبيها، وعمها، وأخيها» .[1]

ونصائح الرسول ﷺ صور من إرشاده وتعليمه، وقد بين بعض الجوانب التي تُفَصِّل بعض ما جاء عامّاً، فيروى عنه ﷺ أنه قال:

«فلعل جمالها أن يرديها، ولا تنكحوا المرأة لمالها، فلعل مالها يطغيها، وعليكم بذات الدين» .[2]

«لعل» هذه لا توجب الجزم، وهي تمهيد لما انتهى إليه الحديث من أن الضمان في ذات الدين، والأحاديث في هذا المجال كثيرة، ومتشعبة.

ودرج الرجال والنساء على توصية الابنة عند الزواج بعصارة تجاربهم، وحصيلة ما مر عليهم في حياتهم الطويلة، ليوفروا على ابنتهم المرور ببعض التجارب المرة، التي قد تعصف بالزواج، وتقضي

---

(١) تحفة العروس: ٤٣.
(٢) تحفة العروس: ٤٢.

عليه عند بدئه، أو قد تجعل حياة الزوجين مشوبة بالنكد، يتخللها الشجار، ويسيطر عليها العراك والنزاع؛ والوالدان إذا سبقا بالنصيحة، أوجدا ترساً من الوقاية في يد الزوجة، تتقي به ما قد يوسوس لها به الشيطان، مما قد يوهمها أنه في صالحها، وهو في الحقيقة، إذا انصاعت له، وعملت به، يؤدي بها إلى ضررها، والقضاء على سعادتها الزوجية، وعندما نرى وصية أسماء بن خارجة لابنته عندما زوجها، نجد في كل كلمة حكمة بالغة، ورأيا صائباً.

لم يترك أسماء أمراً يعتقد أنه يمكن أن يأتي في طريق الزوجين إلا لمسه بنصحه، وأبان فيه رأيه الصائب، وجاءت عباراته قوية واضحة، سهلة المؤدى، جذابة التتابع، وقد دلت على عقل ورزانة، وحسن توقع لما يأتي بين الزوجين الشابين، والوصية هكذا:

«زوج أسماء بن خارجة ابنته، فلما أراد إهداءها قال:

إنك خرجت من العش الذي فيه درجت، وصرت

إلى فراش لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضاً، يكن لك سماء، ولا تلحفي به، فيقلاك، ولا تتباعدي عنه، فينساك، وإن دنا، فاقربي منه، وإن نأى، فابعدي عنه، واحفظي أنفه، وسمعه، وعينه، فلا يشم منك إلا طيباً، ولا يسمع منك إلا حسناً، ولا ينظر إلا جَميلاً» [1].

-[2] كل كلمة في هذه الوصية جوهرة ثمينة، بدأ أسماء مع ابنته منذ بدأت رحلتها دارجة من بيت أبيها، وهو بيت ألفته، وعرفته، ألفت تصرفات من فيه، وعرفت ما يراد منها، وما تريد ممن فيه، والروح السائدة فيه روح ابنة بين والدين، وربما بين أخوة كذلك، فالعلاقة متوطدة، نمت تدريجاً مع نموها، هيؤوها كما أرادوا، وتشكلت تصرفاتها كما خططوا لها، وهي تدرج الآن إلى بيت مختلف كل الاختلاف، لا تعرف منه إلا اسم أهله، ومكانهم من المجتمع،

---

(١) انظر وصية عامر بن الظرب لابنته حين زوجها من ابن أخيه: عيون الأخبار لابن قتيبة ٤/ ٧٥. تحفة العروس: ١١٩.

(٢) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في عكاظ.

وأصلهم ونسبهم؛ فهي لا تعرف عادات زوجها، وما يحب، وما يكره، وما يفضل، وما لا يطيق، فعليها أن تكون يقظة، تدرس حياته، ورغباته، وما يحب، وما يكره؛ وعليها أن تكون خفيفة المقام، لا تثقل عليه بوجودها، أو طلبها، تسرع إلى الاستجابة لما يبديه من رغبة؛ ثم ينتقل بعد ذلك إلى مظهرها، وما يهم زوجها من منظرها، وما يسمعه منها، وما يشمه. لم يترك أمراً يقرب المرأة إلى زوجها إلا ذكره، ولم يترك أمراً يخشى منه على العلاقة بين زوجين إلا أشار إليه؛ وكل هذا في كلمات سلسلة قليلة.

والقصة هذه تروى عن عدة طرق، وهذه المرة على لسان رجل، ومرة أخرى على لسان امرأة، ويبدو أن النصائح في هذا الموقف متماثلة، يحفظها جيل عن جيل سابق، ليعطيها لجيل لاحق، وإذا كان هنا اختلاف فهو اختلاف محدد، إما جاء اجتهاداً من اللاحق، أو وهماً من الراوي، وهذه بعض الأمثلة في هذا المجال:

«كانت أمامة بنت الحارثة التغلبية عند عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان، فولدت له أم إياس بنت عوف، فتزوجها الحارث بن عمرو الكندي، فلما أرادت إهداءها إليه قالت لها:

أي بنيتي، إن الوصية لو كانت تترك لِفَضْلِ أدب، أو مكرمة حسب، لتركت ذلك معك، ولكنها تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل.

أي بنية، لو استغنت ابنة عن زوج، لغنى أبويها، لكنت أغنى الناس عنه، ولكنا خلقنا للرجال، كما خلق الرجال لنا.

أي بنية، إنك قد فارقت الوطن الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، أصبح بملكه إياك ملكاً عليك، فكوني له أمة، يكن لك عبداً[1]، واحفظي له خلالاً عشراً:

---

(١) كان الزبرقان بن بدر إذا زوج ابنة له دنا من خدرها وقال: أتسمعين؟ لا أُعَرِّفَنَّ ما طَلَبتِ، كوني له أمة يكن لك عبداً: عيون الأخبار: ٤/ ٧٦.

أما الأولى والثانية : فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، فإن في القناعة راحة القلب، وفي المعاشرة بحسن السمع والطاعة رِضَى الرب .

وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينه، والتفقد لموقع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح، واعلمي أن الكحل أحسن الحسن الموجود، وأن الماء أطيب الطيب المفقود .

وأما الخامسة والسادسة : فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتفاظ ببيته وماله، والرعاية لحشمه وعياله، فإن أصل حفظ المال من حسن التقدير، والرعاية على العيال والحشم من حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تفشين له سراً، ولا تعصين له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره؛ واتّقى مع

ذلك الفرح إذا كان ترحاً، والاكتئاب إذا كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير؛ وأشد ما تكونين له إعظاماً، أشد ما يكون لك إكراماً؛ وأكثر ما تكونين له مُوافَقَةً، أحسن ما يكون لك مُرَافَقَةً، واعلمي أنك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثري هواه على هواك، ورضاه على رضاك، فيما أحببت أو كرهت.

ثم ودعتها، وصرفتها» . [1]

هذا القول أكثر تفصيلاً من وصية أسماء السابقة، وأوفى ترتيباً، فإن كان هو الأصل، فقد جاء أسماء بفحواه، ولم يتقيد بنصه؛ فإن كان فرعاً لقول أسماء فقد لعب التأني والتمحيص فيه دوراً فاعلاً؛ وقد يكون المرتبُ له هذا الترتيب، والمفصل له هذا التفصيل، راو أديب لاحق، وفي وقت متأخر.

وهذا القول يمكن أن يقوله أب لابنته، نتيجة تجربته مع زوجته، وما كان يود أن تكون عليه،

(١) أخذه صاحب تحفة العروس من كتاب التيفاشي في قادمة الجناح. تحفة العروس: ١٢١.

ويمكن أن تقوله أم لابنتها، لما لمسته هي نفسها، في سيرها في حياتها الزوجية، وما سمعته من صويحبانها.

وتأتي الوصايا من أحد الوالدين في هذا الجانب متماثلة في بعض جوانبها، ومختلفة في بعض جوانب أخرى، فطن لها شخص، ولم يفطن لها آخر، إلا إذا كانت زيادات من أدباء متأخرين، أو اجتهاد لاحق من راوٍ متأخر، وبضرب مثل عن هذا بأحد النصوص يتبين ما أضيف، وما أسقط، واختلاف المنحى في بعض المقاطع في النص:

قال الزبير في الموفقيات:

«زوج قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ابنته من لقيط بن زرارة ابن عدس، على مئة من الإبل، ليس فيها ناب، ولا مضرمة، ولا مدابرة[1]، قال:

ثم دخل على ابنته، فقال:

أي بنيّة، إني زوجتكِ غلاماً عزيز النفس، فلا تدني

(١) ناب الناقة المسنة، والمضرمة التي أصاب ضرعها داء فكوي بالنار لأجل ذلك، والمدابرة: المشقوقة الأذن من الخف. وقد تكون من الدبر، وهو تقرح ما يجلس عليه الشداد.

منه كل الدنوّ، فيملّك، ولا تبعدي عنه كل البعد، فينساك، واغلبي أحماءك بالخير، ولا تغلبيهم بالشر، وكوني له أمة، يكن لك عبداً، وتتبعي من الطيب مواقع أنفه؛ واعلمي أن أطيب طيب النساء الماء». [1]

يقف أحدنا عند هذه النصوص، ويرى عمق الفكر فيها، وعمق الحضارة، والإدراك للجواد الموصلة للسعادة، ويتذكر أن الغرب في تلك الفترة كان يغط في نوم عميق من الجهل والهمجية؛ ويؤدي بأحدنا التفكير إلى المقارنة، فيجد أنهم مهما أبعدوا في حضارتهم المادية، يبقى العربي، والمسلم متفوقاً في الخلق، وأمر الروح، وأمر النفس؛ وهذه لا تأتي من نتاج المعامل والتحاليل الفكرية؛ ولهذا يركز الغرب على الصين، ويخشى نهضتها لإقبالها على العلم، تعضدها حضارة استطاعت أن تُبقي هذا الشعب الذي فاق عدده عدد سكان قارات، وهو في ازدياد، متماسكاً جلداً صامداً.

(١) تحفة العروس: ١٢٠.

هذه صورة من صور وصايا الآباء والأمهات لبناتهم أو بناتهن، ولكنْ هناك صور أخرى تأخذ جانباً مختلفاً، ولكنه لا يخلو من تفكير، ومن فائدة للزوجة، ولكن طبيعته تختلف عن طبيعة الوصايا السابقة، ومنهجه مغاير تماماً لذلك النهج، ويربط بينهما، رغم ما في مظهر الثاني من بعد عن الأول، ونفرة منه، النتيجة التي في صالح الزوجة، وهذا هو النص:

«كانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج، تقول المرأة لابنتها:

اختبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه، وانزعي زجّ رمحه، فإن سكت على ذلك فقطعي اللحم على ترسه، فإن سكت فقطعي العظام بسيفه، فإن صبر فاجعلي الإكاف على ظهره، فامتطيه، فإنه حمارك». [١]

هذا التدرج المتقن في اختبار الزوج، ومدى حبه أو خضوعه لما تأتي به زوجته جاء عن تفكير وتروٍّ،

(١) قارن هذا بما جاء في عيون الأخبار: ٤/ ٧٦ فبدلاً من «فإن صبر» «فإن أقر». المراح في المزاح: ٣٥٥. وتحفة العروس: ١١٤.

وربما عن تجربة أيضاً، وهو اختبار حذر، يمكن أن يوصل فيه إلى درجة الدكتوراه، إذا ما وجد الطريق مهيأ، والسير سهلاً، ولم يوقفه عائق من الزوج، عند المرحلة الابتدائية.

وإتقانه جاء من أن اختبار المادة كان متقناً، لأنه ركز على الأدوات التي هي فخر في الدرجة الأولى عند الرجل، في بيئته تلك، ولأنَّ هذه الأدوات هي مصدر سلامته وحياته؛ فإذا ما هان عليه هذان الأمران، فلا خوف على المرأة من أي شيء آخر، فهي في أمان من ثورته، وفي منجى من غضبه، ويمكنها أن تعتبره حماراً طيعاً في يدها، تشد عليه البردعة، وتركبه، وإنها لصورة مخيفة، تلك التي وصل إليها هذا الرجل، المختبر بهذه الطريقة البارعة.

والشعر هو السجل الآمن للأفكار من الضياع، الحامي من العبث، إلا ما قل، ولهذا اعتُبر ديوان العرب بحق، وأمر الوصايا من أبرز الأفكار النبيلة التي يراد لها البقاء، ويتلمس لها الشيوع، ولهذا

نجد بعض وصايا النساء لبناتهن عند الزواج، وضعت في لباس الشعر، الحامي الواقي، من برد الضياع، أو حر العبث، أو زمهرير النسيان، وهذه أبيات في هذا المجال:

«قالت أم لابنتها:

بُنَيَّتِي، إنْ نَامَ نَامِي قَبْلَهُ
وَأَكْرِمِي تَابِعَهُ وَأَهْلَهُ
وَلاَ تكُونِي فِي الخِصَام مِثْلَهُ
فَتخْصِمِيْهِ فَتكُونِي بَعْلَهُ»[1]

في هذه الأبيات نصيحة جديدة، وفيها وصية لم ترد فيما ورد قبل ذلك، وهي التفات مهم، لأمور رئيسة في حياة الزوجين؛ وفيها إيحاء للزوجة ألا تجعل الفراش مسرحاً للحديث عن أمور النهار، بما فيها من منغصات ومشاكل، لأن مثل هذه الأمور تُطِير النوم عن الزوج، وتكرارها ينفره من الإقبال بهناءة على نومه مع زوجته. وهي توصي الزوجة

(١) الحيوان: ٥/ ١٣٩.

بأنها إذا اضطجعا في فراشهما عليها أن تنام قبله، أو تتظاهر بذلك. فيالها من نصيحة غالية، لا يعرف عمق فائدتها إلا المجرب.

وأمر آخر في هذه النصيحة لا تقل أهميته عن الأمر السابق وهي أن لا تلح في مجادلة زوجها، أو تحاول أن تكون هي الغالبة، لأن هذا ينقلها من مكانها زوجةً، فيجعلها في مكان الزوج، وهذا يكفي ما فيه من قلب الأوضاع. والمرأة العاقل هي التي تبدي رأيها، ولا تلح فيه، حتى لو كان زوجها على خطأ، لأنه عندما يكشف له الوقت خطأه، ترتفع قيمة زوجته عنده، ويجعله يصغى لرأيها، ويحترمه في المرات التالية، والأمور بنتائجها؛ وما اكتسب في نهاية الأمر هو المهم، وعليه الاعتماد.

وقد تُطلَبُ النصيحة طلباً، خاصة في أمر مهم مثل الزواج، لأن في الزواج لمن لم يجربه غموضاً، وله هيبة، وفيه همّ، ولهذا نجد أن النصيحة فيه تطلب، والوصية تقدر، ولدينا نص في هذا الاتجاه يجري

الأمر فيه كمايلي:

«قال رجل:
سألت أناساً من أهل البادية: إلى من أنكح؟
قالوا: اتّق الدِّقَّة المتوارثة، وانكح إلى من شئت.
قلت: وما الدقة المتوارثة؟
قالوا: أخلاق سيئة، يرثها آخر من أول»[1].

هذه نصيحة غالية، توجب على طالب الزواج البحث والتقصي، والتأني، ودقة الملاحظة؛ وعليه بهذا أن يعرف أصل الزوجة، وكيف تصرفاتهم، وهم أبوها وجدها، ثم إخوانها وأخواتها، فإذا كان هناك عيب مشترك يتقيه، فإنه يعرف عنه قبل أن يتم ارتباطه بهم، وقبل أن يعقد سببه بسببهم؛ فالغباء عيب فاضح، والحمق خلة مزدراة مثلاً.

وأبو الأسود الدؤلي منّ على أولاده، في حديث له معهم، لأنه أحسن الاختيار عندما تزوج أمهم، لأنه استقصى في الأمر، واهتم به، فرضي من أولاده

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٢٥٩.

خلقهم، لأنه خلق أمهم المنتقاة، وهذا قوله:

«قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه:

يا بني قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً، وقبل أن تولدوا.

قالوا: وكيف؟

قال: التمست لكم من النساء الموضع الذي لا تعابون به» .[1]

وفي نجد قصة تتداول، ولكن شمسها اليوم بدأت تغيب، فلم تعد الأمهات يقصصنها على أبنائهن أو بناتهن عند النوم، كما كُنَّ يفعلن في زمن مضى، وقد حلت محلها قصص حديثة، بعضها مترجم من لغات أخرى، لا تمس حياتنا بصلة، ولا تربطها بها رابطة؛ وقد تكون التي تقص القصص عليهم خادمة أجنبية، بلغتها السقيمة، وأفكارها الضعيفة. والقصة التي كانت أمهاتنا، وقبلهن

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: قال رجل: لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها، قيل له: كيف ذاك؟ قال: أنظر إلى أبيها وأمها، فإنها تجر بأحدهما. عيون الأخبار: ٤/ ٤. بهجة المجالس: ٣/ ٣٢.

جداتنا، يقصصنها تتصل بالزواج، وكان يقال إن جحا أصيب بعقله، وركب عسيباً من النخل، يجري فوقه في الأسواق مع الأولاد، وهذا منظر كان معتاداً لبعض من لوبس في العقل، وكان لجحا هذا أم وأخ.

جاء أخو جحا يوماً لأمه، وقال لها: آن الأوان أن أتزوج، فقد كبرت، وأريد أن أملأ عليك البيت أحفاداً.

فقالت الأم: حسناً فعلت، إذ قررت هذا القرار.

فقال: بم توصينني؟

قالت: إذهب إلى أخيك جحا، فاستشره.

قال: إن أخي مثل ما تعرفين قد فقد عقله، ولو كان يستطيع أن يشير بما فيه نفع، لأشار على نفسه.

قالت: إن أخاك حكيم، رغم ما يظهره من خبل وهبل، لعله يفيدك برأي، فتستفيد منه في حياتك المقبلة.

ولعل الأم كانت تعرف عن جحا، وداخل أمره،

غير ما يعرفه أخوه؛ فقد يكون جحا يظهر الجنون، ويخفي العقل، لسبب سياسي لم يفطن له أخوه، وأبقاه سراً لا يعلمه إلا هو وأمه، ولعل هذا السر إيهام السلطة العثمانية بأنه مجنون، فلا يؤخذ عليه ضريبة، ولا يدعى للحرب، ويعتبر هو والميت سواء، ويسلم أخوه أيضاً لأنه سوف يكون شبه الوحيد لأمه، فلا تأتيه نوبة الدعوة للحرب، إلا إذا لم يبق إلا هو وأمثاله.

وكانت الدولة العثمانية تُسخّر الشباب للحرب، وقولها نافذ، وعندها من القسوة ما لا يطيق أحد أن يقف أمامها؛ ورحى الحرب طوال زمن العهد العثماني تطحن الأرواح؛ فالحروب داخلها، والحروب على أطرافها، لا تكاد الواحدة تنتهي حتى تبدأ الأخرى، وقد أتى عليها وقت كانت فيه تحارب على عدة جبهات، وكانت لهوة الرحى أرواح الشباب في القرى والأقطار النائية.

اضطر أخو جحا أن يرضخ لرأي أمه، طاعة وبراً

فقط، وليس اقتناعاً ورغبة؛ وذهب إلى جحا، يبحث عنه في الأسواق، يرفعه سوق، ويضعه سوق؛ الأثر الذي يقوده إليه ضجيج الأطفال حول جحا، وصخبهم، وركضهم، ورقصهم وغناؤهم، وأخيراً وجده، واخترق الموج من الأولاد الذين يحيطون به، وفي خضم الضجة والعجاج، قال له:

يا جحا، لقد قررت أن أتزج، وقد أوصتني الوالدة أن استشيرك في الأمر، وآخذ نصحك فيه، فما تقول؟

فلم يقف جحا، واستمر في سيره، ولكنه التفت إلى أخيه وقال له:

«أحذرك عن الحمص، والرمص، وبيت القطوع، وابعد عن درب الفرس».

والفرس هو الجذمار الذي كان راكباً عليه، يذرع فوقه الأزقة والأسواق.

فدهش الأخ، وفغر فاه مستغرباً، ولكن الأمر لم يفاجئه، وإنما رجع إلى نفسه، وإلى موقف أمه،

التي في نظره تعرف جيداً جنون أخيه، وهذه حصيلة هذه الرحلة المهمة: كلمات لا معنى لها، ولا مدلول، نطق بها رجل فاقد عقله، لم يقف ليَسمع أو يُسمع. ولام نفسه، ورجع إلى أمه خائباً، وأخبرها، ولقد زادت دهشته عندما قالت أمه:

لقد أعطاك أغلى نصيحة، لقد حذرك من الزواج فيمن تتصف بالصفات التي ذكرها، وقال لك: «إبعد عن درب الفرس» إيذانا منه بأنه لا شيء عنده يقوله لك، أكثر مما قال، وفيما قال في نظره ما يكفي.

ولعل الأخ سأل أمه عن معنى الكلمات المبهمة التي نطق بها جحا، وكأنها ألغاز، بل إنها كذلك.

قالت الأم: إن الحمص هو من تدمع عينه دائماً، لسقوط أهدابها، أو تعكفها إلى الداخل، والرمص هو الغمص سال من العين أو جمد، وهذه يا بني كلمات ترمز إلى المظهر في المرأة، ومنه تعرف صحتها، وعنايتها بنفسها، إو إهمالها لها.

أما بيت القطوع فالعائلة التي لا تصل رحمها،

ولا تهمها الروابط العائلية التي تجمع الأصهار، وتشيع المحبة والألفة بين العائلات المتصاهرة؛ لأن في مصاهرة البيت الواصل فائدة جلّى، ومصاهرة البيت القاطع فيها الضرر الذي لا حدود له.

وهكذا ترى أن جحا أعطاك نصيحة ذات شقين: الأول خاص بالزوجة، وصفاتها الجسمية، والخلقية، والثاني عن المحيط الأوسع، وهو محيط العائلة.

ولعل دهشة أخي جحا قد زالت بعد هذا الإيضاح الوافي والتفسير المنير، ولابد أنه أخذ به.

ولقد وجدت في التراث نصيحة تشبه هذه النصيحة في إطارها العام. وقد تكون هي أصل الصورة الشعبية التي ذكرناها، أو هما معاً قد استقيا من قصة أخرى، أوفى منهما، وأن الرواة أخذوا يقضمون في أطرافها حتى لم يبق منها إلا ما وصل إلينا عن طريق المراجع، أو عن طريق الأمهات، والقصة كمايلي:

«قال الأصمعي: حدثنا سوار، قال:

طلب رجل، فجن، وتحامق، وركب قصبته،

واتبعه الصبيان، وخطب رجل حتى أعيي، فنذر أن يشاور أول من يلقاه، فلقي القشعم، فقال:

إني نذرت أن أتزوج.

قال: بكر لك لا عليك، ثيب لك وعليك، ذات الجلاوز عليك، ولا لك». [1]

القصة الشعبية أخذت جانباً، وهذه اهتمت بجانب آخر، وقد وضع كل من البكر، والثيب، والثيب ذات الأولاد، في منازلهن، من الأفضلية، فجعل البكر هي الخيار الأول، وأم الأولاد، كاد أن يحذر منها، بالموقع الذي وضعها فيه.

ليست كل نصائح الزواج صائبة، وليست كل الوصايا حوله توصل إلى ما ينفع، وقد وقع أناس في مأزق نتيجة أخذهم بنصيحة حول الزواج، وأذكر أنه قبل ثلاثين عاماً، كنت مدعواً عند جار لي، له ثلاث زوجات، وكان لنا جار ثالث، له زوجتان، وكان صاحب الثلاث يحاول أن يقنع صاحب الاثنتين

---

(١) أخبار القضاة: ٢/ ٦٦.

بأن يتزوج ثالثة، وأنه ينطلق بهذه النصيحة من تجربته المستفيضة، ومن جملة ما قال في سبيل إقناع الآخر: أن الزوجتين قد تتفقان على الزوج، وتتعاونان عليه، فتنغصان حياته، وتجعلانها جحيماً لا يطاق، أما الثالثة فتدخل بينهما، وتبطل خططهما، ويسلم الرجل بسببها من هذه المؤامرة.

كان من بين المستمعين والد الزوجة الثالثة، وهو رجل ذو مقام، وذو خبرة في الزواج المتعدد، ولهذا بادر فنصح صاحب الاثنتين بأن لا يلقي بالاً للنصيحة التي سمعها، وهو يعرف أن صاحبها قد وقع في إشكال كبير بزواجه من ثلاث، ويعز عليه أن يكون في الهمّ وحده، ويريد أن يجذب غيره إلى نادي الشقاء الذي هو فيه.

هذه نصيحة من النصائح التي لم تكن لتأتي بفائدة، وإذا كانت هذه محاولة في عصرنا الحاضر، فهناك نصيحة خابت عند التجربة في قديم الزمان، وندم صاحبها على أن أخذ بها، فقد نُصح أن يتزوج زوجتين،

وامتلأ رأسه بالمبررات لذلك، وأُوهم بالسعادة التي تنتظره عند إتمام الأمر، فلم يجد إلا الخيبة التامة، وتبينت له الحقيقة بوجهها البشع بعد الزواج، فنفث همه من صدره بأبيات جميلة والقصة كمايلي:

قال الأصمعي: قيل لأعرابي:

من لم يتزوج امرأتين، لم يذق لذة العيش.

فتزوج امرأتين، ثم ندم، فقال:

تَـزَوَّجْـتُ اثْنَتَيْـنِ لِفَـرْطِ جَهْلِـي
بِمَـا يَشْقَـى بِـه زَوْجُ اثْنَتَيْـنِ
فَقُلْـتُ أَصِيْـرُ بَيْنَهُمَـا خَـرُوفـاً
أُنَعَّـمُ بَيْـنَ أَكْـرَمِ نَعْجَتَيْـنِ
فَصِرْتُ كَنَعْجَةٍ تُمْسِيْ وَتُضْحِي
تَـرَدَّدُ بَيْـنَ أَخْبَـثِ ذِئْبَتَيْـنِ
رِضَى هٰذِي يُهَيِّجُ سُخْطَ هٰذِي
فَمَا أَعْرَى مِنْ إِحْدَى السَّخْطَتَيْنِ
وَأَلْقَى فِي المَعِيْشَةِ كُلَّ بُؤْسٍ
كَـذَاكَ المَـرْءُ بَيْـنَ الضَّـرَّتَيْـنِ

لِهٰـذِي لَيْلَـةٌ وَلِتْلِـكَ أُخْـرَى
عِتَـابٌ دَائِـمٌ فِـي اللَّيْلَتَيْـنِ»[1]

وليس هذا هو الأعرابي الوحيد الذي عانى من نصيحة خاطئة عن الزواج من أكثر من زوجة، فهناك آخر، أخذ النصيحة بحماس جعله يتزوج أربعاً، أملاً في أن تكمل له السعادة بهذا العدد، كما سمع، ولكن الأمر جاء بخلاف ما ظن، وانقلبت الأمور إلى ضدها، ويبدو أن الشِّعر هو المتنفس اللائق بمثل هذه الورطة، فكما لجأ إليه الأعرابي في القصة الأولى، لاذ به الشاعر في القصة الآتية، ولا غرو فالزواج مهم، فإما أن يوفق الإنسان فيه، فتكون حياته طافحة بالرضى والسعادة، ويقضي عمره منعماً، أو أن يتعداه التوفيق، فيصبح شقياً، حياته منغصة، ويلازمه في عمره النكد.

والقصة التي تُبين وقوع الأعرابي الثاني في ورطة لا تدانيها ورطة، تُبين كذلك أن إغراء الكلمات

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٤١، والأمالي: ٢/ ٣٥.

التي سمعها، أعمت عينيه عن أن يفكر ويتدبر، أغراه ما سمع من القول، وتصور المتعة الموعودة، فسار مثل الدابة التي مُشي أمامها بحزمة قَتٍّ، مرفوعة في الهواء، فجعلها تتبعها، وعيناها في السماء، فوقعت في حفرة تحت قدميها:

«دخل أعرابي على الحجاج، فسمعه يقول:

لا تكمل النعمة على المرء حتى ينكح أربعَ نسوة، يجتمعن عنده.

فانصرف الأعرابي، فباع متاع بيته، وتزوج أربع نسوة، فلم توافقه منهن واحدة: خرجت واحدة حمقاء رعناء، والثانية متبرجة، والثالثة فارك، (أو قال فروك)، والرابعة مذكرة.

فدخل على الحجاج فقال:

أصلح الله الأمير، سمعتُ كلاماً أردتُ أن تتم لي به قرةُ عين، فبعت جميع ما أملك، حتى تزوجت أربَعَ نسوة؛ فلم توافقني منهن واحدة. وقد قلت فيهن شعراً، فاسمع مني:

قال: قل:

فقال:

تَزَوَّجْتُ أَبْغِي قُرَّةَ العَيْنِ أَرْبَعًا
فَيَا لَيْتَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَتَزَوَّجُ
وَيَا لَيْتَنِي أَعْمَىٰ أَصَمٌّ وَلَمْ أَكُنْ
تَزَوَّجْتُ بَلْ يَا لَيْتَ أَنِّي مُخَدَّجُ
فَوَاحِدَةٌ مَا تَعرِفُ اللهَ رَبَّهَا
وَلاَ مَا التُّقَى تَدْرِيْ وَلاَ مَا التَّحَرُّجُ
وَثَانِيَةٌ مَا إِنْ تَقَرُّ بِبَيْتِهَا
مُذَكَّرَةٌ مَشْهُوْرَةٌ تَتَبَرَّجُ
وَثَالِثَةٌ حَمْقَاءُ رَعْنَاء سَخِيْفَةٌ
فَكُلُّ الّذِيْ تَأْتِي مِنَ الأَمْرِ أَعْوَجُ
وَرَابِعَةٌ مَفْرُوكَةٌ ذَاتَ شِرَّةٍ
فَلَيْسَتْ بِهَا نَفْسِيْ مَدَى الدَّهْرِ تُبْهَجُ
فَهُنَّ طَلاَقٌ كُلُّهُنَّ بَوَائِنٌ
ثَلاَثًا ثَلاَثًا فَاشْهَدُوا وَلاَ تَتَلَجْلَجُوا

فضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره، ثم

قال له:

كم مهورهن؟

قال: أربعة آلاف درهم.

فأمر له بثمانية آلاف درهم». [1]

ووصية الوالد لابنه، أو الأم لابنها، أو أحد الاثنين لابنتهما، من أصدق الوصايا، قياساً على العاطفة التي يكنها الآباء للأبناء، وما وضعه الله في أنفس الطبعي منهم من رغبة جامحة في نفعهما، وفي دفع الأذى عنهما، حتى أنهما ليفديانهما بأرواحهما، وهذا أمر وضعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ترتيباً متقنا، ضماناً لعمار الكون، وبقائه؛ هذا من جانب صدق النصيحة، والجانب الآخر صحتها، وقيمتها، فهي عصارة تجربة منتقاة، كل كلمة منها وراءها استقراء حادثة أو أكثر، ووراءها تدبر وتبصر فيما مر أمام المرء، أو اكتوى بناره، وهذه وصية امرأة لابنها، مليئة بالحكمة، نورها مشرق، والفوائد فيها تترى،

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤.

وهي كمايلي:

«قال الأصمعي، عن إبان بن تغلب:

مررت بامرأة بأعلى الأرض، وبين يديها ابن لها، يريد سفراً، وهي توصيه، فقالت:

إجلس، أمنحك وصيتي، وبالله توفيقك، وقليل إجدائها عليك أنفع من كثير عقلك:

إياك والنمائم، فإنها تزرع الضغائن؛ ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة، فإن الهدف إذا رُمِي لم يلبث أن ينثلم؛ ومثّل لنفسك مثالاً، فما استحسنته من غيرك فاعمل به، وما كرهته منه، فدعه، واجتنبه، ومن كانت مودته بِشَرَه كان كالريح في تصرفها.

ثم نظرت، فقالت:

كأنك يا عراقي أعجبت بكلام أهل البدو؟

ثم قالت لابنها:

إذا هززت فهز كريماً، فإن الكريم يهتز لهزتك، وإياك واللئيم، فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها؛ وإياك والغدر، فإنه أقبح ما تعومل به؛ وعليك بالوفاء،

ففيه النماء؛ وكن بمالك جواداً، وبدينك شحيحاً؛ ومن أُعطي السخاء والحلم فقد استجاد الحُلَّه، ريطتها، وسر بالها.

انهض على اسم الله» .[1]

هذه وصية غالية، من أم لفلذة كبدها، كان تحت رعايتها، وقد نبت ريشه الآن، واقترب من أن يطير، كان في عش ترعاه عينان يقظتان، لا تطرفان في مصلحته، كل حاجة له مكفولة، وعيبه يرفأ أولاً بأول، ونصحه يأتي حسب الوقائع، وحدوث الحوادث، أما اليوم فليس له حافظ بعد الله إلا عينه، يفتحها جيداً، ولا أقل من أن تضع له والدته الأسس، وتنبهه إليها، وتحثه على مراعاتها، فلعلها تفيده في بعض أمره، وتوجد عنده ملكة يقيس بها الأمور، ويحكم بها ما يمر به في هذه الحياة.

وقد أحسنت الأم في اختيار ما اختارت من أسس، ووفقت في إبراز ما يأتي في مقدمة المبادئ التي على

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٧٢.

الإنسان أن يراعيها، والفضائل التي يجب أن يسعى إليها، والرذائل التي يجب أن يبعد عنها، بُعدَ السليم من الأجرب، والصحيح من السقيم.

وقد اختارت النصائح متنوعة؛ منها ما لا يعرف بيئة دون بيئة، ومنها ما هو مستقى من محيطها في البادية، وهو المحيط الذي أعطاها صفاء الذهن الذي أوحى لها بما أوحى؛ وأول ما بدأت به النميمة، وهو داء إذا حل في مجتمع هدمه، وقلب الحياة فيه إلى منقع تعاسة، وبؤرة شقاء؛ فالنميمة بذرة شجرتها الوحشة، وفاكهتها البغضاء، والشحناء، والتطاحن، وليس هناك مجتمع أكثر شقوة من مجتمع تعيث فيه هذه الأمور.

وقد نبهته إلى أنه مثل ما يعد سهمه ليرمي الناس، فالناس دون أنفسهم يعدون له العدة نفسها، فهم يُوتِرون أيضاً قسيهم، ليرسلوا سهامهم إليه؛ ولهذا فعليه أن يطلب السلامة، فلا يرمي أحداً، وحينئذ قد يسلم من رمي الناس، وإذا ما ترامى مع الناس،

فإنه لابد أن يناله الأذى من رميهم، حتى لو كان إضراره بهم أكثر.

ونبهته إلى مقياس صائب في معاملة الناس، وهو أن يحب للناس ما يحب لنفسه، وأن يكره لهم ما يكره لنفسه، أما أن يأخذ منهم الخير، ولا يعطيهم إياه، ويرسل إليهم الشر، ويرجو أن يتقي شرهم، فهذا خلاف ما يأتي من الطبع، الذي وضع الله، خالق الكون، له قواعده، وقوانينه.

وأوصته بأن يلجم عاطفته، فلا يكن حبه جامحاً سريعاً يأتي عنيفاً، ويذهب خطفاً، العواطف أغلى من أن تكون هذه صفتها؛ العاطفة يجب ألا تباح إلا بعد تأن، وتَثَبُّتٍ، فإذا ما ارتضي لها أن تتكون، فعلى المرء أن يحافظ عليها؛ فمتى ما وجدتَ صديقاً، وثقتَ من صداقته، فعليك أن تتمسك به، وتغض الطرف عما قد يأتي منه من زلات، وما يقع منه من أخطاء، وما قد تلحظه منه من تقصير، وأن تسد أذنيك عن سماع القول عنه، وقبول الوشاية فيه.

ثم دلفت إلى أمر هو في البادية المرتكز للفخر، والبروز، وهو الكرم، وما يتصل به؛ فقالت له: لا تطلب حاجة من اللئيم، وعليك بدوحة الكريم، فإنك إذا هززتها أخذت من ثمرتها مقابل ما دفقته من ماء وجهك عندما اتجهت إليه بطلبك، أما اللئيم فهو مثل الصخرة، لو عصرتها بكل قوة على وجه الأرض لما استخرجت منها ماءاً.

ثم التفتت إلى أمر مشين، وهو الغدر، فحذرته منه، فهو فعل قبيح، لا يليق بالإنسان، وهو من أرذل الأعمال، لا يأتي إلا من نفس داخلها أسود، وطينتها زفرة، والغدّار لا مقام له في المجتمع الصالح، وغدره سرعان ما يعود عليه، ويلتف حول عنقه فيخنقه.

ثم حثته على الوفاء، وهو نور يسطع داخل النفس، فيضيؤها وينير جوانبها، ويجعل صاحبه مقبولاً في مجتمعه؛ لأن الوفاء وعاء خير، وشجرة طلعها مبارك، وطوبى لمجتمع يحافظ على الوفاء، ويجعله

ديدنه، وقاعدة تعامله.

ثم حثته على الكرم في ماله، والبخل بدينه، فأكدت عليه أن في الانفاق في الأول فضيلة، وفي التهاون في الثاني إثم ورذيلة، وقد قابلت بهذا بين الاثنين بعبارة رصينة، لها وقعها وتأثيرها في ابن البادية.

ولم تنس في مطلع قولها أن تنبهه إلى أن تمسكه بهذه النصيحة، مهما قل هذا التمسك، فإنه أجدى مما يمليه عليه عقله، لأن منطلق عقله سوف يكون نَظَراً، بينما هي تعطيه زبدة عمل، طالما جربته، وطالما عاسرته وياسرته، وفرق بين النظر والفعل.

وهذا صحابي من الحضر يوصي بنيه وصية متوقعة من صحابي، فكره انصبغ بالإسلام، وروحه تشربت به، وهذه هي الوصية:

«قال عمير بن حبيب يوصي بنيه:

يا بني، إياكم ومخالطة السفهاء، فإن مجالستهم داء، وإنه من يحلم عن السفيه يسر بحلمه، ومن

يجبه يندم، ومن لا يُقَرُّ بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، أو ينهى عن المنكر، فليوطن، قبل ذلك، [نفسه] على الأذى، وليوقن بالثواب من الله - عز وجل - إنه من يوقن بالثواب من الله - عز وجل - لا يجد مس الأذى» .[1]

ركز عمير على أمرين رئيسين: السفهاء، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فحذر بشدة من مخالطة السفهاء، وحث على عدم إجابتهم إذا ما تحرشوا بالإنسان، وأكد أن تركهم إذا ما أساؤا أقل ضرراً من إجابتهم، ونبه من يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يوطد نفسه على العناء الذي سوف يلاقيه ممن يدعوه إلى الخير، واجتناب الشر، وأن يجعل أمامه ثواب الله عوضاً عما يناله من جهد وعناء، وإن ما يخفف عنه هذا العناء إدراكه أن الله سبحانه سيثيبه على عمله.

وهناك وصية ضافية من أب لابنه جمع فيها من

(١) الأمالي: ٢/ ٥٧.

الحكم ما رأى أنه مفيد لابنه في حياته المقبلة، وأزجى له هذه النصيحة والأب على فراش الموت، وليس هناك أقوى من وصية أب على وشك أن يغادر الحياة، ويريد أن يطمئن على ابنه، ويضمن له السعادة، بعد أن يفارقه في هذه الحياة، فيبقى وحيداً، يكابد تقلباتها، ويعاني صروفها:

«لما حضرت عبدَالله بن شداد بن الهادي الوفاةُ دعا ابناً له يقال له: محمد، فقال:

يا بني، إني أرى داعيَ الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع، وإني موصيك بوصية، فاحفظها:

عليك بتقوى الله العظيم، ولكن أولى الأمور بك شكرُ الله، وحسن النية، في السر والعلانية؛ فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد: وكن كما قال الحطيئة:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ
ولَكِــنَّ التَّقِــيَّ هُــوَ السَّعِيْــدُ

وَتَقْـوَى اللهِ خَيْـرُ الـزَّادِ ذُخْـراً
وَعِنْـدَ اللهِ لِـلأَتْقَـى مَـزِيْـدُ
وَمَـا لاَبُـدَّ أَنْ يَـأْتِـي قَـرِيْـبٌ
وَلَكِـنَّ الَّـذِيْ يَمْضِـي بَعِيْـدُ

ثم قال:

أي بني، لا تزهدنّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب؛ فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه؛ واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان؛ وكن، أي بني، كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وَعُدَّ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَضْلاً وَنِعْمَةً
عَلَيْكَ إِذَا مَا جَاءَ لِلْعُرْفِ طَالِبُ
وَإِنَّ امْرَءًا لاَ يُرْتَجَى الخَيْرُ عِنْدَه
يَكُن هَيِّنًا ثِقْلاً عَلَى مَنْ يُصَاحِبُ
فَلاَ تَمْنَعَنْ ذَا حَاجَةٍ جَاءَ طَالِبًا
فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِيْ مَتَى أَنْتَ رَاغِبُ

رَأَيْتُ التِوَا هَذَا الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ
وَبَيْنَهُـمْ فِيْـهِ تكُـونُ النَّـوَائِـبُ

ثم قال:

أيٍ بني، كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمدَ جود المرء الانفاقُ في وجه البر، وإن أحمد بخل الحر الضنّ بمكتوم السر، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أَجُـودُ بِمَكْنُـونِ التِّـلاَدِ وَإِنَّنِـي
بِسِـرِّكَ عَمَّـنْ سَـالَنِيْ لَضَنِيْـنُ
إِذَا جَـاوَزَ الإِثْنَيْـنِ سِـرٌّ فَـإِنَّـهُ
بِنَـثٍّ وَتَكْثِيْـرِ الحَـدِيْـثِ قَمِيْـنُ
وَعِنْدِيْ لَهُ يَوْمًا إِذَا مَا ائْتَمَنْتَنِي
مَكَـانٌ بِسَـوْدَاءِ الفُـؤَادِ مَكِيْـنُ

ثم قال:

أي بني، وإن غلبت يوماً على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال، والدني

عِيال؛ وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقلَّ ما تكون في الباطن مالاً؛ فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنفاد نعمته؛ وكن كما قال ابن حَذّاق العبدي:

وَجَـدْتُ أَبِـيْ قَـدْ اوْرَثَـهُ أَبُـوْهُ
خِـلالاً قَـدْ تُعَـدُّ مِـنَ المَعَـالِـي
فَـأَكْـرَمُ مَـا تكُـوْنُ عَلَـيَّ نَفْسِـي
إذَا مَا قَلَّ في الأَزَمَاتِ مَالِي
فَتَحْسُنُ حَالَتِي وَأَصُوْنُ عِرْضِيْ
وَيَجْمُلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
وَإِنْ نِلْـتُ الغِنَـى لَـمْ أُغْـلِ فِيْـهِ
وَلَمْ أَخْصُصْ بِجَفْوَتِيَ المُوَالِي

ثم قال:

أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد، فإنك إن أمضيتها حيالها، رجع العيب على من قالها؛ وكان يقال:

الأريب العاقل، هو الفطن المتغافل؛ وكن كما

قال حاتم الطائي:

وَمَا مِنْ شِيْمَتِي شَتْمُ ابنِ عَمِّي
وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مَنْ يَرْتَجِيْنِي
وَكِلْمَةِ حَاسِدٍ فِيْ غَيْرِ جُرْمٍ
سَمِعْتُ فَقُلْتُ مُرِّيْ فَانْفُذِيْنِي
فَعَابُوْهَا عَلَيَّ وَلَمْ تَسُؤْنِي
وَلَمْ يَعْرق لَهَا يَوْمًا جَبِيْنِي
وَذُو اللَّوْنَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيْقًا
وَلَيْسَ إِذَا تَغَيَّبَ يَأْتَلِيْنِي

قال أبو علي: ما أَلَوْتُ: ما قصرت، وما ألوت: ما استطعت.

سَمِعْتُ بِعَيْبِهِ فَصَفَحْتُ عَنْهُ
مُحَافَظَةً عَلَى حَسَبِي وَدِيْنِي

قال أبو علي ويروى: سمعت بِغَيْبِهِ، ثم قال:

أي بني، لا تؤاخ امرءًا حتى تعاشره، وتتفقد موارده، ومصادره؛ فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة، فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في

العسرة، وكن كما قال المقنع الكندي:

أَبْلُ الرِّجَالَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ
وَتَوَسَّمَنَّ فَعَالَهُم وَتَفَقَّدِ
فَإِذَا ظَفَرْتَ بِذِي اللَّبَابَةِ وَالتُّقَى
فَبِهِ اليَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدِ
وَإِذَا رَأَيْتَ وَلاَ مَحَالَةَ زَلَّةً
فَعَلَى أَخِيْكَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فَارْدُدِ

ثم قال: أي بنيّ، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه كان يقال: أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضَك يوما ما؛ وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري:

وَكُنْ مَعْقِلاً لِلْحِلْمِ وَاصْفَحْ عَنِ الخَنَا
فَإِنَّكَ رَاءٍ مَا حِيِيْتَ وَسَامِعُ
وأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا
فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ
وَابْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ بُغْضًا مُقَارِبًا
فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِيْ مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ

وعليك بصحبة الأخيار، وصدق الحديث، وإياك وُصحبةَ الأشرار، فإنّه عار؛ وكن كما قال الشاعر:

اصْحَبِ الأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيْهُمُ
رُبَّ مَنْ صَاحَبْتَهُ مِثْلُ الجَرَبْ
وَدَعِ النَّاسَ فَلا تَشْتِمْهُمُ
وَإِذَا شَاتَمْتَ فَاشْتُمْ ذَا حَسَبْ
إِنَّ مَنْ شَاتَم وَغْدًا كَالَّذِيْ
يَشْتَرِي الصِّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبْ
وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَادَثْتَهُم
وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شاءَ كَذَبْ»[1]

لقد كانت وصية جامعة، لابد أن قائلها حضر لها، سواء كان عبدالله بن شداد، أو من ألبسه ثوبها، من الأدباء المحبّرين للأفكار، وقد امتازت بالنهج الذي اتبعه الموصي، وما اتَّبعه في كل فكرة يأتي بها من الاستشهاد ببعض الأبيات، وهو لم يسلك هذا

(١) الأمالي: ٢/ ٢٠٢.

المسلك عبثاً، ولكنه يعلم أن القول المطلق يُنسى، ولا يبقى إلا القول المسجوع، وأثبت منه الشعر؛ ولهذا حرص أن يُتبع كل فكرة بشعر رصين، كثيراً ما يُستشهد به في المواقف التي تتناسب معه.

وفي أول مقطع في وصيته ركز على الأمور الرئيسة الآتية: تقوى الله وهي خير زاد؛ ثم شكر الله، وهو خير بضاعة للإنسان، ثم النية الحسنة، لأنها الأمر الذي لا يشارك الله ـ سبحانه ـ فيها أحد، فهو الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور.

ثم طلب من ابنه ألاّ يحتقر عمل المعروف في الناس، فالمعروف الصغير يبذل اليوم، لا يعلم إلا الله ماذا يأتي به مستقبلاً من عظيم الشكر والاعتراف، ولمح له بأن الزمن قد يدور، فيكون هو محتاجاً إلى من كان في حاجة إلى هذا المعروف القليل.

ثم انتقل إلى أمر مهم، يبدو أنه يأتي في المقدمة في الوصايا وهو الكرم، وإذا كنا رأينا في وصية سابقة أن أحد الموصين قد حث على الجود بالمال، والبخل

بالدين، فإن هذا حث على الجود بالمال، والبخل بالأسرار، وكأن كلمة الكرم أو الجود توحي بضدها، فكلهم يأتي بها سنداً للجملة، وتثبيتاً للرأي.

ونصحه إذا فقد المال أن لا يستكين، وأن يسعى ما أمكنه الجهد، وطالبه بأن يكون مظهره خيراً من داخله، فلا يكون لقلة المال تأثير على لباسه ومظهره، وهذا المظهر الحسن يساعده على استرداد ثروته، لأنه حجب عن الناس ما قد يكون سببا في النفور منه، وعدم التعاون معه، وحجب الثقة عنه.

وأمره بالتغاضي عن زلات الناس، فإن رآها أغمض عينيه عنها، وإن سمعها تظاهر بالصمم، فكأنه لم يسمعها.

وفي فقرة أخرى هداه إلى الطريقة التي يختار بها الأصدقاء، وأن عليه أن يتحرى عنهم، ويسبر غورهم، وأن يكون متأنياً في ذلك، فالعجلة في مثل هذا الأمر مزلة.

ثم ينتقل إلى أمر مهم، وهو عدم الإسراف في

المحبة، أو البغض، وأن على المرء ألا ينساق مع العاطفة فقد تقوده إلى مزلق الخطأ، وعليه أن يلجمها بلجام التروي والتبصر والتأني والحساب الدقيق للأمور، وتقليبها على أوجهها الممكنة كلها، لأن المحبة قد تنقلب في يوم من الأيام، وبسبب من الأسباب إلى بغض، أو ينقلب البغض لاحقاً إلى محبة، فيندم الإنسان على ما فرط منه، ويتمنى لو كان كال لكلٍّ بمكيال معتدل.

ثم ختم ختاماً مسكاً بالحث على صحبة الأخيار، وهم من يأتي منهم النفع، والبعد عن مجالسة الأشرار، فهم لا يأتي منهم إلا الشر والضرر، وحثه على صدقِ الحديث، فالصدقُ فيه النجاة.

لقد كانت وصية جامعة في معانيها ومتقنة في أسلوبها ونهجها.

ومن الوصايا الشريفة، وصية عبدالله بن الحسن بن الحسن، وهو من خطباء بني هاشم، ومن نصحهائهم، وهذه وصيته لأحد ابنيه إما إبراهيم أو محمد:

«أي بني، إني مؤد إليك حق الله في تأديبك، فأد إليّ حق الله في حسن الاستماع.

أي بني، كُفّ الأذى، وارفض البذاء، واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك نفسك فيها إلى القول؛ فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب. واحذر مشورة الجاهل، وإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل، إذا كان غاشّاً، أن يورطاك بمشورتهما، فيسبق إليك مكر العاقل، وغرارة الجاهل»[1].

إن عبدالله بن الحسن قد أحسن، بتوفيق من الله، تأديب ابنه، فجعل اطمئنانه إلى ثبوت هذا مطية يطلب بها حسن استماعه له.

وأول أمر وضعه بين يدي وصيته أن يكف يده عن أذى الآخرين، وأن لا يجاري البذيء في بذاءته، ولا يماشي السفيه في سفاهته، وأن يرفع نفسه عن كل هذا، ليحفظ لنفسه كرامتها، وليبقى لها منزلتها،

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٣٢.

فلا تخدشها يد منحط، ولا يخرج صفحتها عبث سفيه، لأن البذيء جسمه مثل المنخل قد خرقته نبال المنازلة مع البذيئين من أمثاله، فلا يضره خرق جديد في جلده المعدم من كثرة السهام، ومثله السفيه، فلا يشعر بالإهانة تأتيه لأنها تقع على إهانة، تحتها إهانة، فقد تعود على المواقف المزرية هذه، أما ابن عبدالله فصفحة سمعته ملساء صافية، يتبين على أديمها أي خدش، يؤثر على نفسه، وعلى سمعته مع من حوله، وتعاني عائلته وعشيرته وقبيلته من هذا.

والقول مغرٍ لبعض الناس، ويسبق الفكر عندهم أحياناً، وهذا عيب فاضح، يفضي إلى مزالق اللسان، وكثرة عثراته، وحتى تقوى نفسه، وتكون معه على لسانه، عليه أن يستعين بطول الفكر، وكثرة التأمل، والتعود على التروي والتبصر، وقد نبه إلى أن عدم التمسك بهذا الخلق، يجلب الضرر، لأن القول قد يأتي بضرر بالغ، وفي هذه الحالة حتى لو كان القول صواباً فإن الضرر يكون أبلغ.

ثم التفت إلى أمر مهم، فقال فيه قولاً سديداً، ورأيا منيراً، وهو إن للمشورة أصول وقواعد، إذا لم تراع، اختل ميزان الصواب، وعادت الاستشارة ضرراً على المستشير، فليس كل رجل يصلح للاستشارة، وحدد رجلين حذر من استشارتهما: الجاهل، فإنه ينقصه نور العلم، ومن لم يكن يمشى مشعل العلم أمامه ضل الطريق، فالجاهل لا تأتي منه استشارة مضمونة النتيجة، وخلاف الجاهل العاقل العالم إذا غشيت أنوارهُ ظلمة الغش، وغطت على بدر عقله سحابة الخداع. هذان الرجلان لا يأتي منهما إلا الإركاس في الضرر، نتيجة مكر العاقل، ونقص عقل الجاهل.

ومن ذاق طعم العلم تمسك بنميره، ومن شرب من نبعه زاد نهمه إلى أن يملأ رأسه منه؛ فإذا فكر عالم بوصية ينفع بها أولاده، فإنه لا يجد خيراً من أمر ذاقه فأعجبه، وإناء غرف منه، فحمد ما فيه، ولهذا جاءت نصيحة أحد العلماء لأبنائه هكذا:

«يا بني، تعلموا العلم، وإن لم تنالوا به من الدنيا

حظّاً، فلأن يذم الزمان لكم أحبّ إليّ من أن يذم الزمان بكم». [1]

العلم مفيد، يتعلمه الإنسان لينفع نفسه وغيره، وليس الهدف منه الكسب المادي في الدنيا، فإن جاء الكسب في الدنيا فخير على خير، وإن لم يأت فلأن الناس في ذلك الزمن قد اختلت الموازين عندهم، فلم يرعوا للعالم حقه، فالذم عليهم وعلى زمنهم، والعالم في منجى من الذم، أما إذا لم يتعلم المرء فالاحتجاج للزمن على الناس فيه؛ وهي نصيحة عميقة، تناولت جانباً قل من يتنبه له، وإن تنبه لفائدة العلم لم يتنبه لهذا التحليل الذي أدلى به العالم في نصيحته لابنه.

ومن صفاء ذهن الأعراب تأتي وصية على لسان أحدهم لابنه، وقد جمع فيها ما رأى أن ابنه في حاجة إليه في حياته المقبلة. قال:

«يا بنيّ، اغتنم مسالمة من لا يَدَانِ لك بمحاربته،

(١) أدب الدنيا والدين: ٤٩.

وليكن هربك من السلطان إلى الوحش في الفيافي، وأطراف البلدان، حيث تأمن سعاية الساعي، وطمع الطامع منك؛ ولا تغرنْك بشاشة امرئٍ حتى تعلم ما وراءها، فإن دفائن الناس في صدورهم، وخدعهم في وجوههم؛ ولتكن شكاتك الدهر إلى رب الدهر؛ واعلم أن الله إذا أراد بك خيراً أو شراً أمضاه فيك على ما أحب العباد أو كرهوا؛ وأرح نفسك من التعب بقبول القيل والقال، فإن كلمة السوء حَبَّةُ القلب، كما أن الحنطة حبة الأرض، إذا أصابها الماء نبتت، وكذلك الكلمة السوء، إذا زرعت في صدرك نبتت منها الضغائن والبغضاء والعداوة» . [1]

هذه وصية ثمينة جمعت درراً من المعاني المرشدة، والمرامي الهادية، فقد وجه الأعرابي ابنه إلى مهادنة من لا يقدر على عداوته، ففي هذا النجاة والسلامة، وحذره من السعايات التي عرفت في تلك الأزمان في

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٤٩.

حاشية السلطان، وكيد بعضهم لبعض، وفضل له العيش مع الوحش في الفيافي والقفار عن العيش بين الأشرار، وقد كثر التحذير في الأدب الفارسي من المحيط في بلاط ملوك الفرس، لأنه يبدو أن التنافس بين أفراد الحاشية على أشده، والمكائد حامية، والدسائس قائمة على قدم وساق؛ إذا تقدم أحد ناصبوه العداء، ونصبوا له الحبائل، وحاكوا الدسائس.

وحذر الأعرابي ابنه من أن يغتر بالوجه البشوش فقد يخفي خلفه نفساً شريرة، فهو يُنبهه إلى أن الوجه خداع، فلا يقع في خطأ قبول البسمة التي قد تخفى سماً زعافاً. ودعاه إلى أن يشكو فقط إلى ربه عند العوز، وأكد له أن الله سبحانه هو النافع الضار، لا الخلائق من حوله. ويتفق هذا الأعرابي مع غيره من الموصين الناصحين في التشديد على القيل والقال، وما يأتي من صغير القول من أمور عظيمة، تنوء بحملها الجبال.

وتأتي وصية رجل لأبنائه من منطلق ذكاء، فهو

يعرف النقص في الإنسان، ويعرف أن الإنسان قد لا يستطيع التغلب على بعض العيوب التي قد يبتلى بها، فوصاهم بأمر يغطي مثل هذا البلاء إذا هم ابتلوا به؛ وإدراكه لضعف ابن آدم وعدم التعامي عن هذا الضعف، يدل على ذكاء؛ وقد وجد الدواء لعلة ضعف الإنسان، والطريقة لتغطية هذا النقص إن وجد، فقال هذا الرجل موصياً أبناءه:

«يا بني، عليكم بالنسك، فإنه إذا ابتُلي أحدكم بالبخل، قيل: مقتصد لا يرى الإسراف، وإن ابتلي بالعيّ، قيل: يكره الكلامَ فيما لا يعنيه؛ وإذا ابتلي بالجبن، قيل: لا يقدم على شبهة»[1].

ووصايا الخلفاء تأتي وفي طياتها أمران يقيمان ساريتها، وينصبان خيمتها، الأول، عاطفة الأب على أبنائه، وحرصه على أن يشبوا فيكونوا أحسن الناس، لا ينافسهم منافس، ولا يغلبهم مسابق، والثاني أنهم حكام المستقبل، وعلى أكتافهم تقوم

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٥٢.

دول، ويعيش شعب؛ فالأمانة تقتضي أن ينشؤا تنشئة حسنة، تعدهم لما ينتظرهم من صوارف الزمن، وتقلبات الأيام، لهم ولمن يحكمون، ويظهر الاهتمام بهذا الجانب في توصية عبدالملك بن مروان الآتية لمؤدب بنيه:

«إنه، والله، ما يخفى علّي ما تعلمهم، وتلقيه إليهم، فاحفظ عني ما أوصيك به:

علمهم الصدق، كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، وعلمهم الشعر، يسمحوا، ويمجدوا، وينجدوا، وجنبهم شعر عروة بن الورد، فإنه يحمل على البخل، واطعمهم اللحم يقووا، ويشجعوا، وجُزّ شعورهم تغلظ رقابُهم، وجالس بهم أشراف الناس، وأهل العلم منهم؛ فإنهم أحسن الناس أدباً وهدياً، ومرهم فليستاكوا، وليمصوا الماء مصاً، ولا يعبوه عبّا، ووقّرهم في العلانية، وأدبهم في السر؛ واضربهم على الكذب، كما تضربهم على القرآن؛ فإن الكذب يدعو إلى

الفجور، والفجور يدعو إلى النار، وجنبهم شتم أعراض الرجال؛ فإن الحر لا يجد مِن شتم عرضه عِوَضا، وإذا ولوا أمراً فامنعهم من ضرب الأبشار، فإنه على صاحبه عار باق، ووتر مطلوب؛ واحثثهم على صلة الرحم؛ واعلم أن الأدب أولى بالغلام من النسب» .[1]

في هذه الوصية مواضع تستحق الوقفة والتعليق، إما لدقتها، أو للمسها لجانب نفسي مهم، أو لغرابتها، ونبوها حسب عرفنا اليوم، فمثلاً يستغرب المرء أن يهتم عبدالملك بعروة بن الورد وشعره في البخل، وقد لا يكون أسوأ الحاثين عليه، ولكن لأبيات يعلمها عبدالملك، أو لعل الجملة مقحمة على الوصية لغرض مدخلها، ومما يلفت النظر طلبه أن يطعمهم اللحم، ولا تبدو لنا اليوم أن هذه مهمة المؤدب، إلا إذا كان القصد أن يحثهم على أكله، وتبيان فائدته، والتأكد أن تعاليمه في هذا المجال منفذة. وجزّ

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٥٣.

الشعور قد يكون هذا هو المقبول في تلك الفترة، ولكن السبب هو مسقط العجب، وفي رأينا أن هذا لا دخل له في غلظ الرقاب، إلا إذا كانت ملامسة الشعر للرقاب تجعلها غليظة، وهذا أمر نتركه للأطباء، إن كان علمهم وصل إلى شيء في هذا!

ويطلب موسى من الخضر عليهما السلام عند افتراقهما أن يوصيه، فأوصاه بثلاث وصايا مضيئات بنور الصدق، وبهجة الحقيقة:

«إياك واللجاجة، والمشي في غير حاجة، والضحك من غير عجب». (١)

وهي كلمات جمعت في هذا العقد الثمين، فاللجاجة لا يأتي منها إلا الأذى، تهرب منها السلامة، وتبعد عنها راحة البال، ويشقى الفكر؛ والمشي في غير حاجة ضياع وقت وجهد، والضحك من غير عجب شعبة من شعب الجنون، وما أكثرها.

وكل أمر يتصل بعمر بن الخطاب يتنبه له الذهن،

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٤٦.

وتقبل عليه النفس، ويزيد الأمر زكاءً عندما تأتي وصية له موجهة لابنه، ففيها روح عمر، وسياسته وتفكيره، وما يختلج في نفسه:

«أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقاه كفاه ووقاه، ومن أقرضه جزاه؛ ومن شكره زاده؛ فاجعل التقوى عماد بصرك، ونور قلبك؛ واعلم أنه لا عمل لمن لا نية له، ولا جديد لمن لا خلق له، ولا إيمان لمن لا أمانة له؛ ولا مال لمن لا رفق له، ولا أجر لمن لا حسنة له» [1].

هذه حبال التقوى وجهها عمر وجهتها، إطار وصيته الدين، ولحمتها ولحاؤها الدين، وتقوى الله كما أكد عمر لابنه هي مصدر حماية الله لعبده، وتكفله برعايته؛ والقرض لله له جزاؤه وثوابه، والشكر موعود صاحبه بالزيادة؛ والعمل، نوره الذي يهديه إلى الهدف المقصود، ويوصله إلى الغاية المنشودة، هي النية بضيائها البهج إن كانت حسنة، أو بظلمتها إن

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٤٨.

كانت سيئة، وفي هذه الحالة تؤدي بصاحبها عن طريق عمله إلى الهاوية، ومرابع الضلال.

وأكد عمر أن الثوب الجديد لا طريق إليه إلا بلباس الثوب الخلق البالي، وخائن الأمانة، مختل الإيمان، ومن لا يرفق بالناس، ويحسن إليهم مما أعطاه الله، فكأن لا مال له، وما عنده منه لا نفع فيه، ووجوده مثل عدمه، والأجر طريقه الحسنات، ومن لم يفعله فلا يطمع في أجر.

ومثل عمر بن الخطاب نتصور عمر بن عبدالعزيز، ومثل عمر بن عبدالعزيز نتصور جلساءه، وهذا عمر بن عبدالعزيز يطلب من أحدهم أن يوصيه، ووصايا مثل هؤلاء التقاة تنبه القلوب، وتشحذ الهمم، وتذكر بما قد لا يكون حاضراً في الذهن:

«دخل محمد بن علي بن حسين على عمر بن عبدالعزيز، فقال له عمر: أوصني.

فقال: أوصيك أن تتخذ صغار المسلمين ولدا، وأوسطهم أخا، وأكبرهم أبا؛ فارحم ولدك،

وصل أخاك، وبرّ أباك». [1]

هذه نصيحة مختصرة، ولكنها ثمينة، رسمت صورة جميلة، توجب القبول، وتستدعي الإعجاب، مع بساطة في التعبير، وجاذبية في المعاني، ولعل قصرها، ووفاء الفكرة فيها هما اللذان أعطياها هذا القبول الفائق.

ويبدو أن ما عرف عن عمر بن عبدالعزيز وبحثه عن نصح الخيرين، وطلبه أن يوصوه بما يرون أنه يفتح له أبواب الخير، ويذكره ما قد يكون غافلاً عنه، ويهديه إلى ما كان منصرفا عنه، شجعت كثيرين إلى أن يجلبوا بضاعتهم الخيرة إلى سوقه، وهذا آخر من الأتقياء ينصح عمر بن عبدالعزيز ويوصيه:

«قال محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبدالعزيز:

لا تتخذن وزيراً إلا عالماً، ولا أميناً إلا بالجميل معروفاً، وبالمعروف موصوفاً؛ فإنهم شركاؤك في أمانتك، وأعوانك على أمورك، فإن صلحوا أصلحوا،

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٥٠، الأمالي: ٢/ ٣٠٨.

وإن فسدوا أفسدوا» .[1]

والوصايا في أمور الحروب وافية، وهي تأخذ من ذهن ولي الأمر، أو قائد الجيش حيزاً رحباً، لما يترتب على الأخذ بها من الحيطة، وحسن التدبير، والنصر على الأعداء، بل إن الوصايا عن الجند سبقت ذهابهم للحروب، ومن الوصايا في هذا المجال وصية أحد ملوك الفرس، وكان للفرس جند قائم، وجيش لا يخرج من معركة إلا إلى أخرى، سواء داخل المملكة أو خارجها، وهذه وصية أحدهم لابنه نحو الجند، وما يجب أن يتخذ تجاههم:

«قال أبرويز لابنه سيرويه:

لا توسعن على جندك، فيستغنوا عنك، ولا تضيق عليهم، فيضجوا منك، واعطهم عطاءاً قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً، ووسع عليهم في الرجاء، ولا توسع عليهم في العطاء» .[2]

---

(١) الذهب المسبوك: ١٧٨.

(٢) سراج الملوك: ٣٦٦.

وكأن أبرويز يريد أن يبقي طرف القياد بيده، لا مرخًى ولا مشدوداً في أمر عطاء الجند، وكان هذا من أهم ما يشغل الحكام والقادة؛ وبين لابنه ضرر الإرخاء، وضرر الشد، وبين أن الوسط في الأمر فيه الخير.

وإذا تركنا فارس وبلادها، وجئنا إلى العرب وصحرائها، وما يُوصَى به من عقلائها في حروبها، نجد وصايا كثيرة، كل واحدة تلمس جانباً مهماً في أمر الحرب، ومن هذه الوصايا وصية المختار ليزيد بن أنس حين ولاه الجزيرة، وأمره بقتال عبيدالله بن زياد:

«امض إلى عدوك برأي مستبد، وبحزم غير متكل، ولا تركنن إلى الدولة فربما انقلبت، واستشر من لا يطمع في عملك، ولا يسر بقتلك، واستخر الله تعالى قبل إقدامك توفق». [1]

أوصاه هنا بالحزم في الرأي وعدم التردد، ولكنه حثه على الاستشارة، وأن تكون من ناصح، وحذره من أن يغتر بالنجاح فالزمان قلب، ومثلما دال على

(١) سراج الملوك: ٥٠١.

عدوه فقد يدول عليه. ثم أمره أن يصل حبل نيته بالله سبحانه وتعالى، ففي ذلك النجاح.

وأوصت امرأة ابنها الشجاع وصية ثمينة، التفتت فيها إلى جوانب مهمة في الوصول إلى الظفر، وضمان الأمان في معترك الحرب الخطرة:

«أوصت أم الزيال العبسية ابنها الفتاك، وهو من أشد العرب:

يا بني، لا تنشب في حرب، وإن وثقت بشدتك حتى تستوثق وجه المهرب منها، فإن النفس أقوى شيء إذا وجدت سبيل الحيلة، وأضعف شيء إذا يئست منها. وأحمد الشدة ما كانت الحيلة مدبرة لها، إذا لم يكن النصر من الله تعالى، فابذلها، واختلس من تحارب خلسة الذيب، وطر منه طيران الغراب، فإن الحذر زمام الشجاعة، والتهور عدو الشدة». [1]

إن هذه العبسية الأم تعرف من ابنها اندفاعه في القتال، وشدته في الحملة على أعدائه، ولهذا فهو

---

(١) سراج الملوك: ٥٠١.

ليس في حاجة إلى الحث أو التشجيع، ولكنه في حاجة إلى الحد من اندفاعه، وبيان أوجه الحذر في هذا، والأسباب التي تلمستها لتقنعه برأيها، فهي تحثه على أن يفكر في المخرج قبل المدخل، لأن هذا فيه ميزتان، أنها تجعله أطول مصابرة لاطمئنانه إلى أن هناك ضماناً لسلامته سوف يلجأ إليه عندما يحزبه الأمر، فلا يفكر في الاستسلام مبكراً، يأساً من النصر وخوفاً على حياته، والثانية أن في هذا ضماناً لإبقاء حياته، ودرء الخطر عنها، فلم يعد الأمر عند ضيق المخرج أمر نصر وإنما أمر موت أو حياة. حقاً إنها نصيحة ثمينة، لأنها ركزت على ما تعتقده الأم مأتى الخطر على ابنها المندفع، فهي وسيلة عنان لفرس طموحه واندفاعه.

وتقترب من هذه النصيحة نصيحة أب لابنه، أب جرب الحروب، ورأى من ابنه اندفاعاً رأى أن يلجمه بلجام قوي، يكون طرفه بيده يصرفه كما رسم له، ونصيحته تأتي في هذا النص:

«قال أبو السرايا، (وهو فاتك خرج أيام المأمون،

داعياً باسم أهل البيت، ووقف في وجهه قائد المأمون الحسن بن سهل، وانتهى الأمر بقتله):

يا بني، كن بحيلك أوثق منك بشدتك، وبحذرك أوثق منك بشجاعتك، فإن الحرب حرب التهور، وغنيمة الحذر.

واعلم أن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالاً عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة». [1]

هذه الوصية تقر بفضل الشجاعة، ولكنها تفضل عليها الحيلة عندما تكون الدنيا مقبلة، أما إذا كانت مدبرة، فحسن السياسة، وسبك الحيلة ينقلب على صاحبه وبالاً، والعياذ بالله.

وأكثم بن صيفي من حكماء العرب وقادتهم، له مقامه عند قومه، ويحسب له غيرهم حسابه، أقواله مشهورة مأثورة، وحكمه متداولة، ولا عجب أن يستوصيه قومه، وهم في طريقهم إلى الحرب،

---

(١) سراج الملوك: ٥٠٢.

فيوصيهم، بخلاصة تجربته، وعصارة عقله، وصافي تفكيره، فيقول لهم:

«أقلوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح فشل، ولا جماعة لمن اختلف، وتثبتوا، فإن أحزم الفريقين الركين». [1]

جمل قصيرة محكمة، وكلمات قليلة متقنة، لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة، ولكن فيها ثقل جبل أحد من الفائدة، لقد ركز أكثم بن صيفي على ما يعتقد أنه آفة الجيش المقاتل، وما فيه فشله، ودماره، فحثهم على عدم الاختلاف على قوادهم، لأن هذا مطية الفشل، لأن القائد لم يؤمر إلا ليطاع، فإن لم يطع انهدم أهم ركن في صرح الجيش، وأقوى عمود في خيمته، ولا عبرة بالعدو إذا سيطر الخلاف، وفشت الفرقة، وتبدد الرأي.

هذا ركن متين في وصيته أتبعه بمثله في القوة، وبما لا يقل عنه في الأهمية، واستحقاق الاعتبار،

(١) سراج الملوك: ٥٠٦.

وهو الصياح، ورفع الأصوات، لأنها تقضي على التركيز في الفكر، والتدبر في الأمر، لأنه ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فالأصوات الصاخبة تشد الأعصاب، وأعصاب المحارب مشدودة منذ خطا أول خطوة للحرب، وتشغل ذهن من يسمعها، فكلمة عابرة تصل صوت المحارب، لم يحسب حسابها، قد تصرفه إلى التفكير فيها، وفي نتائجها، مما قد يثبط عزمه، هذا إلى جانب أنها حرمته من التفكير فيما هو مفيد له. ولهذا قدر عتبة بن ربيعة في وقعة بدر، وهو مع جيش المشركين، ما رآه من صمت الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وكأنه أحس مقدار الخطر الرابض بين صفوفهم، فقال لأصحابه:

«ألا ترون أصحاب محمد جثياً على الركب، كأنهم خرس، يتلمظون تلمظ الحيات»[(1)].

يا لها من صورة محارب مخيف، أدرك عتبة بن ربيعة، وهو المحارب المجرب، ما يكمن وراءها،

---

(1) سراج الملوك: ٥٠٦.

وما ينتج منها؛ ولعله قارنها بجيش قريش الملفق من بيوت متنافسة، وما معهم من خدم وحشم، وجمال وخيل، وما كان لهذا من صخب يوحي بالهزيمة.

والحرب مجتمع مضطرب، تدور فيه الإشاعات، وتتضارب الآراء، وتكثر التخرصات، التي تبدأ تكهنات، ثم وهي تدرج بين الناس تصبح حقائق، ويكون لها التأثير الحسن أو السيء على الجند، والقادة، حسب طبعها، واتجاهها، ولهذا نبه أكثم بن صيفي على هذا، وشدد الأمر فيه، وطلب من قومه أن يتثبتوا مما قد يشيع، وما قد يقال، فلا يبنون بناء قوياً على أساس هزيل، غير مؤكد القوة، وغير موثوق الصحة، ورجا أن يكون قومه ممن يتصف بصفة التثبت، حتى يكونوا أحسن الفريقين المتحاربين.

ويوم ذي قار من أيام العرب الخالدة في تاريخهم، وخبره مشهور، وتتناقله الرواة، وتهتم به الكتب، ومن أخباره الوصية التي أوصى بها هانئ بن قبيصة المتحاربين العرب، وكانت كلمة قوية، حمس فيها

قومه على القتال، والاستماتة ضد العدو؛ وكانت الشجاعة مطلوبة في هذه الحرب، والتهور هدف في هذه الموقعة، ولهذا ركزها هانئ على هذا الأمر:

«يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور؛ إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر؛ المنية ولا الدنيّة؛ استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثُغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا، فما للمنايا من بد».[1]

ورسوله الله ﷺ كان خير من يعطي الوصايا لأصحابه في سراياهم، فكان فيها النصح الخالص، والإرشاد المضيء، فيها الحرص على نجاح مهمتهم، والضمان لسلامتهم؛ وفيها مراعاة الخلق، وضياء الدين، فلا يذهلون في حميا المعارك عما يجب ألا يغيب عن الذهن، وقت انشغال الذهن، وراحته.

ومن هذه الوصايا وصيته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في سرية نخله (وادي بستان ابن عامر) لعبدالله بن

(١) الأمالي: ١/ ١٦٩.

جحش، وقد واعده رسول ﷺ أن يوافيه مع الصبح، ولم يبيّن له الغرض الذي أراده له، ولكنه قال:

«واف مع الصبح، معك سلاحك، أبعثك وجها».[1]

وهنا حرص - صلوات الله عليه - أن يبين بعض الأمر لأهمية تبيانه، وهو ما يوجب على عبدالله بن جحش أن يستعد لغزوة مقبلة، ولكنه لا يدري أين، وإلى من هو موجه. وقد واعد رسول الله ﷺ بعض من سيصحب عبدالله بن جحش في مسيره.

وقد أمّره رسول الله ﷺ على السرية، وكتب معه كتاباً، وكان عبارة عن صحيفة من أديم خولاني، وقال له:

«قد استعملتك على هؤلاء النفر، فامض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي، ثم امض لما فيه.

قال عبدالله: ثم قلت: يا رسول الله، أي ناحية؟

فقال: اسلك النجدية، تؤمّ ركيّة.

ثم لما سار عبدالله، ووصل بئر ابن ضميره، نشر

(١) المغازي للواقدي: ١/ ١٣.

الكتاب، فقرأه، فإذا فيه:

سر حتى تأتي نخلة على اسم الله وبركاته، ولا تكرهنّ أحداً من أصحابك على المسير معك؛ وامض لأمري فيمن تبعك، حتى تأتي بطن نخلة، فترصَّد بها عير قريش». [1]

هذه إحدى الخطوط العريضة التي تحكم وصاياه في أمر السرايا، وتتركز على السريّة، وعلى جعل الخيَار في يد من اختيروا للغزو، ولأجل السرّية، وأهميتها، أخر ـ عليه الصلاة والسلام ـ تخييرهم، وأخذ موافقتهم على ما هم مقدمون عليه، وترك هذا لمرحلة آتية، يضمن فيها الأمان من تسرب الخبر، ومفاجأة العير التي كانت الهدف، وقد تحقق الهدف لدقة الخطة، وحسن كتم خبر مفاجأة القافلة.

ووصاياه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تترى لمن يرسله على سراياه، يوجهه الوجهة التي تأتيه بالفلاح، وفي سرية أخرى، يزيد في التوصية ما يوصل إلى

(١) المغازي للواقدي: ١/ ١٣.

النصر، وقد أوصى بشيء من هذا أبا قتادة عندما أرسله على رأس سرية خَضِرَة، فقال له:

«سيروا الليل، واكمنوا النهار، وشنوا الغارة، ولا تقتلوا النساء والصبيان».[1]

وقد أصبحت هذه الوصية مبدءاً ثابتاً، يسير عليه المسلمون ويراعونه، ولا يحيدون عنه في غزواتهم.

ووصيته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لأسامة بن زيد في غزوة مؤتة في سنة إحدى عشرة، معروفة مشهورة، وقد حدد رسول الله ﷺ لأسامة حدوداً، وأمره ألا يتعداها، وأرشده إلى ما عليه أن يعمل، ووصيته له هي:

«يا أسامة، سر على اسم الله وبركته، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هذا الجيش، فأغِر صباحاً على أهل أُبْنَى، وحرِّق عليهم، وأَسْرِع السير، تسبق الخبر، فإن أظفرك الله فاقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاّء، وقدم العيون أمامك والطلائع.

(١) المغازي للواقدي: ٢/ ٧٧٨.

ثم قال له بعد أن عقد له اللواء :

يا أسامة اغزُ بسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا تمنوا لقاء العدو ، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ؛ ولكن قولوا : اللهم اكفناهم ، واكفف بأسهم عنا ، فإن لقوكم قد أجلبوا وصيحوا فعليكم بالسكينة والصمت ؛ ولا تنازعوا ، ولا تفشلوا ، فتذهب ريحكم ؛ وقولوا : اللهم نحن عبادك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تغلبهم أنت ، واعلموا أن الجنة تحت البارقة» .[1]

وكانت هذه آخر وصية حرب وَصَّى بها ، وأخذها المسلمون نصاً يوصون بها من يبعثونه للحرب ، ومن يوجهونه لقتال غير المسلمين .

ثم جاء أبو بكر خليفة لرسول الله ﷺ وكان له وصية قيمة ، أزجاها لأسامة ، فصل فيها نظرته إلى ما يجب أن يكون عليه جند المسلمين في غزوهم ،

---

(١) المغازي للواقدي : ٣/ ١١١٨ .

فقال لأسامة وجيشه:

«لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تقعروا نخلاً وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله». (١)

وفيها من التفصيل ما يدل على عناية ورعاية لهذا الجيش، ولما يجب أن يكون عليه المسلم من الخلق في وقت الشدة مثلما هو في وقت الرخاء. وإن أبا بكر ليعرف الطريق إلى الشام وما فيه من عباد ومترهبين،

(١) الكامل لابن الأثير: ٢/ ٢٢٦.

وأن لهم مقاماً يستوجب معاملتهم بالحسنى .

وبقيت الوصايا من الخلفاء إلى الجند وقوادهم تأتي محكمة متقنة، نتيجة عصارة تجربة، وإطارها الإسلام، ولحمتها التمسك بالخلق الحسن، وفيها رسم لطريق النصر، وسلامة المقاتلين، واستمر هذا حتى انتشرت جيوش المسلمين على الثغور، وصار للحرب قواعد وأصول، ولكن بقي مح الوصايا على ما هو عليه، ولعل مما يوافق المقام أن نختم هذا المقال الذي طال، بوصية لأحد قواد المسلمين في زمن العباسيين، فيها لمحات ذكية، ومعان زكية :

أوصى صالح بن علي بن عبدالله بن عباس، أمير سريّة أتت، فقال :

تاجر الله بعباده، فكن كالمضارب الكيّس، الذي إن وجد ربحاً تجر، وإلا احتفظ برأس المال ؛ لا تطلب الغنيمة، حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك، أشد حذراً من احتيال عدوك عليك . [1]

---

(١) بهجة المجالس : ٣/ ٢٥١ .

# صدر المجلس[1]

صدر المجلس هو وجه المجلس، يوضع فيه من يراد تكريمه، ويوفر لمن يراد تقديره، ويقدم فيه من يراد إبرازه، في البيت يجلس في الصدر رب البيت، وفي القبيلة يوفر لشيخها، وفي مجلس الناس يبقى صدر المجلس للأمير أو الحاكم أو الرئيس، وفي مجلس الملك يجلس الملك في الصدر.

فصدر المجلس هو أبرز ما فيه، وهو مكان التكريم، وإليه تتطلع العيون، يعرف الداخل حق الجالس في صدر المجلس، فقد يكتفي بالسلام عليه بالقول والإشارة، لا تخطئه العين، ولا يتعداه الاحترام، ولا يقصر دونه التقدير؛ إليه يوجه القول، وإليه تلتفت الوجوه، وإليه تنظر العيون، إن تكلم من فيه سكت الجمع إن كان له حضارة، وإن خوطب أنصت الكل؛ وإن تكلم متكلم نظر القوم في وجه

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦١٩) في ١٤/ ٤/ ١٤١٦هـ الموافق: ٩/ ٩/ ١٩٩٥م.

الجالس في الصدر، يرصدون وجهه، ليستبينوا منه الرضى أو السخط، فهو مقياس تقدير الأقوال، وهو ميزان الحديث، يتحرك المجلس في ضوء ما يتبين منه؛ فإن وافق ما قيل الحقَّ والقبولَ من الصدر، جرى الحديث رهواً في المجرى نفسه، وإن لم يقبل القول بدأ نقضه من القوم الحاضرين، ليعلو وجه رب البيت، أو شيخ الخيمة، أو أمير المجلس، الرضى والسرور.

وللصدر حقوق، وعليه حقوق، وقد تكون الحقوق التي عليه ثقيلة، خاصة إذا كان هناك أحكام تصدر بين متنازعين، أو مغارم تستوجب الدفع بين متخاصمين. وللصدر على هذا همومه، وبقدر ما يكبر المجلس، يثقل الحمل، ويعظم الهم؛ ولصدر المجلس أصول وعادات، تتبلور في كل مجتمع حسب قربه من الحضارة أو بعده، وحسب نشوئه، وبعد تاريخ ذلك.

ولتشعب أمور المجالس فإنها تستحق دراسة قائمة بذاتها، تبين بدء بعضها، وما وصل إليه بعد ذلك

من تنظيم وتطوير، وكيف وصل الأمر في بعض المجالس إلى التعقيد، حتى أصبح لكل إنسان مكانه، لا يتعداه، ولا يقصر دونه، وفي بعضها يوضع للجالس في الصدر مكان مرتفع، وأحياناً وراء سجاف، وأحياناً لا يخاطب الجالس في الصدر إلا عن طريق واسطة ينقل الحديث إلى الصدر، ويعود به منه.

وتبلور الأمر في بعض المجتمعات، فلم يعد مقبولاً أن يقوم من في الصدر عندما يحين القيام، وإنما يختار كلمة، أو إشارة، يراها القوم، أو يسمعونها، فينهضون على إثرها، وينفض السامر بها، وقد ورد في التراث إشارة إلى مثل هذا، في بعض مجالس الملوك أو الخلفاء أو الأمراء، وهذا أحدها:

«كان لكل ملك أمارة يستدل بها أصحابه، إذا أرادوا أن يقوموا عنه؛ فكان أردشير إذا تمطّى قام سمّاره، وكان كيشاسف يدلك عينيه؛ وسابور يقول: حسبك يا إنسان؛ وأبرويز يمدّ رجليه؛ وقباذ يرفع رأسه إلى السماء؛ وأنوشروان يقول: قرَّت عينكم.

وكان عمر يقول: قامت الصلاة، وعثمان بن عفان يقول: العزة لله؛ ومعاوية يقول: ذهب الليل؛ وعبدالملك يقول: إذا شئتم، والوليد يلقي المخصرة، والرشيد يقول: سبحان الله؛ والواثق يمسّ عارضيه». [(١)]

ولبعض المجالس حجاب، وأناس يجلسون الناس مجالسهم، يصنفونهم حسب مقامهم، فكلما ارتفع مقام الداخل صار مجلسه أقرب إلى الصدر، وتبلور الأمر مع المدنيّة الحديثة، فصار للجالس إلى يمين الصدر مقام، وللجالس إلى يساره مقام، بل إن بعض المجالس أوجبت أن توضع أسماء يجلس الناس بحسبها، يهديهم إليها أناس حُدِّدوا لذلك. خاصة في الجلوس على موائد الطعام.

وهذه القواعد تبلورت مع الوقت، وتطورت مع مرور الزمن وكان خلف تطورها الملوك والحجاب، فكان الحجاب ينفذون، وفي ضوء ما يتبين لهم يحسنون، ويعدلون، وعيون الملوك لا تغفل، وعيون

(١) محاضرات الأدباء: ٨٣. انظر أيضاً «سرح العيون: ٦٠»، ففيه ما في هذا النص من محتوى، وانظر أيضاً: «إطلالة على التراث» ١/ ٣٣١.

الأمراء يقظة ترقب، ولا تغمض، يلاحظون كل هفوة، ويتنبهون لكل خطأ، وينبهون إلى إصلاحه، ومعروفة قصة معاوية ـ رضي الله عنه ـ مع اثنين من الداخلين عليه، أحدهما الأحنف بن قيس، وهو من هو في مقامه، ورئاسته لفئة كبرى من بني تميم؛ ومحمد ابن الأشعث، ومقامه لا يصل إلى مقام الأحنف، وكانا يوماً على الباب، وأخبر معاوية بذلك، فسمح أولاً للأحنف ثم بعد فترة وجيزة سمح لابن الأشعث؛ ولكن ابن الأشعث، عندما دخل، أسرع في مشيته، ليسبق الأحنف في مجلسه، فأنَّبه معاوية تأنيباً شديداً، وانتقده انتقاداً لاذعاً، وجاء في قوله له:

«ما رأيت أحداً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلة يجدها، وقد فعلت فعل من أحس من نفسه ذلة وضعة». [1]

وكان من جملة ما قاله له أنه مثلما وكل إليه حكم الناس وكل إليه تأديبهم، واعتبر معاوية أن ما فعله

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٧١.

من باب الأدب، والتقويم.

وفي المجتمعات العربية الأصيلة، يراعى في المجالس، والقرب من الصدر السن، فهو المحور الذي تقوم عليه قاعدة الجلوس، ورغم أن القول السائد: «اجلس حيث انتهى بك المجلس»، إلا أنهم يراعون ذا السن إذا جاء متأخراً، فيفسحون له مكاناً بينهم، يتناسب مع سنه، وقد يضطر أحدهم لترك مكانه، ليحل محله فيه الداخل المتأخر، ويعتبر هذا من باب الإكرام المتناهي، وحسن الأدب، والتصرف الممتدح.

وما بقي من هذه العادات اليوم في البادية، أو في الأرياف، في البلدان العربية، يستحق الدراسة، وسيتبين من الاختلاف بين العادات السائدة اليوم ما قامت عليه من أصول في الأساس، والأسباب التي تكمن وراء ما أصبح منها على ما هو عليه اليوم. وهي دراسة ليست سهلة، لإنها سوف تحتم الضرب في عمق التاريخ لهذه البلدان، وما مر عليها من

مؤثرات، فُرضت عليها، أو اختارتها، أو تأثرت بها تدريجاً، دون أن تعلم.

وفي التراث كثير من النصوص التي تدل على بعض ما مر على الناس من مواقف عن صدر المجلس، وأهميته، والنظرة إليه، وما تبع الخروج عن العادة فيه من حجج وتبرير. ومن بين النصوص النص التالي؛ وهو عن القاضي ابن شبرمة، وابن أبي ليلى، ويبدو أن أحدهما يأتي أحيانا متأخراً، فيضطر إلى الجلوس حيث انتهى به المجلس، فيبدو للناس أنه قعد في مكان دون منزلته، فيأتي تعليقه مطمئناً لهم، وواضعاً الأمر في نصابه، ومعطياً وجهة نظر تحل الإشكال، وتقضي على الوهم، أو الشك:

«قال ابن عيينة:

جلست إلى ابن شبرمة، أيام ولي أبو العباس الخلافة، فخرج ابن أبي ليلى من عند أبي العباس، وقد تحلقنا مع ابن شبرمة؛ وكان يعارضه، فجلس ابن أبي ليلى في مجلس لم يكن له بمجلس، وابن شبرمة

في صدر المجلس، فقال: أنا صدر المجلس حيثما كنت» .[1]

هذا مبرر لبق لجأ إليه مضطراً، للموقف الذي وجد نفسه فيه، أمام قاض آخر مزاحم، يشعر أن من حقه ألا يقل مقامه عن مقام القاضي الآخر.

وهناك نص آخر عن هذا الأمر، بطله أيضاً ابن شبرمة، وقد يكون الموقف هو الموقف، والحادثة هي الحادثة، وقد لا تكون، وإنما هو أسلوب متعارف عليه في التأخير في المجيء، ومعالجة ما نتج عنه بالتبرير الذي يقدمه:

«قيل لابن شبرمة:
ارتفع إلى الصدر.
قال: حيث قعدت فأنا صدر» .[2]

تُرى هل هذا القول تسرب إلى بسمارك، المستشار الأوروبي المشهور، المعروف بالذكاء، والحنكة

---

(١) تاريخ القضاة: ٣/ ١٣٢ .
(٢) تاريخ القضاة: ٣/ ١١٩ .

السياسية، والذي أصبح له من الصيت والسمعة ما جعله محط سخط الحاسدين والمنافسين، فاستفاد من هذا القول رداً على ملك ألمانيا، عندما تقصّد إهانته، فلم يضع له مكاناً على المائدة الرئيسة، في إحدى الحفلات، وأجلس بسمارك على إحدى الموائد الثانوية، وتعمد الملك إهانته، فمر به خارجاً، وأبدى اعتذاره أنه لم يتمكن من إيجاد مكان له على المائدة الرئيسة؛ فرد بسمارك على الفور، بقوله: إن المائدة الرئيسة حيث يكون بسمارك، يا صاحب الجلالة!

إن من قد شبعوا مجداً، وامتلؤا شرفاً، لا يهمهم أين يجلسون، وكثيراً ما انجذب المجلس إليهم، فأصبح مكانهم هو المركز، ومنه ينطلق الحديث، وتدور دائرته؛ والبرامكة وصلوا إلى درجة متناهية من التقدم في بلاط الخليفة الرشيد، وقد شبعوا من المجد وامتلؤا بالشرف؛ فلا عجب أن يتصرف أحدهم التصرف الآتي، تجاه صدر المجلس، ويظهر عدم أهميته له، ويأتي حيال ذلك بفكرة تجعل الأمر

منطقاً مقبولاً :

«كان جعفر البرمكي لا يجلس إلا في طرف إيوانه، فقيل لأخيه في ذلك. فقال:

الأشراف في الأطراف، يتناولون ما يريدون بالقدرة، وينالهم من يريدهم بالحاجة» .[1]

بهذا القول الموزون، والبلاغة والفصاحة، قلب الأمر، فجعل للجلوس في طرف المجلس ميزة، تأتي بالفوائد المختلفة، وللجالس نفسه في حصوله على ما يريد بسهولة متناهية، وللآخرين في الوصول إليه، وعرض حاجاتهم.

ويأتي جانب آخر في هذا السبيل، وهو وجوب جلوس المرء في المكان اللائق، ولا يتعداه إلى مكان غيره، فيأتي من يقيمه، ليقعد من هو أحق منه، وهي حركة قد ينظر إليها أنها إهانة كان بالإمكان تفاديها بأبخس مؤونة، وأقل ثمن، وقد جاء قول حكيم في

---

(١) تحفة الكتاب: ١٤١. انظر أيضاً: محاضرات الأدباء: ٢٣١، والبيان والتبيين: ٢/ ٢٠٠.

هذا كالآتي:

«كان يقال: تقدم أمامك خير من أن يقال تأخر من ورائك؛ ويقال: إجلس حيث يؤخذ بيدك وَتُبَرُّ لا حيث يُؤْخذ برجلك وتجر». [1]

والقول هذا يعطي حدود الحذر، التي يجب ألا تُتخطى، ويحسّن الحيطة بالجلوس في الأماكن الأدنى، وهذا أقرب إلى أن يُقَدَّم الإنسان، ويكرم بهذا؛ وهو بلا شك أفضل من التأخير والإهانة، وهو ما أشار إليه بالجر.

وفي النص التالي لمحة لتقدير من طرفين في مجلس، صاحب المجلس والضيف الداخل عليه، وفيه إظهار لِعاطفةٍ نبيلة، فيها تقدير متبادل بين الاثنين، والنص كالآتي:

«دخل على أبي ثوابة صديق له، ومجلسه غاص بأهله، فقال ابن ثوابة:

ما زادك بعدك عني إلا قرباً من قلبي.

---

(١) آداب الملوك: ٢٣٢.

فقعد بعيداً» .[1]

وكان من في الصفوف الأولى من المجتمع حريصين على توجيه المجتمع في هذا الأمر إلى ما يقتضيه الخلق الحسن، وهذا النص إضاءة من تلك الإضاءات :

«قال عبدالله بن مسعود :

إن من التواضع الرِّضى بالدون من شرف المجلس، وأن تسلّم على من لقيت» .[2]

دعوة عبدالله بن مسعود دعوة نبيلة، تطلب من الناس ألا يهتموا بالقشور، فيتركوا اللب، لأن مثل هذا العمل يجعلهم ناقصي الخدمة لمجتمعهم، وتقل فائدتهم له، وهذه الروح إذا سادت أركست المجتمع؛ وعبدالله بن مسعود يريد لهذا المجتمع أن يكون سعيداً، ولا يتم هذا له إلا إذا انصرف إلى ما هداه الله إليه من الجد، وعدم الالتفات إلى ما لا يستحق الالتفات، وهذه الصفة التي دلهم عليها، وحضهم

---

(١) لطائف اللطف : ٦٦ .

(٢) بهجة المجالس : ٢/ ٤٢٦ .

عليها هي الطريق إلى التواضع، وهو طريق منير؛ وأراد ابن مسعود أن يزيد النور نوراً فدعا إلى استجلاب القبول بالسلام، على كل من يلقاه المرء.

ـ[1] ويأتي ضمناً الحث على المبادرة بإلقاء التحية، وهذا فيه سبق للفضيلة، واستجلاب للقلوب، ولا يأتي من هذا الطريق إلا الخير العميم، والمنفعة المتناهية؛ وإلقاء السلام فيه تأثير السحر على الناس، ولهذا جاء على لسان أحد الحكماء، المجربين، أن مما يجلب القلوب ثلاثة أمور:

الأول: بدؤك أخيك بالسلام، وهو ما كنا بصدده، ويكفي أنك تلقى أخاك بوجه طلق، وابتسامة جاذبة، لأن اعتقادك في هذا يجعل داخلك يوحي لخارجك بهذه الروح الأخوية.

والأمر الثاني: أن تفسح له في المجلس، وهذا فيه غزو طاغ للقلوب، ودخول إلى سويدائها، لأنه منة كبرى أخرجت بها أخاك من دهشة الدخول على

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

مجلس قد اصطكت أركانه بالناس، فزاغت عينه بين العدد المرصوص، وهو يبحث عن ثغرة، أو يَختار واحدة من عدة ثغرات.

والأمر الثالث: أن تناديه بأحب الأسماء إليه، بعداً منك عن أن تقع في محذور الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [1].

بل تختار ما يشنف سمعه، ويسر فؤاده من الأسماء المحببة إلى نفسه؛ والكُنَى مما يختار في هذا المجال، ولهذا حرص العارفون بجاذبيتها أن ينادوا بها؛ فأنت تكرم المرء بأن تناديه بأبي فلان، والمرأة تدعوها بأم فلان أو فلانة.

هذه لبنات صالحة في بناء صرح المجتمع القوي وفرق كبير بين أن يتواضع المرء، ويجلس في مكان دون مقامه، فيشار إلى تواضعه بالبنان، وإنسان يجلس فوق مكان مقامه، فيجر من رجله، ويهان بهذا، ويرمى به في الخارج، ولهذا سارع الشعبي يبدي

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.

رأيه في هذا الأمر فقال :

«لأن أدعى من بعيد أحب إليّ من أن أدفع من قريب» .[1]

ولأن الإهانة مرعبة لمن يحترم نفسه، ويحرص أن يضعها موضعها، ويتأكد من رفع مقدارها في أعين الناس، فيجعل الحكم لهم عليها، ويبخس بهذا نفسه حقها، ويجعل غيره يرد لها اعتبارها . والذين يلاحظون هذا، ويهتمون به، ويقلبون الأمر فيه على وجوهه، هم علية القوم، وهم الذين تهمهم سمعتهم، فيبعدونها عن ما يشينها، ولا يخطر في بالهم أن يأتوا بما يوصل أنفسهم إلى درجة الطرد، وجر الإنسان من قدميه، ولكنهم يبعدونها عن مجرد أن ينظر الناس إليهم شزراً، منتقدين فعلهم، فينظر بعضهم إلى بعض، ويغمز بعضهم بعضاً؛ إن نظرة الانتقاد عندهم قذيفة مدفع، وإن الغمز قذيفة صاروخ، كلها تصيب القلب، وتجلجل الكيان .

(١) محاضرات الأدباء : ٢٣٣ ، والبيان والتبيين : ٢/ ٢٠٠ .

وهذا الأحنف، وهو من علية القوم، ومن مقدمي رؤساء العشائر، ذات المقام الخطير في عين الخلفاء والناس، يقول في هذا المقام قولاً، يدل على عقل، ويدل على أنه يحسب لمثل هذه الأمور حسابها، ويعطيها حقها من تفكيره وتبصره، نتيجة تجربة هداه إليها العقل، ومعاناة فحصها التأني والمتابعة:

«ما جلست مجلساً خفت أن أقام منه لغيري» .[1]

وزياد من الرجال الذين لمع اسمهم في التاريخ، وتركوا فيه دوياً، وساموا أمور الناس زمنا، وعركوا الحياة بإلحاف، وعرفوا ما يجب أن يكون عليه التصرف فيها، في المواقف المختلفة، وكان يدخل على الخلفاء، وله مجلس يدخل إليه فيه الناس، فعرف في هذا الأمر جانبيه، عرف حاله جالساً، ومجلوساً عنده، وشعر بشعور الرجلين، فكان له ميزة لم تتح إلا لقليلين أمثاله، ولهذا يتطلع أن تكون كلمته في هذا المجال حكمة بالغة، وقد كانت، وجاءت في الصميم مثل

(١) محاضرات الأدباء: ٢٣٢، وبهجة المجالس: ٤٧ .

بعض سابقاتها، يسبقها ضياؤها ويحيط بها نورها، وهي كما يأتي:

«قال زياد:

إنه ليعجبني من الرجال من إذا أتى المجلس أن يعرف أين يكون مجلسه، وإني لآتي المجلس، فأدع ما لي مخافة أن أدفع عما ليس لي». [1]

وأمر المجلس والجلوس فيه، وتحديد مكان جلوس من ينضم إلى السامر، يهم أهل المجلس؛ والمفكرون يولونه عناية فائقة، ليكمل ما يتصل به من أدب المجلس والمجالسة؛ ومن الأمور المكملة الموقف التالي للأحنف بن قيس، وهو من رَأَيْنَا مشاركته في هذا الأمر، وما جاء به من حكمة:

«كان الأحنف إذا أتاه رجل أوسع له، فإن لم يكن له سعة أراه كأنه يوسع له». [2]

هنا حاول الأحنف أن يأتي بأقصى ما يستطيع

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤٨.

(٢) بهجة المجالس: ١/ ٤٨.

الإتيان به من الاعتناء، والالتفات، وهذا التصرف منه علامة واضحة على النية في داخل صدر الأحنف لاحترام الداخل، وتقدير الأحنف له، وهذا أمر تأثيره غير قليل على الإنسان الذي في صدره أرض خصبة لقبول المعروف، والاعتراف بفضل صاحبه.

والإسلام أدخل على أدب المجلس إضافة متعددة الجوانب، أنارت محيطه، وأضاءت جوانبه، وبعض ما قيل جاء مما تبلور في ذهن المسلم نتيجة ما خزن فيه من روح الإسلام، وتعاليمه، والقول الآتي صورة من هذا:

«قال إبراهيم النخعي:

إن الرجل ليجلس إلى القوم، فيتكلم بالكلام، يريد الله به، فتصيبه الرحمة فتعم من حوله؛ وإن الرجل يجلس مع القوم فيتكلم بالكلام يسخط الله به، فتصيبه السخطة، فتعم من حوله». [1]

هنا يأتي التوجيه بالخلق الإسلامي، وما يجب في

(١) بهجة المجالس: ١/ ٥٠.

ضوئه من البعد عن الغيبة والنميمة، والشذب في سمعة الناس، وبالاقتصار فيما يقال في هذه المجالس على ما يرضي الله، وهو ما يراد به وجه الله، وحينئذ يقبل الله القول والفعل، ويوفق صاحبه، وخلاف ذلك عصيان لله في تعاليم دينه، وبعد عن ظل رحمته، إلى ما يمتع ويسلي، مما يمليه الشيطان، مما يقلب المجالس إلى ما يجعلها مجالس ضرر، لا نفع أو استفادة.

وللرسول ﷺ إرشاد واضح، وتوجيه صريح، عن أدب المجلس، وما يجب أن يكون عليه، يري فعلاً ما يجب أن تكون عليه حال المسلم في أي مجلس يدخله، وفي أي مجتمع يشارك فيه:

«في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

ما جلس قوم مجلساً يقرؤون فيه القرآن، ويذكرون السنن، ويتعلمون العلم، ويتدارسونه بينهم، إلا حفت بهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، فقيل له:

يا رسول الله، الرجل يجلس إليهم، وليس منهم، ولا شأنه شأنهم، أتأخذه الرحمة معهم؟

قال: نعم، هم القوم لا يشقى جليسهم» .[1]

وفي حديث آخر يوضح جوانب تؤكد ما سبق أن قيل عن القول السديد، والقول غير السديد:

«كان رسول الله ﷺ يوماً في مجلسه، فرفع رأسه إلى السماء، ثم طأطأه، ثم رفعه، فسئل عن ذلك، فقال:

هؤلاء قوم كانوا يذكرون الله، فنزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة كالقبة؛ فلما دنت منهم تكلم رجل منهم بباطل، فرفعت عنهم، ثم تلا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾» .[2]

وما سقناه قبل قليل، عن الأحنف، وأنه إذا لم يكن بقربه متسع، فإنه يتحرك من مكانه، يُري أنه يحاول أن يوجد للداخل مكاناً، وهي حركة مقدرة؛

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٥٠ .

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٧ . بهجة المجالس: ١/ ٥٠ .

وقبل ما يقرب من أكثر من سبعين عاماً، دخل ضيف كبير[1] مجلس حاكم من الحكام، البارزين في تلك الفترة، وكان مجلسه عادة يضم كبار القوم، من مواطنيه، ومن ضيوفه، ومن الوافدين، ولم يكن للضيف الداخل مكان، ولم يُبدِ أحد في المجلس ما يدل على أنه سيترك مكانه له، ولا أدري، إن كان الحاكم نفسه، أراد له هذه الحيرة، وأعجبه هذا الموقف، أو أن الحاكم أُحرج أن يقيم أحداً من مكانه؛ وفي مثل البرق الخاطف، وببديهة مواتية، وحركة سريعة، وقف شاب في مقتبل العمر[2]، أملت مكانته، ومركز عائلته، أن يكون مجلسه قرب الحاكم، إن لم يكن بجانبه، وخلى مكانه، ونادى الضيف الداخل أن اقدم يا أبا فلان، وخذ مكاني؛ وتقدم نحوه يسلم عليه، وعندما تقابلا في وسط المجلس، هذا داخل، وهذا خارج، قال الضيف، بصوت مسموع: «الله لا يقطع شجرة أنت من ذرها».

(١) الداخل هو راكان بن حِثْلِين، والمجلس مجلس الشيخ مبارك الصباح.
(٢) هو الأمير (الملك) عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود.

في هذه اللحظة رأى الحاكم، صاحب المجلس، أن الأمر يستوجب ألا يخرج الشاب، حاكم المستقبل في بلده، ولابد أن يوسع له في المجلس، ويقرب. وبهذا لم يفقد الشاب مقعده قرب الحاكم، وطوق عنق الضيف، شيخ القبيلة المهمة، بمعروف لا ينساه، في ظل تقاليد المنطقة وسكانها، وفي ظل الخلق العربي، الذي رأينا الأحنف يتمسك بأقل مظهر من مظاهره، إذ فاته أن يفعل فعل الشاب النبيل، في هذا المجلس الخطير.

والتراث مليء بهذه الأفعال النبيلة، من معروف صغير، يتلوه رد كبير، ونية حسنة يعقبها عمل جليل، وضياء خافت، يعشيه إشعاع ثاقب، والقصة التالية مثال خارق لتصوير موقف من هذا النوع، ولعظم الجزاء الذي جاء رداً على معروف ضئيل، فإنّ القارئ لهذا الخبر يكاد يشك في بعض ما ورد به، لعظمه، ولأن من يُنفق هذه النفقة المغرقة، يحتاج إلى أضعافها مئات المرات، حتى يتناسب الإعطاء مع باقي الثروة، والقصة كمايلي:

«حدث إسحاق بن إبراهيم القرشي، قال: سمعت أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنى يقول:

ماتت لعبيد بن معمر بنت، فقعد في المأتم في مسجد، في سكة سبانوش، فجاء عبيدالله بن أبي بكْرَةَ معزّيا، وإذا الأشراف قد أخذوا مواضعهم؛ فنظر إليه رجل قد كان سبق إلى مجلسه مع الأشراف، قد عرفه، فقام قائماً، وجعل يقول له:

«هٰهنا».

حتى أخذ بيده، فأقعده في مجلسه؛ ثم ذهب، فقعد في أخريات الناس. فأمر عبيدالله غلاماً كان معه أن يتعاهده إلى قيامه؛ فلما قام دعا الرجل، فقال:

أتعرفني؟

قال: نعم.

قال: من أنا؟

قال: أنت عبيدالله بن أبي بكرة، صاحب رسول الله ﷺ.

قال: فما حملك على تركك مجلسك لي؟

قال: إجلالاً لولد أصحاب رسول الله ﷺ، وما أوجب الله على أمثالي، خصوصاً من التبجيل.

فقال له عبيدالله: هل لك على أن تصحبنا إلى ضيعة نريد أن نصير إليها؟

قال: نعم.

قال: فصحبه الرجل إلى تلك الضيعة، في نهر مكحول، ضيعة فيها ثلاث مئة جريب نخل؛ وعلى وجه الضيعة قَصْر بُنِي بآجرّ، وجص، وخشب ساج.

فلما دخل الضيعة أخذ عبيدالله بيد الرجل، وجعل يدور به في تلك النخيل.

فقال للرجل: كيف ترى هذه الضيعة؟

قال تاالله! ما رأيت نخيلاً أحسن منها، ولا أكثر ثمرة، ولا أسرى ضيعة منها.

قال: قد جعلناها لك، بما فيها من الخدم، والآلة، نبعث إليك بصكها.

قال: فاستطار الرجل فرحاً وبكاءًا.

وقال: أنعشتني، وأنعشت عيالي.

فقال عبيدالله : وكم لك من العيال؟

قال : ثلاثة عشر نفساً .

قال : فإني قد جعلت اسم عيالك في اسم عيالي، أنفق عليهم ما عشت .

فقال له عبيد الله : من تكون له مثل هذه الضيعة، يحتاج أن يكون منزله في سرة البصرة، إذا صرنا إلى منزلنا، فاغد علينا، نأمر لك بشراء دار تشبه هذه الضيعة، ورأس مال، وخدم، تصلح لدارك، تعيش بها، إن شاء الله .

قال : فغدا الرجل عليه، فأمر له بشراء دار بخمسة آلاف دينار، وأعطاه عشرة آلاف دينار، ودفع إليه صك الضيعة، وأمر له بدابة، وبغل، وسائس، وكسوة، وصرفه» . [1]

هذا الفعل الجميل، وهذا العطاء الكريم، من نفس سخية، وروح رضية، نفس هي روض خصب، وضعت فيه بذرة، قوامها حسن التقدير، واحترام

---

(١) روضة العقلاء : ٢٧٨ .

من هو أهل للاحترام؛ وتواضع جم، جعل صاحبه يترك مكانه مع الأشراف، لمن رأى أنه يليق به. هذه النظرة النبيلة، التي هدت صاحبها إلى الرشد، في حسن التصرف، ونكران الذات، وتكريم الآخرين، لم تأت إلا من نفس ملأ النور جوانبها، وروح أشرقت بالخلق الحسن، والأصل الكريم.

لابد أن صاحب هذه النفس، وصاحب هذا التصرف الحسن، قد رضي على نفسه، رِضًى لا مزيد عليه، بعد أن رأى إغداق الله عليه، لقاء ما جاء منه من فعل جميل، ولعل الله راض عنه، إذْ وفّقه إلى هذا العمل، مع هذا الرجل، في مثل هذا الموقف. توفيق الله وراء كل هذا، وما رأينا عَمَلٌ جميل في الدنيا، ونرجو أن يكون للرجلين في الآخرة ما هو أكثر وأسمى.

***

# الأمانة في ردائها الجميل[1]

رداء الأمانة بهي، وبهاؤه فائق، والأمانة حِلية في النفس، وجمال في الروح، عندما تحكم يد الأمين، وتحتل المكان الأوفى من روحه، وتسيطر على نفسه، ولها لذة، ولها بهجة؛ من عرفها لم يحد عنها، ومن اتصف بها استمر على مصاحبتها، والتحلي بها؛ فيها الاطمئنان، وفيها المتعة، وفيها هدوء البال، وراحة الصدر.

والأمانة لها وجهان جميلان، الأول أن تكون صفة في الشخص، نورها يضيء، فيهدي إليه، ويُعَرِّف به؛ ففي عمله أمانة، وفي قوله أمانة، يده نزيهه، وفعله حق، ينظر لكل أمر بعين العدل، الذي هو عليه أمين، وله حارس، وبه مفتون؛ وعدله لا يقتصر على نفسه بل يتعدى إلى النظرة إلى الآخرين.

الوجه الثاني أن يكون محط أنظار الآخرين، في

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٢٦) في ٢١/ ٤/ ١٤١٦هـ الموافق: ١٦/ ٩/ ١٩٩٥م.

ائتمانه على أمورهم، والثقة في أنه سوف يكون مثلهم في رعاية ما أؤتمن عليه، بل قد يكون أكثر منهم حرصاً، وأشد رعاية، لأنه يشعر بمسؤولية لا يشعرون بها، ولأن سمعته عنده غالية لا يريد أن يفرط فيها بإهمال الأمانة، والعناية بها، عناية تجعله يشعر أن ما أؤتمن عليه أصبح في حرز مكين.

والرجل يؤتمن على الشيء نتيجة لما تعورف عليه من دينه، أو مروءته، أو عقله ورزانته، فتودع عنده الأموال، ويوصيه المحتضرون على أولادهم القُصَّر وأراملهم، ويؤملون فيه الخير، وحسن التصرف، نتيجة الدِّين القوي، والعقل المستنير؛ والأمين موقع مختار للاستشارة، ومعرفة الرأي السديد عندما يدلهم الأمر، ولا يتضح منه جانب الصواب، للتصرف، وحسن الخروج من مضايق الفكر.

وبهذا فالأمانة في وجهها الأول ضياء بهيج، يشع في صدر صاحبها، يملؤه بالمتعة، ويغلفه بالارتياح واللذة، لأنه استطاع أن يكون من الفئة الممتدحة في

مجتمعه، لما قدر عليه من حكم نفسه، ومسك لجامها، مسكاً جيداً، به يستطيع أن يسيرها حيث شاء، ويوجهها حيث أراد، ويمنعها من الانصياع لهواها، وتتبع الطرق الموهمة بالراحة، وهي راحة في أول الأمر محدودة، وعناء وشقاء في نهايته لا حدود لها.

ومن استطاع أن يملك زمام نفسه، ويسيطر عليها، فهو أحرى أن يطلب من آخرين ما يرى أن فيه نفعهم، لأنه خير قدوة لهم، فتجربته مع نفسه ناجحة، وهو لم يرض لهم إلا ما رضيه لنفسه، ومن فعل ذلك فقد عدل.

والأمانة في وجهها الثاني نعمة للمجتمع، لا يكمل مجتمع إلا بوجودها، كلما كثر الأمناء في مجتمع زاد ضياء البهجة فيه، لأن الناس يجدون في الأمناء الملاذ، بعد الله، عندما يحزبهم أمر، فيبحثون عمن يحل محل أنفسهم في الحفاظ على ممتلكاتهم، أو في حماية أعراضهم، والعناية بأهلهم وأولادهم.

وكتب التراث ملأى بالقصص التي تتحدث عن

أناس حملوا الأمانة بثقلها الباهظ، ووفوا بما التزموا به، وبالقصص التي تتحدث عمن خان الأمانة، وكان ظاهره خادعاً، فأنكر ما أؤتمن عليه، فكسب مال الحرام، ثم وقع في مصيدة قاض ذكي، استطاع أن ينصب له فخاً، بيّنَ كذبه وبهتانه، وأعاد الأمانة لأهلها، والحق لأصحابه.

ومن القصص التي تدخل الأمانة فيها بضيائها الوهّاج، وإشعاعها النبيل، قصة حديثة، لعل عمرها لا يزيد عن ثمانين سنة، في مدينة الرياض، بين رجل من البادية، ورجل من الحاضرة.

كان في وسط الرياض، عندما كانت بيوت الرياض مبنية من الطين، وعليها سور يحيط بها، دكاكين متجاورة في وسط السوق، في وسط المدينة، وكانت الدكاكين متشابهة، وإذا كان ابن المدينة يعرف هذه الدكاكين، دكانا دكانا، بل ويعرف أسماء أصحابها، فإن ابن البادية، الطارئ على المدينة، قد لا يفرق بين دكان ودكان، إلا بنوع المبيع فيه، أما إذا تماثل

الدكانان في هذا، وتجاورا، فَأَحْرِ بِهِ ألا يعرف الفرق بينهما، وهذا ما حدث في القصة التالية:

باع أعرابي بعيراً له، واستودع جزءاً مما تبقى من ثمنه عند صاحب دكان، لا يعرفه جيداً، ولكنه توسم فيه الخير، والأمانة؛ ثم ترك المدينة إلى البادية، وبقي فيها ما بقي، ثم عاد بعد مدة، وزار السوق، وقعد عند صاحب دكان ظنه صاحبه الذي ائتمنه على المال الذي ترك في رحلته السابقة؛ وبعد أن استقر به المقام طلب من صاحب الدكان ماله، فأبدى الرجل دهشته، وسأله أي مال؟

فقال: له: المال الذي تركته عندك في رحلتي الماضية.

فقال الرجل: إنك لم تترك عندي مالاً، بل لم يترك أحد غيرك مالاً عندي.

فغضب الأعرابي، ورفع صوته عالياً، وقال:

تريد أن تأكل مالي، وتنكرني، والله لأفضحنك، ولأشكونك.

وكان الرجل الحضري من عائلة كريمة، وأرومة نبيلة، يتصل نسبه بآل الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ فخاف على سمعته، وسمعة عائلته، فسأل الأعرابي:

كم المبلغ الذي أودعت عندي، فقد أكون وضعته في البيت؟

فقال الأعرابي: إنه سبعون ريالاً فرنسيا (نمساوي: ماري تريزا).

فأجله الرجل إلى الغد، ليبحث؛ ثم ذهب واقترض المبلغ، لأنه كان باهظاً بالنسبة لذلك الزمن.

وفي اليوم التالي جاء الأعرابي، وأخذ المبلغ، وهو يرغي، ويزبد من الغضب، وقال للرجل:

لقد أردت أن تأكل مالي، لأنك تظنني لقمة سائغة، فلما رأيت أني سوف أفضحك، تعذرت بهذا العذر، وادعيت أنك سوف تبحث عن الأمانة في البيت، وكنت كاذباً في الأولى والثانية.

وفي اليوم التالي لم يقعد الأعرابي عند ابن الشيخ،

وإنما قعد عند جاره، وقص عليه قصة المال، وما كان من الرجل، من نية سيئة في محاولة أكل ماله وإنكاره، وأنه لولا أنه خشي من لسانه لما أخرج المال.

فقال له صاحب الدكان الثاني: كم المال الذي أودعته؟

فقال: سبعون ريالاً.

فقال: ما حرزه؟

قال: قطعة قماش، بلون كذا.

فقال: إن مالك عندي، وليس عند جاري، وقد اختلطت عليك الدكاكين، واشتبهت عليك الوجوه، وظلمت الرجل ظلماً عظيماً.

فبهت الأعرابي، ووضع يديه على رأسه، من هول المصيبة، وخاصة عندما تذكر الكلمات القاسية، واللهجة الخشنة التي كان يخاطب بها الرجل؛ وهدوء الرجل، ولين حديثه.

فطلب من صاحب الدكان أن يصحبه إلى جاره، وأن يستسمحه، فلا وجه له لمقابلته وحده، بعدما

جرى منه ما جرى.

فذهب الاثنان إلى ابن الشيخ، فاعتذر الأعرابي له، وسأله لماذا لم تدافع عن نفسك حتى لو أوجب الأمر أن تذهب للقضاء.

فقال له: أنت رجل غير معروف، ولن يلحق سمعتك شيء، عندما لا يحكم لك؛ أما أنا فإذا حكم لي هذه المرة، لعدم وجود دليل معك، فلابد أن تُنْقِصَ هذه المسألة من سمعتي، ومن يعلم فقد ابتلى مرة أخرى بمثل هذه التهمة، ويكون المبلغ أضعاف أضعاف هذه، ثم تهتز سمعتي، وسمعة عائلتي في أثر ذلك، فأنا اشتريت سمعتي، وسمعتها، بهذا المبلغ.

هذه صورة من صور الأمانة المضيئة، فالرجل كان حريصاً على سمعته أن تهتز، وسمعة عائلته من ورائه، وهي لم تبن باليسير، بل تكونت مع السنين، وابن العائلة خير من يحافظ عليها.

وجار ابن الشيخ أمين أيضاً، ولو لم يكن أميناً لسكت على المال الذي عنده، مادام الأعرابي قد

اكتفى بما أخذه، ومادام ابن الشيخ لا يدري أن المؤتمن هو جاره؛ هذا مع ما هو معروف من التنافس بين المتجاورين، ممن يتماثلون فيما يبيعون.

وقبل ما لا يقل عن خمسين عاماً اقترض رجل من والدي ـ رحمه الله ـ بضعاً وثلاثين ريالاً فرنسيا؛ وافترقا، فالرجل بقي في القصيم، والوالد تنقَّل بين مكة والرياض، وانقطعت الأسباب بينهما، وتوفي الوالد ـ رحمه الله ـ وتوفي الرجل ـ رحمه الله ـ بعده بما يقرب من ثلاثين عاماً؛ وأوصى أولاده بأن يبحثوا عن ورثة عبدالله العلي الخويطر، من أهل عنيزة، ويسلموهم هذا المبلغ الذي يخص والدهم، فقد سلفني إياه في وقت مضى، ولم أعرف مكانه. وأولاد الرجل، وقد تعلموا، وعرفوا مناطق المملكة وانتقلوا، أو انتقل بعضهم إلى الرياض، وأصبح مقر عملهم، وسمعوا عني، جاؤوني ـ جزاهم الله خيراً ـ بالمبلغ، في صرة، وعليها البيان عنها. وأخذه الورثة لا لأنه مبلغ مجزٍ كبير، ولكن لأنه رمز للخير من الرجلين،

هذا بإقراضه هذا المبلغ الكبير في عرف ذلك الزمن، وعدم المطالبة به، وهذا بأمانته في السعي لرده؛ وهذه الريالات لأنها أصبحت اليوم أثرية صار لها من القيمة ما أوجب الاحتفاظ بها.

ومن التراث تأتي قصة صادقة الصورة، نبيلة المحتوى، لعبت الأمانة فيها دوراً كبيراً، في رفع صاحبها إلى مصاف المتميزين في خلقهم، المتفوقين في عملهم؛ ومنطلقهم جاء من قوة الإيمان الذي أضاء قلوبهم بالتقوى، ومعرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حق المعرفة، والسير في هدي ما جاء به رسول الله الكريم ﷺ والقصة كمايلي:

«قال ابن الجوزي:

كان إبراهيم بن أدهم يحفظ البساتين، فجاءه جندي يوماً، وطلب منه شيئاً من الفاكهة، فأبى، فضربه الجندي بسوط على رأسه؛ فطأطأ إبراهيم له رأسه، وقال:

«اضرب رأساً طالما عصى الله».

فعرفه الجندي، وأخذ في الاعتذار إليه، فقال إبراهيم:

الذي يليق له الاعتذار تركته ببلخ». [1]

هذا الخلق العظيم الذي اتصف به إبراهيم، في كل فقرة من فقرات هذه القصة، أنار الحديث، وجعل له القيمة التي لاحظها مسجل القصة؛ وإبراهيم عرف بتقواه بعد أن طلق حياته السابقة، وكانت متسمة باللهو واللعب، وعدم الاهتمام بأمور الآخرة، لأن أمور الدنيا قد أخذت عليه عقله، فلم يلتفت للآخرة، إلا بعد أن هداه الله، فأيقظه من الغفلة التي كان يرسف في أغلال ديجورها؛ فهاجر في أرض الله يبحث عن سعادة الآخرة، في الكسب الحلال، والعبادة المتبصرة. وكان له ما أراد من حراسة هذا البستان، وإظهار منتهى الأمانة في المحافظة على الأمانة الموضوعة في يده، وتحمل الأذى بصدر رحب، وتلفظ بكلمات تدل على تقى وصلاح؛

(١) الكشكول: ١/ ١٠.

وهذا نبه الجندي إلى أن هذا التصرف لا يأتي إلا من رجل يعرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعرف أن مثل هذا التصرف لا يأتي إلا من رجل نادر الخلق الحميد، وهذا دله على أنه لابد أن يكون إبراهيم بن أدهم.

ولما اعتذر الجندي لإبراهيم بقي إبراهيم في دائرة التقوى، وقرر أنه لا يستحق أن يعتذر له، فهذا جزء من تطهيره من ذنوبه، ومعاصيه، وما أكثرها في نظره، وأنه لو كان مثلما كان عليه في بلخ، من اللهو والغفلة، لتطلع للاعتذار، وطالب به.

ـ[1] هذه إطلالة على بعض قصص الأمانة، والوفاء بحقها، وهناك قصص ترسم الخيانة، وعدم الوفاء بحق الأمانة، وخيانة بعض الأنفس المريضة، التي لا تفكر إلا في مصلحتها الدنيوية القريبة، وتسعى إلى الكسب السريع، والربح الحرام، ضاربة عرض الحائط بالخلق القويم، والسير المستقيم، ومنقادة إلى ما يغريها به الشيطان، متبعة الهوى، وسالكة سبل الغواية.

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

وللقضاة جهود حميدة في كشف زيف الأقوال التي بها ينكر المؤتمن دعوى من ائتمنه، وللقضاة من تجربتهم، وفراستهم، ونباهتهم، ما يحق الحق، ويبطل الباطل، ويرد الحقوق إلى أصحابها، ويضع الأمور في نصابها؛ فهم ينصبون الفخاخ للمنكر، ويستدرجونه إليها، فيقع فيها مثل الطير يقع في الفخ بسهولة ويسر؛ وحبل الكذب قصير، ولابد لصاحبه، مهما تكلف وراوغ، من أن ينكشف، لأن التكلف لابد وأن يشوبه النقص، وإن حاول صاحبه جهده أن يتقن خطواته فيه.

والقاضي إياس بن معاوية من القضاة النابهين، عرف بذكائه، وقد ضرب به المثل في ذلك، وله من الفراسة ما صار على ألسنة الناس، ونفعته هذه الفراسة في كثير مما عرض عليه في مجلس القضاء[1]، والفراسة للقاضي مهمة، فإذا كانت طبيعة في القاضي، وأضيف إليها حصيلة وافية من الخبرة، وعمق التجارب،

(١) انظر ما يأتي ص: ٣٠١، وص: ٣٠٢.

فقد أصبح في طبقات من النعمة، في هذا المجال المهم.

وهناك قصة مشهورة عن القاضي وكيع، تروى بتقدير، وإعجاب، ومؤداها:

«أنه تخاصم عنده اثنان، ادعى أحدهما أنه أعطى الآخر مبلغاً من المال أنكره الآخر؛ فقال المدعي إنه أعطاه في موضع كذا وكذا.

فقال القاضي للمدعي: وما كان في ذلك الموضع؟

قال: شجرة.

قال القاضي: قم واذهب إلى حيث الشجرة، فلعلك تجد أنك دفنته تحتها.

فذهب الرجل؛ وأخذ القاضي ينجز شؤون المتخاصمين الآخرين عنده، وفجأة التفت إلى المنكر، وقال له:

أترى صاحبك قد بلغ الموضع الذي أودعك فيه؟

قال: لا.

قال القاضي: يا عدو الله، إنك لخائن.

فأقر عنده، فحبسه حتى جاء صاحبه، ثم أمره

بدفع الوديعة» .[1]

هذا التصرف من القاضي وكيع جاء بالنتيجة المطلوبة، وقد أحسن وكيع نصب الفخ، فأطبق على الخائن في اللحظة المخطط لها؛ وقد أتقن الفخ ونَصْبه، وزاد في إتقانه أن وكيعاً أوهم الخصم أنه غير مهتم من أمر الذي ذهب إلى حيث الشجرة، وأن وكيعاً منصرف بكامل ذهنه مع القضايا التي أمامه، ويلتفت ببراءة متناهية، وكأن الأمر جاء عفواً، فيسأل الخصم سؤالاً، يطبق الجواب فيه الفخ على الخصم، ويدخله الشبكة بإتقان.

والقاضي إياس، وهو من عرف بذكائه الحاد، وفراسته التي يضرب بها المثل تروى عنه القصة الآتية؛ وهي وإن كانت عن أمر طفيف، إلا أن أداة كشف حقيقة الدعوى والإنكار مهمة، لأنها تلمس المبدأ، والمبدأ لا يهم فيه صغر الأمر أو عظمه.

وتزيد الأمانة ثقلاً كلما زادت قيمته، نقداً ونوعاً،

---

(١) تاريخ القضاة: ١/ ٣٤٢.

ورغم التقوى والعفاف، فإن المرء يتعرض للأغراء، والخيانة، والتفريط في حق المُؤتَمِن، والشيطان يقظ، ومتنبه لمواقع الضعف في الإنسان، وأوقات ذلك، ومستعد للانقضاض، بجدارة ومهارة، وهو لا يحمل همّاً للفاسق، لأنه داخل مصيدته، ومطمئن إليه، ولكنه يبذل الجهد المتناهي لصاحب الدِّين، وخدين التقوى، يجند له جنده، ويشحذ له ذهنه، ويتلمس جميع الطرق الموصلة إلى إغوائه، فلا يدع طريقاً إلا سلكه، ولا وسيلة إلا جربها، ذهنه متنبه، وشره مسنون، وهذا هو، في قصة عن الأمانة، يرمي شباكه على تقي، وينصب فخاخة على رجل عرف بالدين والصلاح؛ ولكن الإغراء قوي، لولا لطف الله، وتدارك المولى ـ عز وجل ـ فقد سخر للعالم عالماً، هداه بعون الله وتوفيقه، إلى الطريق السوي، وجادة النجاة، مستعملاً أسلوباً يلمس النفس، ويحرك الروح، عن طريق طويل، فيه عظة بالغة، ونصح منير، والقصة هكذا:

«أودع تاجر من تجار نيسابور جاريته عند الشيخ أبي عثمان الحيري؛ فوقع نظر الشيخ عليها يوماً، فعشقها، وشغف بها، فكتب إلى شيخه أبي حفص الحداد بالحال، فأجابه بالأمر بالسفر إلى الريّ، إلى صحبة الشيخ يوسف.

فلما وصل إلى الريّ، وسأل الناس عن منزل الشيخ يوسف، أكثر الناس في ملامته، وقالوا:

كيف يسأل تقي مثلُك عن بيت شقي فاسق؟

فرجع إلى نيسابور، وقص على شيخه القصة؛ فأمره بالعود إلى الريّ، وملاقاة الشيخ يوسف المذكور.

فسافر مرة ثانية إلى الريّ، وسأل عن منزل الشيخ يوسف، ولم يبال بذم الناس له، وازدرائهم به، فقيل له:

إنه في محلة الخمارة.

فأتى إليه، وسلم عليه.

فرد عليه السلام، وعظمه؛ وكان إلى جانبه صبي بارع الجمال، وإلى جانبه الآخر زجاجة مملوءة من

شيء كأنه الخمر بعينها .

فقال له الشيخ أبو عثمان :

ما هذا المنزل في هذه المحلة؟

فقال : إن ظالماً شرى بيوت أصحابنا ، وصيرها خمارة ، ولم يحتج إلى شراء داري .

فقال له : ما هذا الغلام ، وما هذا الخمر ؟

فقال : أما الغلام ، فولدي من صلبي ، وأما الزجاجة فخل .

فقال : ولِمَ توقع نفسك في مقام التهمة بين الناس؟

فقال : لئَلا يعتقدوا أنني ثقة أمين ، ويستودعوني جواريَهم ، فأبتلى بحبهن .

فبكى أبو عثمان ، بكاءاً شديداً ، وعلم قصد شيخه» . (١)

الأمانة ثقيلة ، لا يستطيع حملها ، والقيام بواجبها إلا من أعانه الله ، وقد أخبر بهذا الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز ، فقال : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى

(١) الكشكول : ١٥٧ .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .(١)

وقد جفل الشيخ يوسف من الأمانة، وملأ فؤاده الخوف منها، وأصبح في رعب شديد، جعله يستهون الحياة التي لجأ إليها، هروباً من الناس، لئلا يأتمنوه، وصبر على ازدراء مجتمعه له، وذمهم إياه، وبقي في حي زري مستهجن، ولكن فيه راحة لقلبه، وسعادة لنفسه.

والحفاظ على العهد، وصيانة الأمانة، والوفاء بالوعد، أمور لا يحكمها زمن، ففي كل زمن محسن ومسيء، وطيب وخبيث، فالزمن لا دخل له بصياغة الناس في أخلاقهم، فالله ـ سبحانه ـ هو الهادي إلى سواء السبيل؛ تجد أخوين، وقد يكونا توأما، عاشا معاً، ودرسا معا، وتربيا معا، أكلهم واحد، ولبسهم واحد، حظيا بتربية واحدة، وعاشا في محيط واحد، ولكنك تجد أنهما أحيانا مختلفان، هذا واسع الصدر،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

وهذا ضيقه، وهذا كريم، وهذا بخيل، وهذا يحب الخير، وهذا يتمتع بالشر، هذا يؤثر الناس على نفسه، وهذا لا يحب إلا نفسه؛ هذا محبوب، وهذا مكروه؛ هذا خفيف الظل، وهذا ثقيله، يفرح الناس إن دخل هذا، ويفرحون إذا غادر ذاك؛ ولهذا فلا عجب إن وجد إنسان في زمننا يغلي الأمانة، ويراعي حق مودعها، خاصة إذا كان هناك رائحة معروف مسدى، وجميل معطى. والأمانة تأتي في مثل القصة الآتية، حين لا يعرف أحد الطرفين الآخر، والقصة هكذا: (١)

«دخل أعرابي قبل سنوات تزيد على الثلاثين على موظف، ليس صغيراً، في بلدية الرياض، وطلب منه قرضاً، لعله في حدود مئة ريال، أو مئتين؛ والمقترض منه من الذين وسع الله عليهم في رزقهم، فأعطاه المبلغ.

وذهب الرجل، وغاب فترة، لعلها سنة أو سنتين، كان الموظف في أثنائها قد انتقل من بيته الأول إلى

(١) انظر ما سبق، ص: ١٦١ عن الخبر نفسه.

بيت آخر في حي جديد، ولم يدر، في يوم من الأيام، إلا والأعرابي يطرق باب بيته، بعد أن وجد عناء في الوصول إليه، وكان الموظف قد نسي الأمر. فلما فتح له الباب وحياه قال له الأعرابي:

أنا الذي اقترضت منك مبلغ كذا، وقد جئت أرد لك الدين، وقد ابتعت واشتريت في الأغنام، وهذا نصيبك من مالك، وما نمى منه، هذه العنز وابنتها، وأخرى في الخرج سوف آتي بها في رحلتي القادمة، والفضل لله ثم لك.

فتأثر الموظف بما رأى، وقال خذ هذه العنز وابنتها والأخرى، هدية مني لك، وضيافة لك مادمت لا تستطيع البقاء، وأنت على سفر، وخذ المال أيضاً، فما كان في ذهني استرداده.

هذه الأمانة وجدت في قلب هذا الأعرابي مكاناً دافئاً فاستقرت فيه، فأكرمه الله معها بما أفاده، وما جزاء الأحسان إلا الأحسان.

ونعود إلى التراث، وإلى ما فيه من قصص وحوادث

ترسم بأداة مبصرة صوراً لما كان عليه الناس في ذلك الزمن، وما اتصف به بعضهم من أمانة أو خيانة، وتصرف المجتمع حيال كل منهم، والقصة التالية تصف محاولة خيانة أبطلها القاضي إياس بن معاوية بذكائه الخارق، بعد توفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

«حكى المدائني قال:

أودع رجل آخر كيساً فيه دنانير، وغاب مدة طويلة، فلما طال الأمر، فتق الرجل الكيس، وأخذ الدنانير، ووضع عوضها دراهم، والخيط والخاتم على حاله.

ثم قدم صاحب المال، فطلب ماله، فدفع له الكيس بخاتمه، فلم يقبله، وقال:

هذه دراهم، ومالي دنانير.

فقال: هذا كيسك، وخاتمك.

فرفعه لابن هبيرة، فقال لإياس:

انظر بينهما.

فقال إياس: مذ كم أودعك؟

قال: منذ عشرة أعوام.

فقال: فضوا الخاتم.

ففضوه، ونثروا الدراهم، فوجدوا فيها ضرب خمس سنين، وست سنين، وأقل وأكثر.

فقال إياس: قد أقررت أنه عندك منذ عشر سنين، وفي الكيس ضرب خمس سنين.

فأقر بالدنانير، وألزم بها». (١)

وقد قيظ الله للخائنين القضاة الأذكياء، يفضحون أمرهم، ويكشفون سرهم، فيكونون سبباً في رد الأمانات إلى أهلها. ومن أبرزهم إياس بن معاوية القاضي، وله مواقف تدل على ذكاء حاد، وفراسة متناهية، وذكاؤه يتبين من القصة الآتية:

«قيل لإياس يوماً:

إن فيك عيوباً، دمامة الشكل، وإعجابك بالقول، وعجلة بالحكم؛ فقال:

أما الدمامة فليس أمرها إليّ، وأما الإعجاب

(١) سرح العيون: ١٤٤.

بالقول، أفليس يعجبكم ما أقول؟

قالوا: نعم.

قال: فأنا أحق بالإعجاب بقولي؛ وأما العجلة بالحكم، فكم هذه؟ ومد أصابع يده.

فقالوا: خمس.

فقال: أعجلتم بالجواب، ولم تعدّوها إصبعاً إصبعاً.

فقالوا: كيف نعدّ ما نعلمه؟!

قال: وأنا كيف أؤخر حكم ما أعلمه؟!» .[1]

وذكاء القاضي وفراسته أمران لازمان له، لإصدار الحكم الحق، لأنه يعالج قضايا قد تتعدى تحاكم شخصين، أو عائلتين، أو قبيلتين، كما حدث في القصة التالية، التي تلمس المدينة كلها، وما حولها:

«تبصّر الناس هلال شهر رمضان، فلم يره أحد غير أنس بن مالك الأنصاري، وقد قارب المئة سنة من العمر، فشهد عند إياس.

---

(١) سرح العيون: ١٤٥. البيان والتبيين: ١/ ١٠٠.

فقال إياس : أشر لنا إلى موضعه .

فجعل يُشير ولا يرونه .

فتأمل إياس ، وإذا شعرة بيضاء من حاجب أنس ، قد انثنت ، وصارت على عينه ، فمسحها إياس ، وسواها ، ثم قال :

يا أبا حمزة ، أرنا موضع الهلال .

فنظر ، فقال : ما أرى شيئاً» .[1]

وأداء الأمانة ممتدح ، ووردت في ذلك أحاديث كثيرة منها :

«قال رسول الله ﷺ :

المؤمن إذا حدث صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا اؤتمن وَفَى ، والمنافق إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» .[2]

وقال ﷺ :

«لا تزال أمتي بخير ما اتخذوا الأمانة مغنماً» .

---

(١) سرح العيون : ١٤٥ .

(٢) بهجة المجالس : ٢/ ٥٧٤ ؛ الموشى : ٥٦ .

وقال ﷺ:

«أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». [1]

والأمانة موفورة عند الأتقياء، يهتمون بأمرها، ويدققون في أدائها، وسرعة ذلك، لأن تأخير أداء الأمانة يعرضها للخلل؛ إن كانت شيئاً يتلف فقد تتلف، وإن كانت متعلقة بزمن، فقد يفوت وقت نفعها، وتتعرض للضياع أو السرقة، وهناك قصة تدهش القارئ، لحرص الناس في ذلك الزمن إلى الحد الذي تبينه القصة، وهي كمايلي:

«قال الفرياني:

كنت عند الأوزاعي، إذ جاءه رجل، فقال:

يا أبا عمرو، هذا كتاب صديقك فلان من بلد كذا؛ وهو يقرأ عليك السلام.

فقال له: متى قدمت؟

قال: أمس.

قال: ضيعت أمانتك، لا كثر الله في المسلمين

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٥٧٤.

أمثالك» .[1]

والرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ يأتي منه مكرراً الحث على مكارم الأخلاق، ومنها الوفاء، وأداء الأمانة وافية، لأن صلاح المجتمع بالتمسك بهذا الخلق، وقد مر بنا بعض أقواله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ويروي عنه صاحبه وخليفته ـ رضوان الله عليه ـ قوله :

«يا أبا بكر، عليك بصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وحفظ الأمانة، فإنها وصية الأنبياء» .[2]

وهي وصية شاملة، جمعت ملامح ثلاثة، هي أسس في حسن الخلق، فالصدق في الحديث رأس مكارم الأخلاق، وبدونه لا يصبح للقول فائدة، بل إن عدم الصدق يأتي بضرر كبير، لأنه يهدم الحقيقة، ويقوض أركان الثقة بين الناس، ويجعل الأمور تختلط عليهم، فيحذرون ما لا يجب الحذر منه، ويكذبون الصدق، لأنهم لا يدرون ما هم عليه مما

---

(١) بهجة المجالس : ٢/ ٥٧٦ .

(٢) ربيع الأبرار : ٤/ ٣٤١ .

يقوله محدثهم، ممن جربوا عليه الكذب، وكذبة واحدة تكفي لنشر الشك، ونزع اليقين من الصدور، فالكذب من أسوأ الرذائل، لما له من آثار سيئة غير محدودة، وأضرار قد تتعدى التصور والتوقع.

والوفاء بالعهد يدخل فيه عنصر الصدق، وهو فضيلة، تكسب الإنسان راحة بال، ومتعة في النفس، لا تعدلها متعة، لأن الوافي بالعهد يرسم لمجتمعه صورة جميلة، بالاقتداء بها؛ وشيوعها يسعد المجتمع، وتنبث فيه روح الإخاء والمودة، وهي أمور تزرعها الثقة؛ والوفاء بالعهد مظهر من مظاهر الرجولة الحقة، وفيه عنوان السيطرة على النفس، والمقدرة على تحمل المشاق، وعدم الركون إلى الأسهل، مما فيه راحة ضحلة، ووراءه شقاء مديم.

وحفظ الأمانة ـ وهو ما نحن بصدده ـ عماد من أعمدة الخلق الفردي والجماعي، ينير النفوس، ويبهج الصدور، ويملأ صدر صاحبه بمتعة لا تعدلها متعة، لأنه قام بما يجب عليه بأوفى صور الوفاء،

ولن يعدله إلا من عمل عمله، ووفى بالتزامه.

والرسول ﷺ لا يقول قولاً، يطلب من أصحابه اتباعه، والسير على هديه، إلا ويتبعه بالعمل، الذي يؤكد فيه نبل النصيحة، وشرف التوجيه؛ فقوله يأتي فرعاً لعمله أحياناً، وعمله يتلو قوله أحياناً أخرى، ومن أمثلة أمانته ﷺ القصة التالية:

«نزل ناس من محارب إلى جنب المدينة، فاشترى منهم رسول الله جزوراً بوسق من تمر.

فلما ذهب بها، وتوارى في بيوت المدينة، قالوا: أعطينا رجلاً لا نعرفه.

فقالت عجوز منهم: لقد رأيت وجه رجل ما كان ليلبسه غدراً.

فما كان إلا أن أرسل إليهم، فدعاهم، ثم أمر بالتمر فنثر على نطع، ثم قال: كلوا.

فأكلوا حتى شبعوا، ثم وفاهم ثمنهم.

فقالوا: ما رأينا كاليوم في الوفاء». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٤١.

إنه لم يكتف ﷺ بإيفائهم حقهم، كاملاً غير منقوص، وإنما أكرمهم، لأنهم ضيوف حالون في أطراف المدينة.

ولقد تفرست العجوز المحاربية فيه الخير، ورأت في وجهه الصدق، وأنه لا قابلية فيه للغدر والخيانة، ومن أولى منه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بأن يوحي وجهه المشرق بالطمأنينة، والارتياح.

تعاليمه ﷺ في الأمانة، والحث عليها، سرت خلال جسم الزمن، وجاء مطبقون من أمته، لما يقتضيه إرشاده، وما ترمي إليه تعاليمه؛ فخالطت التقوى في هذا الجانب نفوسهم، وتشربوا بها، وأصبحوا يأتون ما يأتون منها عفواً وطبعاً، لا تكلف فيه، ولا تصيد؛ وكانوا فيه مطيعين؛ وبه أصبحوا قدوة، تحتذى من الخيّرين، في العصور المتتالية، وهنا قصة تبين أمانة أحد أفراد أمة محمد، بشهادة الخليفة نفسه، والقصة كمايلي:

«أُتِي عمر ـ رضي الله عنه ـ بتاج كسرى، وسيفه،

ومنطقته وسِوارَيه؛ فرأى من الدر، والياقوت، شيئاً لم ير مثله، فكره أن يمسه بيده، فأخذ عوداً، فجعل يقلب ذلك، وينظر إليه.

فلما أطال النظر، قال:

إن الذي أدى هذا لأمين!

فقال له علي: يا أمير المؤمنين، إنك أديت الأمانة إلى الله، فلما أدَّيتها إلى الله، أُدِّيت إليك». [1]

لقد انبهر عمر ـ رضي الله عنه ـ من هذه الثروة العظيمة، وتحرج من لمسها بيده، فاستعان على تقليبها بعود، وأخذ وهو يقلبها بالعود، يقلب أمرها في ذهنه؛ فمر في ذهنه، من جملة ما مر، الأغراء الذي يمكن أن يحيط بمن عثر عليها، أو جمعها في الفيء، ومجال فائدتها لإبليس أن يتخذها وسيلة إغراء؛ ثم انتهى في تفكيره إلى أن من قاوم هذا الإغراء أمين، وشهادةٌ مثل هذه من عمر ـ رضي الله عنه ـ شهادة ثمينة.

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٤٣.

ويذهب الأتقياء من أمة محمد في الحرص على الأمانة، والحفاظ على كل أمر فيها مهما قل، إلى أبعد الحدود، فيجعلون من الأمانة ما قد لا يخطر بالبال أنه يدخل فيها:

«قال رجل لسلمان ـ رضي الله عنه ـ يا أبا عبدالله، فلان يقرئك السلام.

فقال: أما أنك لو لم تفعل لكانت أمانة في عنقك». [1]

ومن تقديرهم للأمانة، وحرصهم على الاتصاف بها، وانزعاجهم من التهمة في تضييعها، أو الافتراء عليهم في أنها رقيقة عندهم، تقلقهم، وينفرون من ذلك، ولا يصبرون عليه، ولهذا لجأ حارث بن عوف بن أبي حارثة إلى الرسول ﷺ فزعاً، مرتعباً عندما لمس حسان أمانته في شعره، والشعر ديوان العرب، وما جاء فيه فمن الصعب محوه، مع سرعة في الانتشار، وجاذبية في التداول، والقصة كمايلي:

«قال حارث بن عوف بن أبي حارثة للنبي ﷺ

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٤٤.

أجرني من لسان حسان، فلو مزج به البحر لامتزج، فحدث بذلك ابن عائشة، فقال:

أوجعه قوله:

وأمانة المري حيث لقيته
مثل الزجاجة صدعها لا يجبر»[1]

الأمانة إذا تغلغلت في قلب المؤمن، أنارت جوانبه، حتى لا يبقى فيه ظلمة، ولا فرق في هذا بين صغير وكبير أو حر أو عبد؛ والقصة الآتية تُري كيف حافظت جارية مسلمة على حق امرأة كافرة، فلم ترد أن تبخسها حقها مادام تبين لها ذلك؛ ولابد أنها اعتلَت في عين سيدها الجديد، لما رأى من وفائها، وطيب نبتها، وحسن عملها:

«مر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بجارية سوداء تطحن لمولاتها، فقالت مولاتها:

يا أبا بكر، اشترها، فإنها على دينك.

فلما علم أنها مسلمة، حكّم مولاتها، فاشتراها

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٤٥.

على المكان، ودفع ثمنها، وقال:

قومي، يا جارية.

فقالت: يا أبا بكر، إن لها عليّ حقاً بقديم ملكها، فأذن لي أن استتم طحينها.

ففعل». [1]

والقرب منه ﷺ والتشرب بأخلاقه بالأمانة والوفاء، تؤثر حتى في المشرك، ولا تلبث إلا أن تدخله في روض الإسلام، مثل ما حدث لأبي العاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبدشمس، ختن رسول الله ﷺ، وما كان منه من وفاء، وصيانة للأمانة، والقصة كمايلي:

«كان أبو العاص بن الربيع، ختن رسول الله ﷺ على بنته زينب، تاجراً، تضاربه قريش بأموالها، فخرج إلى الشام، سنة الهجرة.

فلما قدم، عرض له المسلمون، فأسروه، وقدموا به المدينة ليلاً؛ فلما صلوا الفجر، قامت زينب على

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/٣٤٨.

باب المسجد، فقالت:

يا رسول الله، قد أجرت أبا العاص، وما معه.

فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت.

ودفع إليه جميع ما أخذ منه، وعرض عليه الإسلام، فأبى، وخرج إلى مكة، فدعا قريشاً، وأطعمهم، ثم دفع إليهم أموالهم. وقال: هل وفيت؟

قالوا: نعم، قد أديت الأمانة، ووفيت.

قال: اشهدوا جميعاً أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وما منعني أن أسلم إلا أن تقولوا: أخذ أموالنا.

ثم هاجر، فأقره رسول الله على النكاح الأول» .[1]

ومن أبرز ما يظهر قيمة الأمانة قصة يوسف ـ عليه السلام ـ مع فرعون، وحرص فرعون على استخدامه، لما توسم فيه من أمانة، والآية خير معبر عن ذلك: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۞ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .[2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٥٠.

(٢) سورة يوسف، الآيتين: ٥٤، ٥٥.

والأمانة إحدى صفات الأنبياء، وهم مؤتمنون على دين الله، ووحيه، والأمانة تولد معهم، وقد اعترفت قريش بأمانة الرسول ﷺ وسمّته الأمين، رغم عدائها له، ومناهضتها دينه، إلا أنها لم تبخسه حقه، أو تتهمه في أمانته.

والله سبحانه أنزل على رسوله الكريم ﷺ النهي عن خيانة الأمانة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[1]

وأمر في آية أخرى بأداء الأمانة فقال: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.[2]

ففي الآية الأولى نهى عن خيانة الأمانة، وفي الثانية أمر بأداء الأمانة، فهذا الأسلوب تأكيد على تثبيت أهمية الأداء، وأن التخلي عنه، أو التراخي فيه، يدخل في حيز الخيانة، وهذا أمر مخيف.

وأهمية الأمانة تتبين من تكرار القول فيها في

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.

القرآن الكريم، وفي أحاديث الرسول ﷺ فهو لا يترك فرصة إلا وأكد فيها على الأمانة قولاً وعملاً، ونضيف هنا إلى ما سبق أن ذكرناه من أحاديث، الحديث التالي:

«عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال:

حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر.

حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر[1] قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة.

ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال:

ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت[2]؛ ثم ينام النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل[3]، كجمر دحرجته على رجلك، فنفط، فتراه منتبراً[4]، وليس

---

(١) «الجذر: أصل الشيء».

(٢) «الوكت: اليسير».

(٣) «المجل: تنفط في اليد ونحوها من أثر عمل وغيره».

(٤) «منتبراً: مرتفعاً».

فيه شيء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله.[1]

والنصيحة أمانة، حجبها فيه إثم، خاصة إذا كان الناصح هو الوحيد الذي يمكن أن ينصح، لعلمه، أو لمقامه، أو لسنّه، وقيمتها في مردودها، وما يأتي منها من تقبل المنصوح لها، فالنصح للعودة للدين في التصرف، أجرها عظيم، والسكوت عنها، والاحجام من أدائها، والتردد في توجيهها إثمه كبير، والنصح في تحسين العمل، وإتقان أدائه، قيمته فيما يأتي منه من فائدة على الفرد والمجتمع.

وهناك مواقف في التراث جاءت النصيحة فيها دالة على قوة إيمان، وزيادة يقين؛ وبعض هذه المواقف رهيب، وبعضها قد لا يتوقع من الناصح أن تأتي منه النصيحة، لأن فيها فائدة لمن يعتبر عدواً للناصح، مثل القصة الآتية:

«قُدِّم رجل من الخوارج إلى عبدالملك، ليقتله، فدخل على عبدالملك ابن له صغير، وهو يبكي،

---

(١) تهذيب الأخلاق: ١٩١.

لضرب معلمه (له).

فقال الخارجي: دعوه يبكي، فهو أفتح لحزمه، وأنفع لبصره.

فقال له عبدالملك: ما شغلك ما أنت فيه عن هذا!

فقال: ينبغي للمرء أن لا يشغله عن الخير شيء.

فعفا عنه». [1]

إن النطع مبسوط، والسيف مسلول، والموت أمام عيني الرجل، ومع هذا فلم يفقد اليقين في قلبه، فنوره غطى على رهبة أدوات الموت، ولم يذكر إلا أمانة النصيحة، تسدى للمسلم حتى ولو كان عدواً؛ ولعل في ذهنه أيضاً أنه ليس بينه وبين هذا الصغير ما يوجب ألاّ يسعى في صالحه، وهو في طريقه إلى الآخرة، فلعل الله يضع هذه في موازينه، ومادام قد استحضر ربه في ذهنه، فإن الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

---

(١) محاضرات الأدباء: ٢٨٩.

وأداء الفروض عند المسلم أمانة، عليه أن يؤديها لربه خالصة، كما طلب منه، فلا يداخلها رياء، ولا يخالطها غش؛ ومن لم يفعل ذلك فقد أخل بما ائتمن عليه؛ وإذا كانت الأمانة لله عند عبده فإنها أثقل الأمانات، وأكثرها داعياً للتحرز، والحذر؛ والنيات في هذا لها أهمية، فالله هو المطلع عليها؛ وقد شذ عن الطريق في هذا أناس، فخالط عملهم رياء، وبهذا أخلوا بأداء الأمانة على وجهها، وفي القصة الآتية مثل:

«حكي أن طاهر بن الحسن قال لأبي عبدالله المروزي:

منذ كم صرت إلى العراق؛ يا أبا عبدالله؟

قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم.

فقال: يا أبا عبدالله، سألتك عن مسألة، فأجبت عن مسألتين» .[1]

---

(١) أدب الدنيا والدين: ١١٩ .

وضعف الإِيمان يكمن خلف النفاق، والتباهي أمام الناس بالطاعة، مع عدم جهل المنافق بأن هذا يحبط عمله، ولكنه يريد كسب الدنيا، ولم يفكر في الكسب في الآخرة، مع أن الأصل في أعمال الطاعة هي الآخرة، ولكن هؤلاء يصرفونه إلى ما يريدون، لقصور فكرهم، وغثاثة أنفسهم.

وهناك قصة ليست بعيدة عن هذه، وإذا كانت الأولى عن رجل في الحاضرة، فالثانية عن رجل في البادية، وهي هكذا:

«حكى الأصمعي ـ رحمه الله ـ:
أن أعرابياً صلّى، فأطال؛ وإلى جانبه قوم.
فقالوا: ما أحسن صلاتك!
فقال: وأنا مع ذلك صائم». [1]

لقد عز على هذا الأعرابي أن لا يشمل المدح والثناء جوانب الطاعة عنده كلها، فنبه إلى ما لا يعلم عنه إلا الله، ثم الأعرابي.

---

(١) أدب الدنيا والدين: ١١٩.

والرياء عن الصلاة، واتخاذه مصيدة للمدح أو الكسب صوّره أحد الشعراء بهذه الصورة:

«صَلَّى فَأَعْجَبَني، وَصَامَ فَرَابَنِي
نَحِّ القَلُوْصَ عَنِ المُصَلِّي الصَّائِمِ»[1]

لعل الشاعر يعرف هذا المصلي الصائم، ويعرف أنه بعيد عن الطاعة، وما هذا التظاهر إلا حيلة يريد أن يقتنص بها شيئاً، ولهذا حث على المحافظة على البعير، فقد تكون هدف المصلي الذي قد نصب شباكه لسرقتها.

وخلاف هذا من يأتي بالطاعة على وجهها، لأنه يريد بها وجه الله، ولا يهمه ما يظنه الناس، فليس في ذهنه إلا ربه ـ عز وجل ـ وفي القصة الآتية صورة لهذا:

«استحسن الناس من الأشعث بن قيس قوله، وقد خفف صلاته مرة.

فقال بعض أهل المسجد: خففت صلاتك جداً!

(١) أدب الدنيا والدين: ١١٩.

فقال: إنه لم يخالطها رياء». [1]

الأشعث رجل مليء بالمجد، مليء بالتقوى، ولا يحتاج أن يضيف مجداً زائفاً إلى مجده الأصيل، ولا تقوى مفتعلة إلى تقواه الحقيقة؛ ورده يدل على أن ما اختاره هو الأصلح، وبه القدوة.

والقاضي في عنقه أمانة أن يحكم بالعدل، وأن يسعى لإحقاق الحق، وأن يستغل قربه من الحاكم، وثقته فيه، فيبسط أمامه ما هو محقق للحق والعدل، وأن لا يدخر جهداً في الوصول إلى ذلك، وهي أمانة في عنقه، عليه أن يؤديها ما وسعه مقامه، وقد أدى أحمد بن أبي دواد هذه الأمانة يوماً في مجلس المعتصم، ومر بتجربة محرجة، ولكنه صبر على ما هو محرج في الدنيا، ليؤمل فيما هو مدخل للجنة مبعد عن النار؛ ونرجو أن يكون قد قُبل عمله، عند من لا يضيع عنده العمل.

«غضب المعتصم مرة على رجل من أهل الجزيرة،

(١) أدب الدنيا والدين: ١٢٠.

وجاء به ليقتل، على ذنب أتاه، فتكلم فيه ابن أبي دواد؛ ثم غلبه البول، فخاف إن خرج، ولم يستوف الكلام، أن يقتل الرجل؛ ولم يعد يطيق الصبر، وكانت ثياب تلك الأيام كثيرة؛ فجمع ثيابه تحته، وبال فيها، وأنقذ الرجل.

فلما قام قال المعتصم: ما بال ثيابك مبتلة؟

فسكت.

فأعاد عليه، فأخبره الخبر، فكاد يغشى عليه من الضحك». [1]

إن الأمر ليس هيناً، فمكانة القاضي في بلاط الخليفة عالية، وهذا أمر مضحك؛ وسوف يتناقل الناس، لأيام وأيام، هذه الحادثة، ولن يسكتوا عنها حتى يأتي ما يشغلهم عنها؛ وسوف تصل إلى المجالس والمنتديات سريعاً، مثل البرق، وسوف تكون تسلية الناس، ولن يقدرها حق قدرها إلا من يدرك كنه الأمور، ويقدر ما قام به القاضي من التضحية.

---

(١) رجال من التاريخ: ١٤٠.

ولكن القاضي، وقد قدّر أن هذا يكون، لم يأبه بما سوف يقوله الناس، ولن يهمه التبكيت، أو الضحك، لأن ما هدف إليه عظيم، يغطي بحجمه كل أمر دنيوي، مهما كان مضحكاً، أو مؤلماً؛ خاصة وأن القاضي الساخطون عليه كثيرون، وسوف يجدون مثل هذه الواقعة فرصة للتندر، بهدف التشفي، ولكن النور يعلن عن نفسه، لا يُغطى كما تقول العامة بالمثل، فها هي القصة تصل إلينا، وتشهد أن ابن أبي دواد قد أدى الأمانة على أحسن وجه، ونرجو أن يفوز على هذا برضى الله.

وتربية الأولاد أمانة في عنق والديهم، أو من يعولهم، إذا فقد الوالد أو الوالدان، وهي أمانة مطوقة للعنق بثقلها؛ لأن الابن أو الابنة عدة المستقبل، وصلاحهما وفسادهما سوف يعود على المجتمع، فإن أحسنت التربية نال المربي أجره، وإن أهمل نال جزاءه على إهماله.

وقد أوجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الإنسان محبة

الابن والبنت، حتى يكتمل عمران الكون وصلاحه، فالصبر عليهم وهم صغار، وتحمل ما يأتي منهم قبل النضج، ومقابلة ما يحتاجونه مما يقتضي الصرف والإنفاق، أمور ثقيلة، لا يضمن الإبقاء عليها، والاستمرار فيها، إلا إذا كان هناك عاطفة جامحة، تُصغِّر الأمر الجسيم، وتتغلب على الصعب.

وفي الأبيات الآتية صورة لثقل الحمل الذي على كتفي أبي البنات، وكيف يتحكم هذا الحمل في تشكيل حياة الإنسان في تصرفه، وتقلبه فيها، وقائل الأبيات شاعر إسلامي:

«قال حطان بن المعلى الطائي:

لَـوْلاَ بُنَيَّـات كَـزُغْـبِ القَطَـا
رُدَدْنَ مِـنْ بَعْـضٍ إِلَـى بَعْـضِ
لَكَـانَ لِـيْ مُضْطَـرَبٌ وَاسِـعٌ
فِي الأَرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالعَرْضِ
وَإِنَّمَـــا أَوْلاَدُنَـــا بَيْنَنَـــا
أَكْبَـادُنَـا تَمْشِـي عَلَـى الأَرْضِ

إنْ هَبَّتْ الـرِّيْـحُ عَلَـى بَعْضِهِـم
لَم تَشْبَعِ العَيْنُ مِنَ الغَمْضِ»[1]

وتُؤدى الأمانة بصورة غريبة مدهشة، يؤديها حيوان ميت، وكان في موته حياة، وفي صمته بلاغة، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد كشف أمر مخبأ، فإنه قادر على أن يأتي بذلك على يد أضعف خلقه، وقد كان ذلك في قصة غريبة عجيبة: حجل مشوي، موضوع على المائدة، يتسبب في كشف جريمة بشعة، مر عليها سنوات، والقصة كمايلي:

«ذكر في كتاب «النشوان» و «تاريخ ابن النجار»، عن أبي نصر محمد بن مروان الجعدي، أنه أكل مع بعض مقدمي الأكراد، على سماط فيه حجلتان مشويتان؛ فأخذ الكردي بيده واحدة، وضحك.

فسأله عن ذلك.

فقال: قطعت الطريق في عنفوان شبابي على تاجر، فلما أردت قتله، تضرع إلي، فلم أقبل تضرعه، ولم

(١) العقد الفريد: ٢/ ٤٣٨، تدريب الناشئين: ١٢٣.

أفلته؛ فلما رأى الجد مني، التفت إلى حجلتين كانتا في جبل، وقال:

اشهدا لي عليه، إنه قاتلي ظلماً.

فلما رأيت هاتين الحجلتين، تذكرت حمقه، في استشهادهما علي.

فقال ابن مروان لما سمع ذلك منه: قد شهدتا والله عليك عند من يقيدك بالرجل؛ ثم أمر بضرب عنقه». [1]

لقد ترك القاتل العنان للسانه، فقاده إلى الهلاك، ولم يكن صوت دم المظلوم يخفت، أو يتلاشى، بل أنطق لسان القاتل، بوحي من رب العالمين، ثم بسبب منظر الحجلتين، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا تضيع عنده الحقوق، وقد أخذ بحق المقتول ظلماً، بعد حين، وعندما أراد.

هذه بعض جوانب عن الأمانة، وملامحها الجميلة، وهي نماذج لبعض مظاهرها، والتراث مليء بالأمثلة التي يقابلها القارئ في عدد لا يحصى من كتب التراث.

(١) حياة الحيوان الكبرى: ١/ ٢٠٧، والكشكول: ٤٠.

# وميض الأقوال[1]

لبعض الأقوال وميض ينير طريقها إلى الفهم، ويمهده للقبول، ويثبته في الفكر؛ وهذا الوميض، وهو يَهديها يهدي إليها، ويعلن عنها، ويعطيها القبول اللائق بها. يمر بها القارئ، أو السامع فتلفت نظره من بين أقوال كثيرة، لا يلتفت إليها، ولا تشد انتباهه، لأنه ليس فيها من الحياة ما في تلك، ولا من الجاذبية ما يحير الرجل، ويوقف القدم.

وميض هذه الأقوال لسان ينادي عليها، وعَلَم يدل عليها، لا يتصور أن تتخطاها العين، أو لا تقبلها الأذن؛ فيها موسيقى خاصة، تميزها من بين النغمات الشاذة، أو النغمات المعتادة. هذه الأقوال بوميضها الخلاب، تبقى جديدة مهما مر بها من زمن، لا تفقد رواءها، ولا يبلى رداؤها، ولا يخبو ضوؤها، أو يبهت بهاؤها؛ تبقى لامعة مضيئة، مثل الجوهرة النفيسة.

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٣٣) في ٢٨/ ٤/ ١٤١٦هـ الموافق: ٢٣/ ٩/ ١٩٩٥م.

وهذه الأقوال إما أن تكون جاءت عرضاً، نطق بها صاحبها عفواً، ودون تكلف لها، أو بحث عنها؛ فجاءت من ركن منزو من ذهنه، خزن أجزاءها هذا الذهن تدريجاً، فلما اكتملت برزت للوجود، مثل البذرة، التي «صَمَّتَ» عليها الأرض دهراً، فلما جاءها الندى والري، رفست الأرض، وخرجت إلى الوجود جميلة قوية، مُرحَّبا بها، ومقدرة مكرمة.

أو تأتي هذه الأقوال نتيجة تدبر وتبصر، وعمق تفكير، وبحث واستقصاء، ومقارنة وتتبع، فتأتي قولاً متقناً، يصيب كبد الحقيقة، ويغزو قلب الواقع، يرضى عنه قائله، ويطرب له سامعه، ويتناقله الرواة كنزاً ثميناً، ويتصيده الأدباء بضاعة مزجاة، يُحلون بها كتبهم، ويجملون بها أحاديثهم، يحرص عليها السابق، ويعتني بإعطائها لِلاَّحق. وقد تهادت هذه الأقوال مع الزمن، تمشي الهوينا، حتى وصلت إلينا، عزيزة مكرمة.

بعض هذه الأقوال عميق، وبعيد الغور، وبعضها

على السطح، يلمس باليد، ولكن القيمة واحدة في الارتفاع، والمقام واحد في الإعزاز، والتقدير، والقبول.

وبعض الأقوال تحتل المكان الأسبق، والمقام الأول بين أخواتها من الأقوال المنيرة، لأنها جاءت من رأس فِكْرُهُ منير، وعقله متميز، يزن الأمور بميزان ذهب دقيق، ولا يتكلم إلا عن روية، وتفكير؛ لا يرسل القول على عواهنه، ولا ينطق بكلمة قبل أن يُحْكِمَها بالتفكير والفحص، ويشذبها، ويهذبها، ويزيد فيها، أو ينقص، قبل أن يلفظ بها، فإذا ما جاءت مماثلة لما وضعه من مقاييس لما يخرج من ذهنه، أرسلها نافعة المدلول، مفيدة المعنى.

فعندما يقف الحجاج خطيباً، ويقول في خطبته أقوالاً صائبة، تقطر صدقاً وحكمة، وهو الخطيب المصقع، والأديب الأريب، والبليغ المبدع، لا نستغرب أن يأتي بالدرر الذي جاء به، ولا بالنور المضيء الذي تدفقت أشعته؛ ولعل ما قاله على المنبر

أداره في ذهنه مرات، وأجاله في رأيه دورات، حتى جاء بهذا التماسك، وتدفق بهذا الانتظام والإبداع.

والحجاج راع، وأمامه رعية، يرعى صالحها، ويبحث عن نفعها؛ والحجاج، وعنده محكومون، في ذمته أن ينصحهم، ويأخذ بيدهم إلى ما فيه خيرهم، وصلاحهم، وراحته هو، وتوطد الأمن والسلامة في المجتمع الذي يحكمه هو، ويضمهم هم؛ وقد أدرك عن طريق دينه، وحسن تفكيره أن النفس أمارة بالسوء، وأنها أول من يقود صاحبه إلى طريق الهلاك، إن لم يعتصم بالدين، وما جاء فيه من تعاليم، لم تترك شاردة في أمور الحياة، إلا وتطرقت إليها، وأبانت ما يجب أن يؤتى، وما يجب أن يجتنب.

والنفس هي، إلا إذا وقى الله، مدخل الشيطان، والباب الذي يلج منه وسواسه، وعن طريقه يُوْهَم الإنسان أوهاماً تخرج به عن الطريق السوي، والفعل الجميل، ويُولجه في الطرق المعوجة، فيرتكب الفعل القبيح، والعمل المنتقد، ويورطه تدريجاً فيما لا ينفعه،

ويدخله لجة الخطأ، خطوة خطوة، فإذا ما تأكد من غرقه تخلى عنه أو جعله وحده يتحمل اللوم، ويتلقى العقاب، ويتخبط في لحجج يَمّ الزلل.

والشيطان ليس جسماً يقف أمام الإنسان بوجه بشع، وأذنين مثل أذني الحمار، وعينين مقلوبتين، وأظافر طويلة، وأعضاء غير متناسقة؛ لا، إنه في داخل الصدور، يغذي الأفكار السامة، ويعرقل الأفكار الحسنة؛ يدعو إلى التشكيك فيما هو معتاد ومقبول، وقبول ما هو ناب ومرفوض؛ يشوه الحسن، ويحسن المشوه، يلبس هذا ثوباً، ويلبس هذا غيره؛ يعتمد على التشكيك، ويتسلح بالمتشابه؛ هو يقظ، ينتهز الفرص، وخير فرصة يوم يضعف الإنسان، لمرض أصابه، أو كارثة نزلت به.

والشيطان عن طريق النفس السيئة لا يرضيه أن يفسد فرداً على نفسه، وإنما يفسده على مجتمعه، بأن يوهمه أن له صفة ليست فيه، وأن عليه أن يطلبها، ويتقمصها، ويقع في أحبولته من تجمعت فيه العقد،

فيخرب بالفرد البيوت، ويقلق الحكم؛ وعصر الحجاج كان يعج بالحركات الموجهة ضد الدولة، غروراً من أناس، أوهموا بأنهم أحق منها، ولكن الحجاج قضى عليهم، وهو في كلمته يدل سامعيه على أحد مسارب الشر في النفس، ويحذرهم من الغفلة تجاهها، ويبصرهم بعواقب ذلك.

قال الحجاج في إحدى خطبه:

«يا أيها الناس، اقدعوا هذه الأنفس، فإنها أشهى شيء إذا أعطيت، وأعطى شيء إذا منعت؛ فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً، وزماماً؛ فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معصية الله؛ فإني رأيت الصبر عن محارم الله، أيسر من الصبر على عذاب الله». [1]

وعلى ذكر الشيطان، ووسوسته، ومحاولته إيقاع الناس في الإثم عندما يجد الفرصة، هناك موقف خشي الرسول ﷺ على بعض الناس في زمنه، أن يقعوا

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٧٩٠.

فيه، فسارع إلى إزالة الأسباب التي قد يتخذها الشيطان مدخلاً عليهم، أو سلماً يرقى عليه ليصل إلى نفوسهم، فيبث فيها الشك، ثم يدخله إلى مرحلة اليقين، ثم يحدث بلبلة في المجتمع، تماثل حديث الإفك، فيعاني المجتمع المسلم ما كان بالإمكان تفاديه، وهو ما سارع الرسول ﷺ إليه، ليزيل أي شبهة، ويبعد أي شك، ويحمي رجلين من الأنصار كانا طرفاً في الأمر، والقصة كمايلي، وفي قول الرسول ﷺ وسرعة تنبهه للأمر، ومبادرته لاتخاذ الحيطة، إضاءة لا تماثلها إضاءة:

«قال علي بن الحسين:

كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتته صفية، فحدثته؛ فلما انصرفت قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ يمشي معها؛ فمر به رجلان من الأنصار، فسلما، ثم مضيا، فدعاهما، فقال:

إن هذه صفية بنت حيي.

قالا: يا رسول الله، وهل نظن بك إلا خيراً؟

قال: فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وقد خشيت عليكما» .[1]

ويشع إشعاع خلف الجمل، فيأتي للمعاني بريق عندما يأتي قول صادق، يصف أموراً عن ترو وتبصر واستقراء، يخرج المتكلم بها بنظم مثل عقد اللؤلؤ، يشد القارئ، أو السامع، ويدهش المتأمل، لصدقه، ولمقدرة قائله على تحري المظهر والمخبر في إرسال الجمل، تعضدها المعاني الحقة:

«كان الرضى أبو الحسن الموسوي النقيب يقول:

من هوان الدنيا على الله تعالى أن أخرج نفائسها من خسائسها، وأطايبها من خبائثها؛ فأخرج الذهب والفضة من حجارة، والمسك من فارة، والعنبر من روث دابة، والعسل من ذبابة، والخز من كلبه، والديباج من دودة، والقصب من حشيشة، والإنسان من نطفة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ .[2]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٣٨٩، عين الأدب: ١٣٧ .
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤، لطائف اللطف: ١٢٠ .

وتومض الكلمات بمعانٍ لا يفهمها إلا خبير بما وراء الكلمات، أما غيره فتمر الكلمة جميلة في مدلولها السطحي، دون معرفة ما في العمق، من معنى أجمل، وقصد أبعد؛ وعند التدبر والتأمل، والتعمق في التفكير، يعثر الإنسان على الدرة المخبأة، والتي خبأها الظاهر من المعنى المجزي، فكفى بعض الناس بذل الجهد فكراً في البحث عما هو أعمق، مما لا يتصور أن له وجوداً، وهذا يفسره القول الآتي:

«من محاسن تعريضات سهل أنه خاطب بعض الأمراء، فقال له:

كذبت!

فقال: أيها الأمير، إن وجه الكذاب لا يقابلك ـ يعني الأمير بذلك ـ لأن وجه الإنسان لا يقابله» .[1]

إن غير المتدبر يقتنع بالمعنى القريب للجملة، وهو أن الكذاب لا يقابل وجه الأمير، إما دعاءاً له بذلك، أو تكريماً له عنه؛ ولكن المعنى البعيد هو أن

(١) سرح العيون: ٢٤٤.

وجه الإنسان لا يقابل الإنسان إلا في المرآة، فمعنى هذا أن الأمير هو الكذاب .

وهذا القول يختلف عن رد الأعرابي على معاوية ، إذ زعم الرواة، ولعله طعناً في الأعراب، وتشويها لسمعتهم، كما سبق أن ذكرنا، أن معاوية قال لأعرابي: كذبت، فقال له، رداً عليه، الكذاب مزمل في ثيابك» .[1]

ومن هنا صار لكلمة سهل وميض، ولمعناها بريق .

والجاحظ أديب له أفكاره، وله أسلوبه، وجاذبية أسلوبه قد شهرته، وجعلت له أنصاراً، ومقلدين، فتنوا بطريقته في التعبير، وإجادة الكتابة، والغوص على المعاني البعيدة، فيما يخص النفس، وما يخص الفكر؛ ويأتي أحياناً بالقول دالاً على أنه قائله، أو معلقاً له على مشجب، يختاره، وغالباً ما يكون أحد الأشخاص المشهورين بما علقه عليه من فكر، فإن كان بخيلاً، وجد الجاحظ أحد البخلاء، فوسمه

---

(١) الكامل للمبرد: ١/ ٤٦٠ .

بالفكرة التي طرأت على ذهنه، وإن كان معلماً جعله ضحية لأحدى تلفيقاته التي لا تخلو من هزء، أو سخرية. أما القول الذي نسوقه هنا فقول مضيء، لأنه يتعلق بالنفس، والفكر المتعلق بالنفس، يحتاج إلى دقة وصدق، حتى يقبل، وهذا القول فيه مغالاة محببة تجاه من لا يكره الناس القسوة عليه، لقسوته على الناس، وهو الحسود:

«قال الجاحظ من رسالة:

من العدل المحض أن تحط عن الحاسد نصف عقابه، لأن ألم حسده لك، قد كفاك شر مؤونة غيظه عليك» .[1]

والمنطق يبنى على الحقيقة له وميض، ومراقبة الأحداث بدقة، والتدبر في التجربة مما يأتي بالقول الصادق، والجاحظ من أولئك الذين أغرموا بالتجربة، القيام بها بنفسه، أو رصد ما يقوم به الناس، فإذا دون ما دون منه، تجد أنك تقبله، لأنك سبق أن

---

(١) سرح العيون: ٢٥٨.

لاحظت ما لاحظ، أو جربت ما جرب؛ فالأمر ليس غريباً عليك، وليس جديداً، تعرفه لأول مرة، ولكن الجاحظ استطاع أن يقول ما لم تستطع أن تقول، وعبر تعبيراً تجده السهل الممتنع، مع سبك فريد، والقول الآتي فيه بعض هذا:

«اشترى رجل من رجل داراً، فقال لصاحبه:
لو صبرتَ لاشتريتُ منك الذراع بعشرة دنانير.
قال: وأنت لو صبرت لبعتك الذراع بدرهم». [1]

أنه أمر يخص دراسة الأنفس، وما يتحرك داخلها، وما يخرج بعد ذلك دالاً على ما كان يجول في الباطن، وكلا الرجلين محق في قوله، والذي أنهى الأمر بينهما هو عدم الصبر، وإلا لو تصابرا، فالله وحده يعلم ما ينتهي إليه الأمر، فقد لا تباع الدار، وقد لا تشترى؛ ويبقى كل من الإثنين ينتظر، وهذا يوصل إلى أنه لابد من التضحية، ففيها التسابق إلى الوصول إلى الهدف، لأنها طريق خير، وتدعو إلى نسيان الذات،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٦١.

والعَزْم يوصل العازم إلى هدفه.

والحكمة تحمل ضياءاً وهاجاً، تهدي به الناس إلى ما هو أقوم، وهي تجربة صادقة، صيغت بقول مشع، لا يعتريها نقص، ولا يزيد فيها فضول؛ لا تزيد عن القصد، ولا تقصر دون الهدف، المتبصر فيها يجد كنزاً، والمقر بما ترمي إليه يلقى ذخيرة، والمنفذ لما تهدف إليه يحظى بغنم، ومن هذه الأقوال الحكيمة القول الآتي، ففي كل مقطع من مقاطعه وميض وهاج:

«أشد الأشياء تأييداً للعقل مشاورة العلماء، والأناة في الأمور، والاعتبار بالتجارب.

وأشدها إضراراً بالعقل: الاستبداد والتهاون والعجلة». (١)

ويصدق القول، فيشع ضياء الحق فيه، ولا يملك السامع إلا أن يقر بصحة ما قيل، وإصابته للهدف، خاصة إذا جاء القول مبتدعاً، وفيه مفاجأة، لم تكن بالحسبان، وممن لا يتوقع منه أن يأتي بهذا، في نظر

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١٩١.

بعض الناس، وفي رد الأعرابي على تساؤل، جاء قوله بديعاً مدهشاً:

«قيل لأعرابي: مالك لا تضع العمامة على رأسك؟
قال: إن شيئاً فيه السمع والبصر، لحقيق بالصون».[1]

وفي الحكم الآتية بريق، وقد أحصاها محصيها، وجمعها جامعها، فنظمها في هذا السلك المنضود، فجاءت صادقة، تدل على ما فيها من معانٍ هي عين الصدق:

«كان يقال:
ست خصال تعرف في الجاهل:
الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد، ولا يعرف صديقه من عدوه».[2]

الغضب خصلة رديئة حتى إذا حدث ما يثيرها، وأسوأ من ذلك أن يغضب الإنسان بدون سبب،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٨٨.
(٢) بهجة المجالس: ٢/ ٥٣٧.

وهذا أحياناً يأتي من عدم الأناة في فهم المقصود، والاستعجال في الحكم. والكلام الموصوف بالهذر، وهو المستفيض دون نفع أو فائدة، دليل على الجهل، وعدم فهم الأمور، وعدم وزنها بميزانها الصحيح، والثقل على أرواح الآخرين.

ومن الجهل الواضح، والخطأ في فهم الأمور على وجهها، أن يعطي المرء عطاء في غير موضعه، فيكون إما مثل جالب التمر إلى هجر، أو باذر القمح في أرض سبخة، تنكر ما يوضع فيها، وتقضي على ما يدخل باطنها؛ ويكفي المرء جهلاً في هذا أنه بعمله هذا أعطى من لا يستحق، وحرم صاحب الحق من حقه، وهذا قلب للأوضاع، وإخلاف لطبع الأمور، وما جبلها الله له.

ومن الجهل المطبق إفشاء السر، لأنه خيانة للأمانة، وتعريض المؤتمِن للضرر، أو حجب المنفعة، التي يؤملها؛ وزعزعة للثقة الموضوعة، وخيبة أمل لمن أمل في أخيه خيراً، وأحب أن يشاركه أمراً عزيزاً

عليه، فلم يقدّر هذا التصرف النبيل.

والصفة الخامسة التي تدل على جهل أن يثق المرء بكل أحد، وهذا يصمه بعدم التمييز، إما غباءًا، أو تهاوناً، وكسلاً، حتى لا يجهد نفسه في الاختيار الذي يسبقه تحرٍّ دقيق، عن طريقه يعرف من يستحق الثقة، ومن لا يستحقها، لأن الثقة أمر ثمين، ولا يجوز وضعها في إناء رديء.

-[1] أما عدم تمييز المرء بين الصديق والعدو، فهو الركن المظلم حقاً في حياته، فليس بعد هذا الجهل جهل، وليس أوسع من هذا الباب مدخلاً للضرر، ومجلباً للأذى؛ فالإنسان هنا يقع فجأة فيما لم يتوقعه، يضع ثقته فيمن يظنه صديقاً، ثم يتبين في الوقت الحرج أنه عدوه، وأنه أسلمه قياده، ليقوده إلى ما يشفي صدر العدو، ويطفئ حقده؛ أو ينفر من شخص، فيه الخير له، وهو يظنه عدواً؛ فيضيع عليه مسند قوة كان عليه أن يتقوى به على تقلب الأيام.

---

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

وتضيء أنوار الصدق بإشعاع بهيج في حكمة أخرى، ذات أوجه ثلاثة، لا يتخللها عيب في صياغتها، ولا يعتريها خطأ في مدلولها؛ من طبقها على الواقع وجدها مطابقة، ومن تتبعها فيما بينه وبين الناس من صلة وجدها كما قالها يحيى بن خالد:

«كان يحيى بن خالد يقول:

ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها:

الكتاب على مقدار عقل كاتبه، والرسول على مقدار عقل مرسله، والهدية على مقدار عقل مهديها» .[1]

والكتاب صورة منعكسة عن عقل صاحبه، وبدؤه فيه عليه دلالة، وختامه لسان صدق في ذلك، ومحتواه بيان واضح؛ فإن كان الكتاب منسق البدء والمتن والخاتمة، فصاحبه ذو عقل مرتب منظم، وإن جاء القول فيه مركزاً، واضحاً، لا لبس فيه، ولا إسهاب ممل، ولا اختصار مخل، أوحى بعقل منير،

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٥٣٧، المحاسن والمساوئ: ١٥٦.

وتحكم في نتاج الفكر متقن؛ وإن جاء مشوشاً، بدؤه غير لائق، وختامه في غير محله، ومحتواه متحاسد، يسبق ما يجب أن يتأخر، ويتأخر ما يجب أن يسبق، سقط الكتاب وسقط معه كاتبه، أو ممليه. وَعَدَّ صاحب «المنمق» من بين حمقى قريش عبدالله بن قيس ابن مخرمة بن عبدالمطلب، ودلل على حمقه، بكتاب كتبه للخليفة، والقصة كمايلي:

«كان عمر بن عبدالعزيز ولّى عبدالله هذا مكة فكتب إلى عمر بن عبدالعزيز، فبدأ بنفسه:

«من عبدالله بن قيس إلى عمر أمير المؤمنين».

فقيل له: ويحك! تبدأ بنفسك، قبل أمير المؤمنين؟

قال: إن لنا الكبر عليهم.

فلما بلغ عمر كتابه، وقوله، قال:

إنه والله أحمق من أهل بيت حمق». [1]

إن أمراً صغيراً قد كشف عن أمر كبير، مثل مفتاح صغير يفتح باباً ضخماً، يفضي إلى غرفة فسيحة.

---

(١) المنمق: ٣٩٣.

لقد جهل عبدالله ما تعورف عليه في فن الكتابة في زمنه، فلما نبه كابر، وعلل خطأه بأن أقام أساس عمله على السن والمقام، أو أنه كان جاهلاً، وحاول بهذا التعليل أن يغطي على جهله؛ وقد جرت العادة في زمنهم أن يبدأ الصغير أو الأدنى بتقديم اسم المخاطب الكبير أو الأعلى، فخالف عبدالله ذلك، فانتُقد، فعلَّلَ، فسقط في أعين من حوله، ومن عين خليفته، وهو مَن كرّمه بالمنصب، ورفع به مقامه، ولكن المنصب لم يغط على حمقه، بل أبانه، وأوضحه؛ لأن الحمق يأبى إلا أن يطل برأسه، ويسم صاحبه بميسمه.

والرسول يرسله المرسل يدل اختياره على عقل مرسله، لأن الاختيار أول مرحلة في التوفيق والنجاح إن أجيد، وأول أسباب الأخفاق إذا تعداه التوفيق، أو قصر دونه. والرسول المختار اختياراً حسناً، يجيد حمل الرسالة، ويتقن نقل ما حمل به؛ ويتصرف التصرف اللائق إذا جد أمر لم يكن بحسبان المرسل،

ولم يُنَبَّه الرسول إليه؛ وكم حامل رسالة أصلح بين متخاصمين، وقرب بين متباعدين، وسالم بين متحاربين، وكم رسول عكر صفو علاقة قائمة، وأفسد صلة صالحة. فعلى هذا، الرسول صورة مطابقة لمرسله، لأن الطيور على أشباهها تقع، فمن أرسل صالحاً فهو صالح، ومن أرسل ناقصاً فهو مثله.

والأمر يتوقف أحياناً على الظرف، فقد يُختار الأحمق، لأن الموقف يقتضيه، استهانة بالمرسل إليه، أو إهانة له، وقد يُختار العنيف لأن الموقف يحتاجه، والأمر يتطلبه، إلا أن في هذا مخاطرة؛ وإرسال العاقل أضمن، وبإمكانه أن يلبس اللباس اللائق بالموقف إن عنفاً، أو استهتاراً، والتطبع لسبب، والتصنع لغرض، خير من الاعتماد على الطبع في مثل هذه المواقف، لأن العقل والرزانة هما المهمان في مثل هذه الأمور.

والهدية تدل على مهديها، وما يدور في ذهنه، وما عليه ذوقه، وملكة اختياره؛ وقد تدل الهدية

على المحبة من مهديها، أو على غناه؛ أو على اعتراف بفضل، أو إقرار بمعروف، وفي كل حال يكون اختيارها صورة لعقل مهديها، وما تنطوي عليه نفسه، وما يصل إليه عقله. فقد تكون الهدية كبيرة، ولكنها غير لائقة، مثل مهدي الفِيل الأبيض في القصة المشهورة، فيل مقدس، لا يستفاد منه، يحتاج إلى مؤونة باهظة، يصبح نكبة نازلة على المهدى له.
وقد تكون الهدية صغيرة، ولكن فيها من الذوق، والفائدة، ما يدل على حسن اختيار، وعمق تفكير، واعتناء بالمهدى إليه؛ وأهل الغرب يقولون: ليست الهدية هي المهمة، ولكن المهم الفكر الذي خلفها، فهي بالنسبة لهم التفاتة مقدرة، تدل على تذكر صاحبها للمهدى إليه، في وقت لا يلام إن نسي، فإذا تذكر أحدهم صديقاً، أو قريباً في عيد من الأعياد، وأرسل له هدية رمزية، فرح بالتذكر الذي وراءها، وأن النسيان لم يخيم على ذهن مرسلها، فينساه في هذه المناسبة المفرحة.

وقد وجدوا بالتجربة أنه من الصعب إتقان اختيار الهدية، وقد يكون الاختيار جيداً، إلا أن المهدى إليه عنده مثل هذه الهدية، وقد يكون بحوزته عدد منها؛ وتأتي صعوبة تذكر ما أهدي في عيد سابق، ويخشى المُهدي تكرار ما سبق أن أهدى، ولهذا تعارفوا فيما بينهم أن يسلكوا طريقاً مريحاً للطرفين، يريحهم ذهناً وعملاً، فدلهم تفكيرهم على أن يشتروا بطاقة من نوع خاص تسمى (تُوْكِنْ)، لها ثمن معين مسجل عليها، تخص أحد المحلات التجارية الكبرى، يبعثها المهدي، ويأخذها المهدى له، فيشتري بها ما يريد من هذا المحل التجاري، وقد يختار بضاعة أغلى، فيضيف من جيبه ما يكمل ثمنها.
وقد رضوا هذا الأمر، ولم يعد وجود ثمن الهدية على البطاقة محرجاً، بل أنه مفيد، لأن رد الهدية بمثلها فيما بعد سوف يكون سهلاً. وبهذا طاح عنهم عبء ثقيل.

ترى هل سيأتي يوم نفعل فعلهم، ونختار طريقتهم،

ونحمد نهجهم، أو سيبقى أمر ظهور المبلغ محرجاً لنا، ويكون الأمر في نظرنا كأنه مال معطى. قد يبدأ الأمر عندنا كما بدأ عندهم بين العائلة الواحدة، ومن الكبار للصغار، ثم تدريجاً يدخل متسللا مثل السارق إلى هدايا الكبار والمتباعدين، مثلما حدث عندهم.

ويبدو أن الهدايا عندهم كان لها في ذهنهم اعتبار شغلهم، فكان لهم في الهدايا أقوال تروى، مثل القول السابق؛ فهم يقولون: «لا تفر» أسنان الحصان الذي يأتيك هدية، أي لا تفتح فمه، وتنظر أسنانه، لتكتشف أهو صغير في السن أو كبير، أي لا تقوِّم الحصان، لتعرف ثمنه، لأن الهدية هدية، وليست بثمنها. وهو قول شائع بينهم، ومثل سائر، كثيراً ما يستشهدون به.

والتعبير البديع يأتي باسماً، فيضيء جوانب الجملة، فيشرق ضحى معناها، ويكون لها جاذبية تبقيها حية على اللسان، قريبة حين تستدعى،

صادقة حين يستشهد بها، الحقيقة فيها جلية، والصدق فيها من طبيعتها؛ أفادتها صياغتها، ودخول الاستعارة فيها، أما معناها في الحقيقة مجردة فلا يلفت النظر، ولا يجذب السمع، والقول الباسم المضيء هو:

«قال آخر لرجل رآه سميناً:

أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك» .[1]

ومع الاستعارة وضيائها، جاءت السخرية الباسمة، فجعلت مع النور نوراً؛ ولعل هذا الوصف قد لقي من السمين قبولاً، لأن من المشتهر عن السمان أنهم باسمون، وأنهم إذا بذلوا جهداً، وزالت عنهم السمنة زالت معها الابتسامة؛ وللمرء على هذا أن يختار أحد النقصين.

ويلمح إياس بن معاوية، وهو من عرف بذكائه، وقوة فراسته، ضياءاً في قول مرّ بسمعه، وحكمة لامست ذهنه، وقول صائب تدبره عقله، فتمسك بقائله، واستدره زيادة على ما قال، واستنطقه ما رأى

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٩، البصائر: ٢/ ٩٢.

أن فيه فائدة له، لأنه لماح، وبمجرد ما بدرت بارقة مبهجة جرى خلفها، والقصة كالآتي:

«قال إياس بن معاوية:

خرجتُ في سفر، ومعي رجل من الأعراب، فلما كان ببعض المناهل لقيه ابن عم له، فتعانقا، وتعاتبا، وإلى جانبهما شيخ من الحيّ، فقال لهما الشيخ:

أنعما عيشا، إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة؛ ولا خير في شيء ثمرته العداوة.

فقلت للشيخ: من أنت؟

قال: أنا ابن تجربة الدهر، ومن بَلاَ تَلوُّنَهُ.

فقلت له: ما أفادك الدهر؟

قال: العلم به.

قلت: فماذا رأيت أحمد؟

قال: أن يُبقِيَ المرء أحدوثة بعده.

قال: فلم أبرح ذلك الماءَ حتى هلك الشيخ،

وصليت عليه» . [1]

كان التقدير، في زمن مضى، للشيخ الكبير، متناهياً، لإدراك الناس لفائدة السن، لأن معه عصارة تجربة زمن طويل، ونضجها، وهي ما ينقص الشباب، مما لا يعوضه شيء، وما على الشباب إلا أن يرضعوا أثداء التجارب، ويخزنوا منها ما يستطيعون، ماداموا يستطيعون ذلك، ومادام أصحاب التجارب أحياءاً. وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم سوف يعانون مكابدة الأحداث، والمرور بالتجارب التي مر بها غيرهم، وتكون لهم حصيلة مثل حصيلتهم، وقد تزيد، وقد تنقص.

والعلم الذي في الكتب، ومنه تطلب الثقافة، ما هو إلا حصيلة تجارب جمعت، وصنفت، وعرضت في ثوب قشيب، يلبسه من قدره فطلبه؛ ومثله المهن، وما وصل إليه أصحابها منها؛ يضيف اللاحق ما دونه السابق، فتعلو ربى العلم، وتزداد حصيلة المخزون.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٣٧.

وما روي عن ابن القرّية يدل على عقل ورزانة، لأن أقواله تتسم بالحكمة، وصواب الرأي، وإن كان هناك من يقول عنه أنه شخص لا وجود له إلا في ذهن من ركّب عليه الأقوال، والذي يهمنا هنا هي الأقوال، وصحتها، وإصابتها للهدف، وما تدل عليه من صدق، وما توحي به من أنها عصارة تجربة متبصرة:

روي عن شيخ من قريش قوله:

«قال أيوب بن القريّة:

الرجال ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر.

فالعاقل إن كُلِّمَ أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع وعى.

والأحمق، إن تكلم عجّل، وإن تحدّث وَهِل (ضعف)، وإن حمل على القبيح فعل.

والفاجر، إن ائتمنته خانك، وإن حادثته شانك.

وزاد في غيره: استكتمته سراً لم يكتمه عليك». [1]

(١) العقل وفضله: ٤٧.

وأسقط ابن القريّة المجنون، لأنه لا يعده من الرجال، الذي يمكن للمرء أن يخالطهم، أو يتحدث إليهم.

وهذه كلمات لها وميض الحق والصدق، وإصابة الهدف؛ فيها النفع لمن تدبرها، وأخذ بها، وكيَّف حياته عليها، لأن فيها النفع من العاقل، واجتناب الضرر من الأحمق والفاجر؛ وقد أجاد ابن القريّة ابراز مأتى النفع مع العاقل، وأحسن وصف مداخل الضرر مع الأحمق والفاجر.

فالعاقل مفيد فيما يُعطِي، ومفيد فيما يُعطَى، فأيّاً كان موقفه فالفائدة معه، والنفع في جانبه، فإجابته ضياء، وحديثه نور، واستماعه وهج بهيج.

أما الأحمق فخلاف ذلك، مهتز موقفه أَيّاً كان، يتعجل القول قبل وزنه، ويسبق قوله فكره، فهو بهذا يُقَدِّم العربة على الحصان؛ طريقه الذي يختاره فيه الزلل، وعادته فيه فيها الخطل، وفوات القصد، وفوق هذا فهو لا يعف عن فعل القبيح إذا جاء في

طريقه، لأن المروءة الرادعة قد نزعت من صدره لحمقه.

والفاجر وهو أسوأ من الأحمق، لأن الضرر منه كبير، ووقوعه متحقق، لما عليه الفاجر من نفس خبيثة، ونية غير صالحة، فهو جدارٌ واهٍ لا يعتمد عليه، ومنظر يغش من يراه، تبرأت منه السموات والأرض؛ وداخله لا يسر من بحث عنه، فسرعان ما تكشف فيه ما لا يسرك، بمجرد الحديث إليه.

هذه هي القواعد التي رسمها ابن القريّة، وهذه هي الأسس التي أقام عليها رأيه؛ ويبقَى على من أراد الأخذ بها عبء آخر، وهو سرعة التمييز بين هؤلاء الرجال الثلاثة، من أول وهلة، حتى يستطيع أن يقرر طريقه.

ويأتي قول من معاوية له وميض بهيج، يضيء ما حوله، ويرحب به من يسمعه، لصدقه، وهو حري بمعاوية:

«قال معاوية:

العقل عقلان: عقل تجارب، وعقل نَحِيْزَة، فإذا اجتمعتا في رجل فذاك الذي لا يقام له، وإذا تفردا كانت النحيزة أولاهما». [1]

معاوية هنا اختصر ما يسهب فيه دارسوا العقل اليوم، وجاء بجمل محكمة، تفصيلها يأخذ صفحات وصفحات؛ وقوله يتفق تماما مع ما توصل إليه مفكروا اليوم؛ ومؤداهُ أن الإنسان يولد وعنده استعداد فطري لميزة من الميزات؛ ثم تصقلها التجارب، وتنميها الثقافة، والثقافة اطلاع على تجارب مدونة، عاناها أناس في عصور سالفة.

ثم عاد معاوية، فِعْلَ المُفَكِّرِ الواعي، ودون أن يقول، فأوحى بفائدة العقل النحيزة، وهو عقل الفطرة، أو السليقة، وأوحى أيضاً بالعقل تنيره التجارب، ولكنه جعل قمة العقل أن يجتمع العنصران معا. وهو قول بدهي، ونحن نراه الآن، ولكن ما كان لأحد أن يضعه بهذه السهولة إلا معاوية، ليدخل في

---

(١) العقل وفضله: ٥٠.

نظرنا حيز السهل الممتنع .

ولم ينس ، وهو المحلل الدقيق ، أن يرجح النحيزة على التجربة ، ويمكننا حدس السبب ، والتنبؤ بما دار في ذهنه ، ليصل إلى تقديمها على التجارب ، فالتجارب لا تفيد بحال من الأحوال إذا لم يكن لدى الإنسان استعداد كاف ، ليستفيد من الطبيعة ؛ ويمكن أن نصور النحيزة ، أو السليقة ، بالتربة الخصبة ، التي تنبت ما يوضع فيها من بذر ، أما غياب السليقة ، فمثل الصخرة إذا لامسها الماء انسلح منها ، وضاع في التراب غير المعد للقبول .

إن الضوء الذي يشع من قول معاوية باهر كما رأينا ، وإن تحت هذه الكلمات المحدودة معاني كريمة وشريفة ، تليق بخليفة سمع من الرسول ﷺ وخدمه ، في حقل من أنبل الحقول ، وهو كتابة الوحي ؛ ومعاوية ، بعد هذا ، من أسرة بارزة في مجتمعها ، أيام الجاهلية .

ولا غرو أن يهتم معاوية بالعقل ، فيحلل وجوده ،

ويحلل عمله، فالعقل من الأهمية بمكان للعقلاء، لمعرفتهم قدره، ولتقديرهم لدوره، حتى أن بعضهم ظن أن العلم قد يرجح عليه، وهو ظن أنكره آخرون، والنص الآتي يبين هذا:

«قيل لقتادة أي الناس أغبط؟

قال: أعقلهم.

قلنا: أعلمهم؟

قال: أعقلهم». [1]

وهذا يتماشى مع رأي معاوية، ويسير معه على جادة واحدة، فالعقل وحده ضمان لوصول الإنسان إلى الهدف، وحصول النفع، واجتناب الضرر، لأنه أداة فاعلة وحدها، دون أن تحتاج إلى رديف، بدونه لا تعمل. أما العلم وحده فلا يفيد، إذا لم يعضد بعقل واع، يضع العلم في مكانه، ويفيد الإنسان منه وقت الحاجة. ولهذا أصر قتادة على أن الحظيظ هو العاقل.

---

(١) العقل وفضله: ٤٢.

ويأتي قول مبهج منير من الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز، دل على فكر ناضج، وتجربة صادقة؛ وعمر بن عبدالعزيز من الذين ينسون أنفسهم عادة، أمام مصلحة المجتمع؛ وقوله الآتي يدل على أنه يتفق مع كثير من المتدبرين في فائدة الجلوس إلى الناس، لما في ذلك من تلقيح العقول؛ لأن الاتصال بالفئات المختلفة من طبقات المجتمع، تكشف أولاً بأول عما جد على المجتمع من تطور، وما بدأ يؤثر عليه من اتجاهات؛ والحاكم هو أول من يحتاج إلى معرفة ذلك، لأن الحكم الصائب الذي سوف يصدره في الأمور المختلفة، التي تعرض عليه، يقوم على معرفته بالأمور الجديدة، وبما يدور في أذهان الناس، بأنواعهم، وأجناسهم، وأجيالهم:

«حدث ميمون بن مهران، قال:

قلت لعمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ ليلة، بعدما نهض جلساؤه:

يا أمير المؤمنين، ما بقاؤك على ما أرى؟ أما أول

الليل، فأنت في حاجات الناس؛ وأما في وسط الليل، فأنت مع جلسائك؛ وأما آخر الليل، فالله أعلم ما تصير إليه!

قال: فعدل عن جوابي، وضرب على كتفي وقال: ويحك يا ميمون! إني وجدت لُقِي الرجال تلقيحاً لألبابهم». [1]

وهشام بن عبدالملك استطعم الملذات، وقضى وطره من كل شيء ممتع، فلم يجد لذة مثل لذة الجلوس مع جليس، ولا طعماً ألذ من الحديث معه:

«قال هشام بن عبدالملك:

قد قضيت الوطر من كل شيء، ؛ فأكلت الحلو والحامض، حتى لا أجد لواحد منهما طعماً؛ وشممت الطيب، حتى لا أجد له رائحة؛ وأتيت النساء، حتى لا أبالي امرأة أتيت، أم حائطاً، فما وجدت ألذ من جليس، تسقط بيني وبينه مؤونة التحفظ». [2]

---

(١) العقل وفضله: ٥٣.

(٢) سئل معاوية عن باقي لذته، فقال: «محادثة الرجال»، الكامل للمبرد ١/ ٣٨٠، وقيل ثلاثة ينسين المصائب: «مر الليالي، والمرأة الحسناء، ومحادثة=

والحرب من الأمور التي شغلت كل جبل، ولم يسلم منها بلد، أو عصر، فكل قد اكتوى بنارها، مباشرة بحمل السلاح فيها، مهاجماً أو مدافعاً؛ أو اكتوى بآثارها من خوف، وجوع، ونقص في الأموال والثمرات. والحرب بشعة، ذات وجه كالح، فليس منها إلا قتل الرجال، وإيتام الأطفال، وجعل النساء حزينات وأيامى، من لم تقتله الحرب شوهته، وسلبته لذة متعة الحياة، وجعلته يقضي عمره يعاني نقص جسمه في جانب من جوانبه.

وقد قرأت قولاً مضيئًا مسهباً، مضيئًا في جملة من جمله، صادقاً في بعض ما تطرق إليه ولمسه، وهو كمايلي:

«إعلم أن أول الحرب شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى. الحرب شنعاء عابسة، شوهاء كالحة؛ حرور في حياض الموت، شموس في الوطيس، تتغذى بالنفوس، الحرب أولها الكلام، وآخرها الحمام.

---

= الرجال»، حدائق الإزاهر: ٢٨٥، سراج الملوك: ٢٣٠.

الحرب مرة المذاق، إذا قلصت عن ساق؛ من صبر فيها عُرف، ومن ضعف عنها تلف؛ جسم الحروب الشجاعة، وقلبها التدبير، وعينها الحذر، وجناحها الطاعة، ولسانها المكيدة، وقائدها الرفق، وسايقها النصر» .[1]

ويحتار أناس في إنفاذ الحزم، هل هو في الشدة الدائمة، والقسوة المتناهية، والتكشير المستمر، والبعد عن الابتسام، وتقريب الحاجب من الحاجب، ورفع الصوت، وتشديد اللهجة، وإن لم يكن هذا دائماً، فمتى يكون، ومتى لا يكون، ومتى يرتكب، ومتى يبتعد عنه؛ أو هو في خلافهِ؛ ويحتار من يريد أن يسلك السبيل الموصل في هذا الأمر؛ فيأتي ملك من ملوك المماليك، في أحدى القلاع في جنوب فلسطين، لعلها «الكرك» أو «الشوبك»، في أيام الحروب الصليبية، ويحكم حكماً ليناً، تعدى الحدود المقبولة، وقصر عن القوة التي تحفظ الأمن على

---

(١) سراج الملوك: ٥٠٥.

الطرق؛ وكان، إذا أتوه بقاطع الطريق القاتل، قال: «اطلقوا سراحه، فالحي خير من الميت».

وهذه كلمة شيطان أوحى بها في ضوء ما يمر به المسلمون في هذه المنطقة، في تلك الفترة، والناس في حاجة إلى مقاتلين أمام الصليبيين، ولكن الأعراب جنوب فلسطين، وعلى طريق الحج لم يكونوا يقاتلون الصليبيين، وإنما كانوا يغيرون على قوافل الحجاج، والآمنين العزل. وكانوا عبأً خلف الجيوش الإسلامية الغازية.

استمر ملك هذه القلعة في سياسة اللين هذه، فداس الأعراب مهابته، واستخفوا بسلطته، وتمادوا في غيهم، حتى بلغ بهم الأمر أن نهبوا «وِطَاقَهُ»: مخيمه، ونهبوا معسكره. فلما مات هذا الملك، وحل محله آخر، ورأى ما يعملون، انتهز أول فرصة خالفوا فيها، وقطع أحدهم على إحدى قوافل الحج طريقها، وقتل ونهب؛ فأخذ هذا الملك رؤساء القبائل، وسجنهم، وهدد بأنه إذا لم تأتِ القبائل بالمهاجمين

القتلة، فسوف يقتص من رؤسائهم بقتلهم، وحدد لهم وقتاً، فجاؤا بهم خاسئين؛ فأطلق سراح الرؤساء، وهددهم أنه سيأتي بهم، إذا قطع الطريق، وأنه في المرة القادمة لن يمهلهم.

فاستقام الأمر، وأمنت السبل، واطمأن الحجاج، ولم يكن بإمكان رؤساء القبائل، أمام القوة والحزم إلا أن يطيعوا، لأنه هددهم أن يصرف جيوشه عن الصليبيين إليهم، فخافوا هذا، لأنه ممن إذا قال فعل؛ ولأنهم ليسوا في غنى عن الهبوط إلى أسواق القلاع في تلك المنطقة لشراء حاجاتهم.

ومثل تصرف الملك الذي جانبه الحزم أقلق الجاحظ تصرف مماثل حدا به إلى أن يقول:

«من قابل الإساءة بالإحسان، فقد خالف الرب في تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة الله ـ جل ثناؤه ـ والناس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب».[1]

وحتى لا يظن أنه يحارب العفو الذي حث الله

---

(١) سراج الملوك: ٢٥٨.

عليه، وأمر به في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .(١)

أو قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ .(٢)

أو قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ .(٣)

وإنما أراد الجاحظ العفو في غير محله، مما يبطل الحدود، ويمحو العقاب الذي وضعه الله للمذنبين في الدنيا. وقد قال أحد الذين كانوا يُجْلَدُون حداً لأحد الخلفاء: «ارحمني» قال: «لم يرحمك من أوجب الحد عليك».

ولهذا سارع الجاحظ يبين بتفصيل أوفَى ما أراده.

«أي رئيس كان خيره محضاً عَدِمَ الهيبة، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة؛ وقتل في موضع القتل، وأحيا في موضع الإحياء، وعفا في موضع العفو، وعاقب في موضع العقوبة، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالف الرب في تدبيره،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

وظن أن رحمته فوق رحمة ربه» .[1]

كأن الجاحظ يقول : تمسك بالدين في أمر العقاب أو العفو، ولا تخرج عن الحدود التي رسمها، بمحاولة التخفيف فيما لا يجب فيه التخفيف، حتى لا يبدو منك سوء أدب مع ربك، في أن ترى غير ما أمر به دينك، وهو شريعة ربك الذي أمرك بالسير عليها .

وهذا قول فيه وهج الحقيقة، ووميض الحق، يهدى إلى التي هي أحسن، لدنيا المرء وآخرته .

ويدلهم الأمر على عالم، وتخيم الظلمة على ما أمامه، فلا يرى سبباً لأمر بدا له غريباً أن يتخذ، ولم يصل تصوره إلى ما وصل إلى غيره من معرفة بداخل الأمر، فبدا الأمر له غريباً، لا مبرر لوجوده؛ ثم انتقل من موقعه إلى موقع الآخرين، فعانى معاناتهم، وأحس بما أحسوا به، وكوت النار يده مثلما كوت أيديهم، فعرف ما يكمن وراء الظاهر، وزال العجب، وارتفعت الدهشة، وبرق وميض، أبان نوره ما أخفته الظلمة

(١) الحيوان: ٢/ ٨٧.

من قبل:

«قال الحسن مرة:
ما حاجة هؤلاء السلاطين إلى الشُّرَط؟
فلما ولي القضاء، كثر الناس عليه، فقال:
لابد للناس من وَزَعَة» .[1]

كثيراً ما ينتقد الإنسان غيره، لقصور فكره عن إدراك حقيقة الأمر، ومعرفة الأسباب التي تكمن خلف ظاهر الأمر، والسبب أن الميل إلى انتقاد الآخرين، يسبق في نفس الإنسان تلمس العذر، وهذا يعود إلى طبيعة كثير من الناس، مما يصرفهم عن التفكير في غير ما يتماشى مع طبيعتهم، لأن هذا أكثر راحة لهم، وفي السير خلاف السليقة تعب وعناء.

أما منطلق الحسن البصري فيختلف، فمنطلقه ـ رحمه الله ـ هو التوفير لبيت المال، وعدم تحميله بما يمكن الإستغناء عنه، ولعله يرى في هذا بعض الأبهة والمظهر، وهو ما لا تقبله نفس الحسن؛ وهذان

(١) الكامل للمبرد: ١/ ٣٥٠.

العنصران صرفاه عما اكتشفه فيما بعد، عندما دخل عملا، عما كان الناس عليه، مما كان يرى ظاهر الأمر فيه، ولم يسبر غوره، أو يلتفت إلى جوانبه الأخرى.

والبحث عن العذر لدى الآخرين أمر يحتاج إلى علم أو تجربة، أو هما معاً، حتى يستطيع الإنسان أن يعسف نفسه عن السير خلف أول فكرة تعن له، ويعلمها كيف تقلب الأمر على وجوهه، وتنقل صاحبها من مكانه إلى مكان الآخرين، ليرى من ذلك الموقع، ما كان يراه الآخرون، مما لم يكن يراه، ويعرف الأسس التي بنوا عليها حكمهم، وأقاموا عليها عماد أعمالهم.

والشباب أقرب إلى الزلل في هذه الأمور، لجدتهم على أحوال الزمان، واعتمادهم على الظاهر، إنسياقاً وراء العاطفة؛ وهذا يدخلهم في صدام في آرائهم مع أهلهم، الذين عركوا الحياة، وسبروا أغوارها، وتعودوا أن لا يتبعوا أول بارق، فيؤملوا من ورائه مطراً، وهو خلب؛ ولا «يستبينون الرشد إلا ضحى

الغد»، وبعد أن يكون فات الأوان، وحصل الضرر، ولم يعد بمقدرة راتق أن يرتق الفتق، وتكون نتيجة الأمر ندامة وحسرة، لا ينفع شيء منها النادم أو المتحسر.

وليس أكثر بهاء، ولا أنقى رواءاً، من النصيحة، تأتي من مخلص، ويسوقها عاقل، ويهديها مجرب؛ إنها تأتي، يسبقها نورها، وتقدمها بهجتها؛ يقبلها العاقل، ويتمسك بها النبيه؛ وهي عصارة تجربة عُمْر، ونتيجة تفكير ذهن، قلّب الأمور على وجوهها، وقارنها وهو يمر بالحوادث، حتى تمكنت الصورة الحقيقة في ذهنه، ووضحت له وضوح الشمس في رابعة النهار:

«خُبِّرت أن رجلاً من الأنصار قال لابن عبدالرحمن ابن عوف:

ما ترك لك أبوك؟

قال: ترك لي مالاً كثيراً.

فقال: ألا أعلمك شيئاً هو خير لك مما ترك لك

أبوك؟ إنه لا مال لعاجز، ولا ضياع على حازم، والرقيق جمال، وليس بمال، فعليك من المال بما يعولك، ولا تعوله». [1]

إنها نصيحة غالية، يستحقها ابن عبدالرحمن بن عوف، الصحابي الذي كان مرشحاً من بين المرشحين للخلافة؛ وعبدالرحمن ـ رضي الله عنه ـ كان من الموسومين بالخير، في أي اتجاه اتجهه، كان عاقلاً رزينا، وكان ماله كثيراً، استفاد منه الإسلام والمسلمون، في وقت كانوا في حاجة إلى الرفد، ولم يكن يبخل به؛ وكان عارفاً بالتجارة، متقناً لها، وكان يأتيه الناس يأخذون رأيه فيها، فكان يعطيهم عصارة تجربته؛ وإذا سئل عن سر نجاحِهِ، أجابهم بالصدق، وَرَجَا لَهُمْ خيراً؛ فلا غرو أن يضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ في طريق ابنه، من ينصحه هذه النصيحة القيمة، في كل وجه من وجوهها.

لقد هداه إلى أن النشاط، والعمل الجاد، هما

---

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ٦٩٨.

السبيل ـ بعون الله ـ لكسب المال، فالتراخي والكسل، والاعتماد على الآخرين، أمور لا تأتي بمال، بل إنها تضيع المال إذا وجد؛ ثم حثه على الحزم، وعدم التراخي في الأمور، وإنه إن فعل ضمن ألا يضيع عليه أمر، ولا يقصر عن هدف؛ ثم نبهه إلى أن امتلاك الرقيق، رجالاً ونساءاً، فيه جمال ومنظر، وأنه أمر يغري بالتزين، خاصة للشباب في ذلك الوقت الذي امتلأت فيه البلدان الإسلامية بالرقيق، وأصبح مجالاً للتفاخر، في عدده وجماله؛ وأصبح المانع لنفسه من الانجراف في هذا التيار مثل القابض على الجمر.

لهذا رأى هذا الأنصاري الكريم أن يُضَمِّن نصيحته هذا الجانب المهم، لما فيه من خطورة على هذا الشاب، الوارث لثروة عظمى، لأنه إن دخل في شراء الجواري، اللاتي لا حد لاختلاف جمالهن ودلالهن، وما يتقنّ من مهن العزف، والغناء، وهو ما وقع فيه كثير من الناس في هذه الفترة، وما بعدها، مما أصبح طوفانا، فسوف يغرق، ويضيع ماله ودينه.

ونبهه ألا يحسب قيمة الرقيق رأسمال، وألا يخدعه هذا الجانب المخدِّر، فإنه في الحقيقة ليس بمال، بل هو باب لضياع المال، لأن هذه أفواه، تطلب الأكل، وأجسام تطلب اللباس، ودورٌ للإيواء، وتبرز حاجة للمزيد منهم، ليخدم بعضهم بعضاً، على حساب السيد الغافل، حتى توقظه الحقيقة، عندما يطرق الإفلاس بابه، ويضرب الفقر، عند أذنه، بوقه.

وهذا أمر يقع فيه كثير من الشباب الوارثين للثروات، فقد يكون بعضهم محروماً في زمن والده، لأن والده لم يرد أن يعوِّده على البذخ والترف، حماية له، فجعل ما يعطيه لا يزيد عن حاجته الملحة، فإذا مات والده، أخذ يصرف بيديه ورجليه، وكأنه يريد أن ينتقم لنفسه، وهو في الحقيقة ينتقم منها؛ ثم يفسح لنفسه المجال للصرف، ويجاري أنداده ممن لم يكن يجاريهم في حياة والده، ويتعداهم في المنافسة، ويظن أنه بهذا يخنسهم، وهو في الحقيقة، يركس نفسه، ويقربها من هاوية سحيقة؛ ويصبح

مثل شارب ماء البحر، لا يزيده الشرب إلا عطشاً، إذ لا حدود لحياة البذخ والترف.

وقد لا يكون الوارث محروماً في حياة والده، بل مترفاً، منعماً، فلا يجد بعد وفاة والده ما يدعوه إلى أن يخفف من هذا الترف والنعيم، بل تدريجاً يزيد فيه، حتى يصبح عِبْأً على ثروته، حتى يقضي عليها.

والحقيقة أنه لا قاعدة متقنة، أو مضمونة، يمكن أن يتخذها أب مع ابنه حتى يضمن له بعد وفاته المحافظة على ما ورثه، ولعل أقرب الأمور إلى الأمل في الاستقامة في الصرف هي الوسط، لا إفراط ولا تفريط؛ مع ما يجب من المراقبة المتأنية، والتنبيه الهادئ، والإرشاد المستنير.(١)

ونحن اليوم في زمن أصعب من زمن آبائنا، فالملهيات كثرت، والمغريات تنوعت، والبلدان

(١) كان لمالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ بنت تحفظ كتابه «الموطأ»، فكانت تقف خلف الباب، فإذا قُرِئ على مالك، وغلط القارئ، نقرت الباب، فيعلم غلطه، وكان له ابن اسمه محمد، يجيء، وأبوه مالك يحدث، وعلى يده باشق، يتلفت مالك للحاضرين، فيقول: أما إن الأدب أدب الله، هذا ابني كما ترون، وهذه بنتي كما ترون. عين الأدب: ١٩٥.

اتسعت، ولم يعد الشاب معروفاً في حيه، ولا مراقباً من أفراده؛ فقد يكون الساكن في الحي لا يعرفه جيرانه؛ وكان أهل الحي في زمن مضى هم خير من يضع عينه على الشباب، القريبين منهم، والبعيدين، فإذا دخل الحي غريب، رُكزت عليه الأنظار حتى يخرج، تُحسب عليه حركاته وسكناته.

وحرمان الشباب اليوم مما يتمتع به زملاؤهم، قد تغريهم بالابتعاد أكثر الوقت من البيت، ليحصلوا عند زملائهم على ما لا يحصلون عليه في بيوتهم، تحت رقابة ذويهم، ووسائل الإعلام الوافدة، والتي لم يعد بالإمكان إيقافها، أو مرورها عن طريق من يتأكد من صلاح ما تأتي به أو فساده، أصبحت تأتي بدون جواز سفر، تأتي مع أمواج الأثير؛ والحسن منها قد لا يخلو من ضرر بالغ؛ لأنها تعالج مجتمعات مختلفة، ومشاكل أقطار أخرى، قد لا يكون دينها ديننا، أو عاداتها عاداتنا، أو تقاليدها تقاليدنا، فنتعلم من العيب المعالج أكثر من الدواء الموضوع

لعلاجه. فطرق الإجرام المحاربة في قصة «فيلم» من الأفلام، تأخذ وقتاً تري فيه المجرم يتفنن في إجرامه، ويبتكر فيه، وفي ثوان يقبض على المجرم ويجازى، ويصبح ما بقي في ذهن المشاهد من الجريمة أكثر مما بقي من العلاج.

لهذا فمعالجة الأمر من الأهل يحتاج إلى ترو وتبصر، ولا يُسارَع في أخذ الحلول، فالمشكلة فوق الطاقة، والأهل هم أصحاب الشأن الأول في أبنائهم، وهم أقدر من غيرهم، ما عدا زملاء أبنائهم، فلهم تأثير قوي عليهم.

والأنصاري، الذي نصح ابن عبدالرحمن بن عوف هذه النصيحة لم يعد في بعض ما قال، ما نصح به أحدهم في زمننا ابنه، حين قال له: لا تضع مالك في شيء يأكل أو يشرب؛ وهو يقصد في هذا الزمن، المزارع والحيوان؛ وهذه عرضة للعطش والجوع، ونقص العناية، ومفاجآت الأحداث من مرض لها، أو لمن يعتني بها، أو خراب آلة جلب الماء، أو

ما إلى ذلك؛ ولعله أراده أن يجعل ماله في تجارة لا تحتاج إلى ماء أو طعام، تجلس في المخازن ما شاء الله لها أن تبقى، أو في عقار ليس له فم يعطش، ولا بطن يجوع. ولم يبعد هذا في نصيحته هذه عن الأنصاري:

ويأتي وميض وهاج من حكمة مشعة:

«إن الرجل ليكون أميناً، فإذا رأى الضياع خان».[1]

هذا قول صادق، وصيغ بهذه الطريقة، ليزيد في التحذير من الضياع، والوقوع في التسيب، الذي يجعل الأمور تائهة، لا ولي لها، ولا راعي؛ والعامة تقول بحق:

«المال الضائع يعلم الأمين السرقة».

وقد فرق الشرع في جزاء من يسرق من حرز، ومن يسرق من مال لم يحرز، ولم يعط حقه من التوجس، وما يخشى منه ويتوقع.

والرجل يكون أميناً من أحد طريقين، الأول،

---

(١) عين الأدب: ١٧.

لأنه أمين بطبعه، أو بتربيته، وحسن خلقه، وخوفه من ربه، ورغبته في ثوابه، أو أمين لأنه يعرف خطورة الخيانة، وفداحة جزائها، ولأن الأعين يقظة متنبهة، لن تعطيه فرصة ليخون، فهو أمين رغماً عنه، هذا النوع هو الذي إذا رأى الخيانة خان؛ أما النوع الأول فهو إذا خان فلأن الخيانة أصبحت هي القاعدة في المجتمع الضائع، وأصبح المعتاد فيه هي الخيانة، وهي الممتدحة، والأمانة هي الغريبة الشاذة المنتقدة. وقد عرفنا مجتمعات تعتبر السرقة والخيانة فيها نوعاً من الشطارة، والرجولة، وهذه صفة المجتمع المنحدر إلى الهاوية، وهو ما يخشاه المصلحون في الشعوب.

والخيانة إذا انتشرت بهذا الاتساع، فلأنه لا ينظر إليها على أنها خيانة، ولا تلبس ثوب البشاعة المعروفة به الخيانة، ولكنها تلبس لباساً براقاً من الخارج، والنتن يبقى في داخلها، فما كلمة رجولة وشطارة إلا أثواب براقة زائفة.

من هذا صدق القول بأن الضياع سبب الخيانة؛

وارتفاع الأمانة من مجتمع تعني موته حضارة، وشقاءه أبداً.

والمعروف وإسداؤه عمل مضيء، والشكر عليه يماثله في الإشعاع المنير، والشكر ومقداره هو ما يغطي فضل المعروف؛ وقد ورد في الشكر أقوال كثيرة، وكلها وهج ونور، وهج الحقيقة، ونور الحق، والشكر اعتراف بالفضل، وتقدير للجميل، ولسان إقرار بالعجز عن رد المعروف إلا بأضعف الوسائل الممكنة، ولكن حرارتها، وخروجها من القلب، تغطي نقصها، الذي جاء من أنها قول، مقابل عمل، وشتان بين الاثنين.

ومن الأقوال التي وردت في الشكر وفضله، ومقامه، وما يسد من جهد تجاه أهل الفضل، وأصحاب المعروف، القول الآتي:

«إن أشكر الناس لله، أشكرهم للناس». (١)

(١) عين الأدب: ١٥، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: من لا يشكر الناس لا يشكر الله. روضة العقلاء: ٢٧٦.

هذا قول صادق، وحكمة مضيئة. إن الناس لا يعطون إلا بفضل من الله، فهو الذي يسر لهم العطاء، بأن أغناهم بما استطاعوا أن يعطوا منه، وهو الذي حباهم بالنفس الكريمة، التي أعطت، ولم تبخل، وإن شكر المرء للناس، وهو يعلم أن الله هو المعطي، إنما يتعدى الشكر للناس، فيصعد إلى الله، وإن الله ـ سبحانه ـ وقد رضي، فقد وفق عبده للعطاء ليرضيه أن يرى من يقدر أثر هذا الرضى بشكر الباذل، ومن لا يفعل.

ويأتي قول آخر في الشكر هو:

«إن قصرت يداك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشكر». [1]

وهذا أضعف الإيمان، ويخفف ضعف جانب باطالة جانب، والمعروف جزاؤه، الأقرب للأوفى، هو رده بأجمل منه، والحرص على ذلك، والاستماتة في التبكير به، وبذل الروح فيما لو تبين على صاحب

(١) عين الأدب: ٢٥.

المعروف حاجة، أو عوز، و: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ .(١)

والمعروف لا يقاس بحجمه، ولا بمقداره ولكن يقاس بنية العطاء والمساعدة، وهذه حجمها واحد، سواء كان ما بذل صغيراً أو كبيراً، ولهذا يجب أن يكون الشكر بالغاً للمعروف القليل والكثير، ولهذا قيل:

«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير» .(٢)

ومن الأقوال الصادقة المضيئة في أمر الشكر، القول الآتي:

«من أوتي نعمة، فهو عبدها، حتى يعتقه شكرها، ومن عرفها فقد شكرها، ومن شكرها، فقد استوجب مزيداً» .(٣)

ولأن الإفضال باهر النور، واضح الفضل، أصبح نعمة، يسترق عن طريقها من وقع عليه الإحسان،

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.
(٢) عين الأدب: ٥٩.
(٣) عين الأدب: ٦٤.

ولا يعتق من رقها إلا إذا وفاها شكرها، ولا يوفيها حقها من الشكر إلا من عرف حقها، وشعر شعوراً كاملاً بمدى الفائدة التي استفادها منها، ومدى الراحة من الحاجة التي كان واقعاً تحت ضغطها، ومعانياً من تأثيرها، فإذا أدرك هذا المدى من الفضل، وهذا البعد للنعمة، فإنه نفساً وروحاً قد شكرها؛ وهذه المنزلة تجعله يستحق الزيادة من الفضل؛ في هذه المرة لا عن حاجة أو عوز، ولكن عن استحقاق للتكريم، لأنه أرض خصبة تنبت الغرس الطيب، والثمرة اليانعة.

وتعتلي درجة الشكر حتى تصل إلى ما لا يتصور أن تصل إليه من الدرجات العليا في الأجر والثواب، والقول الآتي يبين ذلك، ويحدد المدى الذي يبلغه الشكر، مما لا يخطر بالبال، ولا يجول في الذهن، ومما يستوجب الدهشة، ويدعو للاستغراب، والتعجب:

«رب طاعم شاكر، أعظم أجراً من صائم صابر». [1]

(١) عين الأدب: ٧٢.

من يظن أن درجة الشكر، والاعتراف بالفضل، تصل إلى درجة الصوم، والصبر على الجوع والعطش؟!

ومن صُور المعروف المضيئة، والشكر الوامض القصة الآتية:

«كان لعمرو بن سعيد صديق ينقطع إليه، فرأى يوماً ثوبه الذي يلي بدنه من تحت جبته، فيه أثر بِلى، فلما انصرف من عنده وجه إليه بتخت من ثياب وصرة من دنانير، فأخذها الرجل، وكتب إليه:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
أَيَادِيَ لَم تَمْنُنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتًى غَيْرَ مَحْجُوْبِ الغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ
وَلاَ مُظْهِرِ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُها
فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجلَّتِ»[1]

والمعروف ليس دائماً من الأعلى إلى الأدنى؛ وليس دائماً من الغني إلى الفقير، وليس دائماً من

---

(١) عين الأدب: ١٨٥.

القادر إلى العاجز؛ وليس المعروف دائماً مادياً، ولا خدمات ملحة، تدعو إليها الضرورة، من وساطة تُخْرج من حرج، أو تُبعد من مقصلة أو سيف؛ إنَّ المعروف أحياناً يأتي من لفتة حنان، أو اشارة احترام، أو علامة تقدير؛ وهذه أهم، والنظرة إليها أعمق، لأنها تأتي دون طلب، مبعثها من القلب، ومن حسن النظر والاعتبار، مثل القصة الآتية:

«خرج سعيد بن العاصي يوماً من عيادة مريض، فرآه شاب من قريش يمشي وحده، فماشاه حتى بلغ باب داره؛ فلما انتهى إلى باب الدار التفت إليه، فقال له: ألك حاجة؟

قال: ما لي حاجة، ولكني رأيتك تمشي وحدك، فأحببت أن أصل جناحك.

فقال: بارك الله فيك، مكانك!

ثم دخل إلى منزله، فأخرج إليه بدرة، فيها عشرة آلاف درهم، فدفعها إليه». (١)

---

(١) عين الأدب: ١٨٥.

هذا مثل من أمثلة المعروف، ورده، شكراً على إسدائه؛ ولقد بادر سعيد بن العاص برد الجميل الذي هزه، قبل أن يخبو أواره، أو تبهت لذته؛ ولقد أدهشه من الرجل التفاتة التقدير هذه، فلم يستطع أن يمسك يده عن أن تمتد بهذا المبلغ السخي.

ولرد المعروف المادي بما هو أضعافه، وقد أتى من الأدنى في المنزلة إلى الأعلى فيها، مثل مضيء، هو كمايلي:

«مر يزيد بن المهلب بأعرابية، عقب خروجه من سجن عمر بن عبدالعزيز، يريد البصرة، فقرته عنزاً؛ فقبلها، وقال لابنه معاوية:

ما معك من النفقة؟

قال: ثمان مئة دينار.

فقال: إدفعها إليها.

فقال ابنه: إنك تريد الرجال، ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهي بَعْدُ لا تعرفك.

قال: فإن كانت ترضى باليسير، فإنَّا لا نرضى

إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أَعْرَفُ بنفسي. ادفعها إليها»[1].

هذه المرأة كريمة، وأضاء فعلها قلب يزيد، فجاء منه نور أوفى؛ هي أعطت أقصى ما تستطيع أن تمنحه، ويزيد جاراها فأعطى كل ما عنده، تقابل الوميضان، فألقح السحاب مطراً، لم يوقفه منطق معاوية بن يزيد الصادق، الواقع، فوالده شريد طريد، يحتاج إلى رجال يكونون بجانبه، يشتري معروفهم، ليكونوا في صفه أمام الخليفة؛ فإذا أعطى كل ما عنده، عجز عن بلوغ الهدف الأساس في خطته؛ ومع هذا غلبت طبيعة يزيد عقله، وأعشت تفكيره، إلا من ثقب واحد في جدار المروءة، رأى منه منظراً بهجاً، لم يره معاوية بن يزيد!

ويبلغ الشكر منتهاه عند أحد الرجال المتشبعين بروح الدين، وتعاليمه، فيفصل جوانبه، ويبين أقسامه، ويختمه بأبيات مضيئة، وإنه ليشكر على

---

(١) عين الأدب: ١٨٦.

مصيبة حلت به، ونازلة نزلت به، ولكن نظرته إلى الأمر جاءت من إيمان راسخ قوي، أضاءت له طريقاً، قليلٌ من الناس يراه:

«قال شريح القاضي:

إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها لأربعة وجوه:

أحمده إذْ لم تكن أعظم مما هي؛ وأحمده إذْ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذْ وفقني لاسترجاعٍ، على ما أرجو فيه الثواب؛ وأحمده إذْ لم يجعلها في ديني».

وأردف صاحب كتاب: عين الأدب والسياسة الأبيات الآتية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْن
لِمَا يُحِبُّهُ المَلِكُ الأَعْلَى وَيَخْتَارُ
هُوَ الحَمِيْدُ الَّذِيْ جَلَّتْ مَحَامِدُه
فَلَيْسَ يُبْلَغُ مِنْهَا الدَّهْرَ مِعْشَارُ
نُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا أَوْلَى وَنَشْكُرُهُ
كَمْ نِعْمَةٍ مِنْهُ والإِنْسَانُ كَفَّارُ[1]

(١) عين الأدب: ١٩٠.

إن شريحاً يحمد الله، ويشكره، على المصيبة التي حلت به، وينظر نظرة عليا في موقفه منها، فهو يقارنها بما هو أكبر منها، ويعتبرها مِنّة من الله أن نجّاه من العظمى؛ وأن زاد في مَنِّه، فرزقه الإِيمان القوي، الذي أدى به إلى الصبر، والتحمل ولم يجعل لسانه يتأوه أو يتشكى، وإنما يردد: «إنا لله وإنا إليه راجعون» شعار المؤمن، وكلمة المتقي المطيع، وملاذ المستسلم لرب العالمين، الذي ناصيته بيده، ويملكه هو وأموره، دقيقها وجليلها؛ وينشرح صدره، ويزيد يقينه، وحمده، وشكره، عندما يرى أن مصيبته كانت في أمر يخص الدنيا الفانية، ولا تلمس جانباً في دينه، وهو ذخيرته ليوم الدين، ورجا من الله بذلك المثوبة، وهي المكسب، وهي الغنم.

وبعض هذه المعاني ورد في أبيات مضيئة، جاءت من قلب مؤمن، فتح الله على صاحبها، فقال:

«إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً
عَلَيَّ لَهُ فِيْ مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَلَيْسَ بُلُوْغُ الشُّكْرِ إلاَّ بِفَضْلِهِ
وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ واتَّصَلَ العُمْرُ»[1]

وشاعر آخر يأتي بالمعنى في تعبير آخر:

شكْرُ الإلٰـهِ نِعْمَـةٌ مُـوْجِبَـةٌ لِشُكْـرِهِ
فَكَيْفَ شُكْرِي بِرَّهُ وشُكْـرُهُ مِـنْ بِـرِّهِ[2]

وشكر الله، والحث عليه أتى في القرآن، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[3].

وهذا، كما يبدو، ما أشار إليه الشاعر في قوله:

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكْرِ مَاجِدٌ
لِعِـزَّةِ مُلْـكٍ أَوْ عُلُـوِّ مَكَـانِ
لَمَـا أَمَـرَ اللهُ العِبَـادَ بُشْكِـرِهِ
فَقَالَ: اشْكُرُوْنِي أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ[4]

وقد أكدوا على شكر القليل، لأن شكر القليل دليل على النية في شكر الكثير مضاعفا، وعلامة على

---

(١) الكشكول: ١/ ٢٧٤.
(٢) الكشكول: ١/ ٢٧٤.
(٣) سورة البقرة: الآية: ١٥٢.
(٤) روضة العقلاء: ٢٧٦.

أن نبتة الخير مزدهرة في قلب الشاكر، وأنه راع للمعروف، حافظ للفضل، مقر بالتكرم، وأنشد الكريزي في بعض هذا:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَشْكُرْ قَلِيْلاً أَصَابَهُ
فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الكَثِيْرِ شُكُوْرُ
وَمَنْ يَشْكُرِ المَخْلُوقَ يَشْكُرْ لِرَبِّهِ
وَمَنْ يَكْفُرِ المَخْلُوقَ فَهُوَ كَفُوْرُ[1]

والمعروف سبق إلى فضل، وإضاءة لا يغلبها إلا إشعاع مثلها، أو أشد منها، ولهذا حثوا على سرعة رد المعروف، ولو بشكره، وليأت الشكر مضاعفاً، حتى يتساوى مع فضل البدء بالمعروف، وقد جاء في هذا قول أحدهم:

«قال أبو حاتم ـ رضي الله عنه ـ:

الواجب على من أُسدي إليه معروف أن يشكره بأفضل منه، أو مثله؛ لأن الإفضال على المعروف في الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قل، فمن لم يجد،

---

(١) روضة العقلاء: ٢٧٦.

فليثن عليه؛ فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف، وما استغنى أحد عن شكر أحد» .[1]

ومن الأشعار التي جاءت حاثة على الشكر، حتى يربو المعروف، وتزيد النعم البيتان الآتيان:

حَافِظْ عَلَى الشُّكْرِ كَيْ تَسْتَجْزِلِ القِسَمَا
مَنْ ضَيَّعَ الشُّكْرَ لَمْ يَسْتَكْمِلِ النِّعَمَا
الشُّكْرُ لِلَّهِ كَنْزٌ لا نَفَادَ لَهُ
مَنْ يَلْزَمِ الشُّكْرَ لَمْ يَكْسَبْ بِهِ نَدَمَا[2]

وسعيد بن العاص - كما رأينا - ممن يهزه المعروف، فيلقى ثمره يانعاً، يتلذذ به مسدي المعروف، والقصة الآتية إضاءة مشرقة في هذا الباب:

«مر سعيد بن العاص بدار رجل بالمدينة، فاستسقى فسقوه، ثم مرّ بعد ذلك بالدار، ومناد ينادي عليها فيمن يزيد، فقال لمولاه:

سل، لِمَ تباع هذه؟

(١) روضة العقلاء: ٢٧٦.
(٢) روضة العقلاء: ٢٧٦.

فرجع إليه، فقال: على صاحبها دين.

قال: فارجع (بنا) إلى الدار.

فرجع، فوجد صاحبها جالسا، وغريمه معه، فقال:

لِمَ تبيع دارك؟

قال: لهذا عليّ أربعة آلاف دينار.

فنزل، وتحدث معهما، وبعث غلامه، فأتاه ببدرة، فدفع إلى الغريم أربعة آلاف، ودفع الباقي إلى صاحب الدار وركب، ومضى» .[1]

ويدخل في باب الحث على الشكر على المعروف البيتان الآتيان:

وأنشد المنتصر بن بلال:

«وَمَنْ يُسْدِ مَعْرُوْفًا إِلَيْكَ فَكُنْ لَهُ
شَكُوْراً يَكُنْ مَعْرُوْفُهُ غَيرَ ضَائِعِ
وَلاَ تَبْخَلَنْ بالشُّكْرِ، والقَرْضَ فاجْزِهِ
تكُنْ خَيرَ مَصْنُوعٍ إِلَيْهِ وَصَانِعِ»[2]

(١) روضة العقلاء: ٢٧٧.

(٢) روضة العقلاء: ٢٧٧.

وقد تقصى صاحب روضة العقلاء الأبيات التي جاءت عن الشكر، ولمسته من جانب أو آخر، فأحسن التقصي، وأجاد البحث، ومما نقله في هذا المجال قول أحد العلماء:

«فَكُنْ شَاكِراً لِلْمُنْعِمِيْنَ لِفَضْلِهِمْ
وَأَفْضِلْ عَلَيْهِمْ إِذْ قَدِرْتَ وَأَنْعِمِ
وَمَنْ كَانَ ذَا شُكْرٍ فَأَهْلُ زِيَادَةٍ
وأَهْلٌ لِبَذْلِ العُرْفِ مَنْ كَانَ يُنْعِمِ»[1]

ويتعمق أهل الإيمان في أمر الشكر، وعدم نكران الجميل، وينظرون إلى ذلك نظرة متأنية، تدل على رقي فكر، وحسن ظن بالله.

«قال أبو حاتم ـ رضي الله عنه:

الحر لا يكفر النعمة، ولا يتسخط المصيبة، بل عند النعم يشكر، وعند المصائب يصبر، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع، أوشك أن لا يشكر الكثير منه، والنعم لا تستجلب زيادتها، ولا تدفع

---

(١) روضة العقلاء: ٢٧٧.

الآفات عنها، إلا بالشكر لله ـ جل وعلا ـ ولمن أسداها إليه» .[1]

ويأتي ابن حبان البستي، صاحب روضة العقلاء، بالمزيد من الشعر الذي يدور حول الشكر، ويستقصي أبوابه، فيبين فضله، وفضل من اتصف به، ووفاه حقه، فيقول:

«أنشدني الأبرش:

الشُّكْـرُ يَفْتَـحُ أَبْـوَابًـا مُغَلَّقَـةً
لِلَّـهِ فِيْهَـا عَلَى مَـنْ رَامَـهُ نِعَـمُ
فَبَادِرِ الشُّكْرَ، واسْتَغْلِقْ وَثَائِقَهُ
وَاسْتَدْفِعِ اللهَ ما تَجْرِيْ بِهِ النِّقَمُ»[2]

ويقول أيضاً:

«أنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب:

وَمَنْ يَشْكُرِ العُرْفَ الصَّغِيْرَ فَإِنَّهُ
سَيَنْمِي، وَيَجْتَرُّ المَزِيْدَ أَصَاغِرُهْ

---

(١) روضة العقلاء: ٢٧٧.

(٢) روضة العقلاء: ٢٧٩.

وَمَنْ يَشْكُرِ المَعْرُوْفَ يَحْمَدْ إِلٰهَهُ
وَيَضْعَفُ أَضْعَافًا عَلَى الحَمْدِ شَاكِرُهْ»[1]

ويجد مرة ثانية نصاً يجمع بين الصبر والشكر، فيسارع إلى اقتباسه، وهو لابن الزنجي البغدادي:

وَإِذَا اصْطَنَعْـــــتَ إِلَى أَخِيْـ
ـكَ صَنِيْعَـةً، فَـانْسَ الصَّنِيْعَـهْ
وَالشُّكْـرُ مِـنْ كَـرَمِ الفَتَـى
وَالكُفْـرُ مِـنْ لُـؤْمِ الطَّبِيْعَـهْ
وَالصَّبْـرُ أَكْـرَمُ صَـاحِـبٍ
فَـاصْحَبْـهُ إِنْ نَـزَلَـتْ فَجِيْعَـهْ[2]

ونعود إلى صغير المعروف يسدى، حتى لكأنه رمز معروف، وليس بمعروف، ومع هذا يأتي بالمردود مفعم الإناء، طافحه، كما حدث من الشافعي في القصة التالية:

«قال الربيع بن سليمان:

---

(١) روضة العقلاء: ٢٧٩.
(٢) روضة العقلاء: ٢٧٩.

أخذ رجل بركاب الشافعي، فقال:
يا ربيع، اعطه أربعة دنانير.
قال: فأعطيته إياها». [1]

إن الرجل لم يعمل جهداً يستحق عليه ثواباً، ولعل الحركة التي أتى بها عندما أخذ بركاب الشافعي، لا تزيد عن لفتة تقدير واحترام، وكان يكفيه دراهم معدودة، إلا أن عمل المعروف الصغير هذا هزّ دوحة الشكر عند الشافعي، فهلت هذه الدنانير!

والمعروف يأتي من أي إنسان كان يجد صداه في الأنفس الطيبة الطاهرة، لأنها روض ينبت الأخضر، والزهر الزاهي، وفي القصة الآتية لمحة من هذا:

«قال أبو عيسى:
كان إبراهيم بن أدهم إذا صنع إليه أحد معروفاً حرص على أن يكافئه، أو يتفضل عليه.
قال أبو عيسى: فلقيني، وأنا على حمار، وأنا أريد بيت المقدس، جائياً من الرملة، قال: وقد اشترى

---

(١) روضة العقلاء: ٢٧٩.

بأربعة دوانيق تفاحاً، وسفرجلاً، وخوخاً، وفاكهة، فقال:

يا أبا عيسى، أحب أن تحمل هذا.

قال: وإذا عجوز يهودية، في كوخ لها، فقال: أحب أن توصل هذا إليها، فإنني مررت، وأنا ممسٍ، فبيتتني عندها، فأحب أن أكافئها على ذلك». [1]

ويعود البستي، في حصره بعض ما قيل في الشكر، إلى ما قيل شعراً في مجال من مجالات الشكر، وما جاء من أقوال، ابتدع فيها الأسلوب، والمعنى، يقول:

«أنشدني الكريزي:

يَدُ المَعْرُوْفِ غُنْمٌ حَيْثُ تُسْدَى
تَحَمَّلَهَـــا شَكُـــوْرٌ أَمْ كَفُـــورُ
كَفَى شُكْرُ الشَّكُوْرِ لَهَا جَزَاءًا
وَعِنْـدَ اللهِ مَـا كَفَـرَ الكَفُـوْرُ» [2]

ويمعن في تتبع الأشعار المتفننة في معاني الشكر،

---

(١) روضة العقلاء: ٢٧٩.

(٢) روضة العقلاء: ٢٧٩.

والإتيان بما لم يأت به أحد من قبل، فيروي شعراً لبعض أهل العلم، ممن أقر بعجزه عن الشكر، وقصور باعه تجاه هذا:

رَهَنْتُ يَدِيْ لِلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ
وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُوْرِ مَزِيْدُ
وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ
وَلٰكِنَّ مَا لاَ يُسْتَطَاعُ شَدِيْدُ[1]

ويأتي بشعر آخر، يرى صاحبه في الشكر رأياً في بذله، وفي إنكاره، وما يراه تجاه من لا يشكر:

«أنشد علي بن محمد:

عَلاَمَةُ شُكْرِ المَرْءِ إِعْلاَنُ حَمْدِهِ
فَمَنْ كَتَمَ المَعْرُوْفَ مِنْهُمْ فَمَا شَكَرْ
إِذَا مَا صَدِيْقِيْ نَالَ خَيْراً، فَخَانَنِي
فَمَا الذَّنْبُ عِنْدِي لِلَّذِيْ خَانَ أَوْ فَجَرْ
وَلٰكِنْ إِذَا أَكْرَمْتُهُ بَعْدَ كُفْرِهِ
فَإِنِّي مَلُوْمٌ حَيْثُ أُكْرِمُ مَنْ كَفَرْ»[2]

---

(١) روضة العقلاء: ٢٨٠.

(٢) روضة العقلاء: ٢٨٠.

ويذكر شاعر ألمه ممن حباهم قليلاً فشكروا، ولكنهم لم يشكروا حين أعطاهم كثيراً، ويبدو أن حالة الشاعر هذه خاصة:

«أنشد محمد بن إسحاق بن حبيب:

إِذَا أَنَا أَعْطَيْتُ القَلِيْلَ شَكَرْتُمُ
وَإِنْ أَنَا أَعْطَيْتُ الكَثِيْرَ فَلاَ شُكْرُ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِيْ قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ
وَقَدْ كَانَ لِيْ فِيْمَا اعْتَذَرْتُ بِهِ عُذْرُ»[1]

ويتعرض عمر بن هبيرة لموقف مثل الذي تعرض له يزيد بن المهلب في القصة السابقة، وكلاهما طريد، وفي حاجة إلى المال، ومع هذا جاد بما في يده، بإغداق، وكان يكفي في رد الجميل، أو الكلمة الحانية، أقل مما بذل، والقصة كمايلي:

«حدث علي بن محمد، قال:

مر عمر بن هبيرة ـ لما انصرف في طريقه ـ فسمع امرأة من قيس تقول:

---

(١) روضة العقلاء: ٢٨٠.

لا والذي ينجي عمر بن هبيرة .

فقال : يا غلام ، أعطها ما معك ، وأعلمها أني قد نجوت» .[1]

هذه بعض أقوال وأشعار في الشكر ، جاءت مضيئة في أفكارها ، وما ترمي إليه ؛ وما تركت ، مما أرجو أن يتتبعه القارئ في مصادره ، أكثر .

وأكتفي بهذه اللمحة من وميض الأقوال ، وفي كل جانب من جوانب القول وميض ، يزيد بعضه عن بعض ، حسب أغراض الأقوال ، ومقدرة القائلين على التعبير عما تجيش به صدرهم .

***

(١) روضة العقلاء : ٢٨١ .

# مراوغة بين لفظ ومعنى[1]

الألفاظ هي الوسيلة لنقل المعنى من ذهن إلى ذهن، وهي الجسر الذي يعبر عليه المراد من ضفة إلى ضفة، وبقدر حُسْنِ اختيار الكلمة، ودقتها، يُفهم المقصود فهماً واضحاً، لا لبس فيه ولا غموض، والكلمة واختيارها يتوقف إتقانه على الشخص، وتختلف القدرة فيه من شخص إلى شخص، فمعنى واحد يعمد إليه إنسان قد لا يأتي فيه باللفظ الذي جاء به إنسان آخر، لأن آلة الفكر في كل رأس لا تعمل بنسق متماثل إلا في الإطار العام، ولكنها تختلف بما يجعل كل إنسان متميزاً بنمط يختلف عن غيره.

والسن قد يحكم عقل المرء عند التعبير عن معنى، لأن خلفه من التجربة ما يضفي عليه تؤدة وتحسباً، فعصارة التجربة ربان ماهر يجيد تسيير السفينة في بحر الفكر، والمعنى المتلاطم، أما صغير السن، فقير

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٤٠) في ٦/ ٥/ ١٤١٦هـ الموافق: ٣٠/ ٩/ ١٩٩٥م.

التجربة، فستتلاعب به الأمواج، ولا يصل الساحل إلا حطاماً، وقطعاً مبعثرة، فلا ينتقل المعنى من ذهن إلى ذهن كما أمل المتكلم، فتأتي الصورة مهزوزة، والمعنى غير واضح، ويخفق الجهد، ويضيع الهدف.

والثقافة تلعب دوراً كبيراً في تنوير الإنسان في القدرة على التعبير عما يجيش في صدره، ويرغب في نقله إلى الآخرين؛ فالثقافة تساعد المرء على ذلك، لأنها نور يهدي سالك الطريق إلى الهدف، لما تحتوي عليه من مخزون العلم عن تجربة الآخرين، وكيف تصرفوا إزاء ما قابلهم من مواقف، احتاجوا فيها إلى حسن التعبير، واختيار الكلمات. وقد يكتفي المتحدث بترديد قولهم بصيغة حكم أو أمثال، أصبحت راسخة في الكتب، مما يقرأ الناس، ويستفيدون منه.

والثقافة، بما يختزنه المرء منها من علم، تساعده على تطوير ذهنه، وتربية ملكته للإدراك، ثم حسن المعالجة، والتصرف أمام المواقف، بأحسن تصرف، يثق صاحبه بأنه اختاره على بصيرة، وبعد استعراض

بدائل متعددة.

والمواقف تتدخل أحياناً في تكييف القول، وخروجه، ومدى أدائه للمطلوب، أو بعده عنه، فالمتحدث المطمئن في حالة هدوء تعبيره أقرب إلى أن يكون ممثلاً لرأيه الطبعي، خلافاً للخائف، أو المضطرب لسبب أو آخر، فإن قوله يأتي مخالفاً لما هو متوقع منه، ولا يعرف أي جادة مضلة يمكن أن يسلك، ولا يعرف النهاية التي قد يستقر فيها.

ويلعب اختلاف العقول بين المتخاطبين دوراً كبيراً في جودة فهم القول المتبادل، فقد يتقن المثقف القول، ويجيد اختيار الكلمات، ويحسن تصوير المعنى، ولكن المتلقي لا يكون بالمستوى نفسه، فيستقبل ما قيل استقبالاً مختلفاً، ويتصوره على غير الصورة المرادة، وقد يرد القول إلى ما لا يتناسب معه، أو ينقله إلى غيره ناقصاً أو زائداً أو مشوهاً، فيأتي من ذلك ضرر بدلاً من الفائدة، وأذى بدلاً من النفع، أو على الأقل لا يفي بالمقصود، ويكون قوله وعدمه

واحداً، في عدم الوفاء بالمراد.

وقد يُقصد التضليل قصداً، ويكون إخفاء المعنى هدفاً، والإيهام غايةً، وتأتي الكلمات في ظاهرها، وفي أقرب معنى لها، مصورةً أمراً، وخلف الكلمات صورة أخرى مختلفة، ولا يأتي هذا إلا من أناس يجيدون هذا النهج في القول، ويكون لهم باع في التلاعب بالكلمات، والمراوغة بينها وبين المعاني، بطريقة ذكية، ومقدرة متناهية، وقد اتصف بعض أناس بهذا الفن، واشتهروا به، وكان كلامهم يسير كله على هذا النسق، لسهولة هذا الأسلوب عليهم.

والمراوغة بين اللفظ والمعنى، والمطاردة والمناورة، والتلاعب، تأتي بصور مختلفة، لا تخلو من متعة للمتتبع، أو المراقب، لما يكمن خلفها من ذكاء أو غباء، وجاذبيتها تأتي من الفجوة التي تحدث بين الفِكْرين، نتيجة عدم تطابق الفهم بين اثنين، مما قد يكون هذا قصد من أحدهما، أو جاء نتيجة سوء تعبير، تسبب فيه جهل، أو صغر سن، أو عدم تجربة.

والأمثلة التي يعج بها التراث خير معين في تبيان مثل هذه المراوغة، أو التلاعب، أو عدم الفهم.

وسوف نرى أن بعض هذه الأقوال لم يقع في الحقيقة، وإنما أُنضج في ذهن المؤلف، ورُكِّب في مصنع عقل الأديب، أو أَلَّف أجزاءه كاتب ما، ونسبه إلى مجهول، أو معروف مشهور، مفترى عليه. والقصة الآتية تبين إحدى صور المراوغة المتقنة، الطريفة:

«لما حاصر خالد بن الوليد أهل الحيرة قال:

«ابعثوا لي رجلاً من عقلائكم».

فبعثوا عبدالمسيح بن عمرو، وكان نصرانيا، فجاء، فقال لخالد: أنعم صباحاً أيها الملك!

فقال: قد أغنانا الله عن تحيتك هذه، فمن أين أقصى أثرك أيها الشيخ؟

قال: من ظهر أبي.

قال: فمن أين خرجت؟

قال: من بطن أمي.

قال: فعلام أنت؟

قال: على الأرض.

قال: ففيم أنت؟

قال: في ثيابي.

قال: أتعقل؟

قال: أي والله، وأقيد. [يد البعير تعقل، وتقيّد].

قال: ابن كم أنت؟

قال: ابن رجل واحد.

قال خالد: ما رأيت كاليوم، أسألك الشيء، وتنحو في غيره.

فقال: ما أنبأتك إلا عما سألتني». [1]

لا يشك قارئ أن القصة موضوعة، وكل حرف فيها يدل عليها، فخالد إذا سأل مدينة محاصرة أن تخرج إليه رجلاً من عقلائها لا تخرج إليه رجلاً هرماً خرفاً، يسمع القول، فلا يجيب عليه على وجهه، بل يتعمد المراوغة فيه، إلى غير ما قصد به. والموقف

---

(١) أخبار الظراف: ٩٨.

يقتضي غير هذا من الجد، فإن كان مستهتراً، فهو أبعد عن العقل، وقد أخرج أهل الحيرة، غير من طلب خالد، لقد أخرجوا أخرق سفيها.

وخالد المسلم جاءه رجل المتوقع أنه خرج للمسالمة، وتخفيف شروط التسليم، وكان المتوقع من خالد الذي جاء، وفي يده اليمنى السيف، وفي يده اليسرى أيضاً تأليف القلوب، أن يرد بالتحية التي يختارها، أو يرشده إلى تحية الإسلام؛ وبدلاً من ذلك جبهه وصده، والمتوقع أن ذلك يرعب الشيخ؛ ولكن الشيخ أخذ يهزأ في أجوبته، وهذا موقف لا يقبله عاقل، أو يتوقع أن يكون وقع بحال من الأحوال.

ثم ما هذه الأسئلة الساذجة، غير المفيدة التي سألها خالد، وإذا كان بدؤها مقبولاً، فالاستمرار فيها بهذه الطريقة الصبيانية غير مقبول؛ ألم يخرج الرجل من الحيرة؟ فما معنى سؤاله من أين خرجت؟ وما معنى علام أنت؟ وما الفائدة منها، وما هو المكسب الذي يرجى من الإجابة عليها؟ ثم ما مكان:

أتعقل؟

القصة مفتعلة، وتُري مقدرة الأديب على صياغة أقوال يظنها طريفة، يضعها بين يدي الناس، مغلفة بورقة من التاريخ، تُدَرِّجها، وتروّجها؛ وقد درجت، وراجت إلى يومنا هذا، وسوف تبقى تتداول، ولكن في الغالب على أنها قصة لا تمت إلى الواقع بصلة شرعية.

وفي رواية أخرى للجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» (طبعة لجنة التأليف) يأتي الخبر هكذا:

قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة: اخرجوا إلي رجلا من عقلائكم.

فأخرجوا إليه عبدالمسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغساني، وهو الذي بني القصر، وهو يومئذ ابن خمسين وثلاث مئة سنة.

فقال له خالد: من أين أقصى أثرك؟

قال: من صلب أبي.

قال: فمن أين خرجت؟

قال: من بطن أمي.

قال : فعلام أنت؟

قال : على الأرض .

قال : ففيم أنت؟

قال : في ثيابي .

قال : ما سنك؟

قال : عظم .

قال : أتعقل؟ لا عقلت!

قال : أي والله ، وأقيد .

قال : ابن كم أنت؟

قال : ابن رجل واحد .

قال : كم أتى عليك من الدهر؟

قال : لو أتى علي شيء لقتلني .

قال : ما تزيدني مسألتك إلا غما .

قال : ما أجبتك إلا عن مسألتك .

قال : أعرب أنتم أم نبط؟

قال : عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا .

قال : فحرب أنتم أم سلم؟

قال: سلم.

قال: فما بال هذه الحصون؟

قال: بنيناها للسفيه، حتى يجيء الحليم، فينهاه.

قال: كم أتت عليك سنة؟

قال: خمسون وثلاث مئة.

قال: ما أدركت؟

قال: أدركت سفن البحر ترفأ إلينا في هذا الجرف، ورأيت المرأة من أهل الحيرة تأخذ مكتلها على رأسها، ولا تتزود إلا رغيفاً واحداً، فلا تزال في قرى مخصبة، متواترة، حتى ترد الشام؛ ثم قد أصبحت خراباً يَبَاباً، وذلك دأب الله في العباد والبلاد.[1]

وهذه القصة تختلف في بعض جوانبها عن الصيغة السابقة، ولعله، إذا كان هناك مقابلة بين خالد وعبدالمسيح، البتة، فالحديث الذي جرى بينهما هو ما جاء في النصف الثاني من المحادثة، بدءاً من قول خالد له: «أعرب أنتم أم نبط؟» وما جاء بعدها،

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٤٧.

لأن الإجابات إجابات عاقل، فيها منطق، وليس فيها قول ناب في معناه، أو في طريقة إلقائه، فقد التزم الشيخ أدب المحادثة، مع رجل ذي مقام، وله سلطة، ومحاصر لقلعة، أو مدينة هو على وشك أن يحتلها، ولكنه وأهلها فضلوا أن يجربوا خطة السلم في النزول عنها إلى خالد، وأرسلوا من هو أهل للملاينة، ولهذا عندما سأله خالد: أهم سلم أم حرب، أجاب ببساطة: بأنهم سلم.

وإذا كان هناك من ملاحظة يمكن أن تُبدَى فهي في قول الشيخ أن عمره خمسون وثلاث مئة سنة، وهو ما لا تستطيع عقولنا اليوم أن تتصوره، أو تقبله، لما نعرفه عن الزمن، وفعله بالإنسان. ويضاف إلى هذا شكنا في أنه هو باني القصر كما ذكر الجاحظ في الرواية الثانية[1].

علي أي حال هذا النمط من التلاعب بالكلمات، والمراوغة بينها وبين المعاني، والمطاردة المُلْحِفَة،

(١) هذا إذا كان الحديث عن الخورنق على قول بعض الروايات، أما إذا كان قصر بني بقيلة، فهذا مقبول.

محببة إلى الكتاب، ومتى ما رأوا نموذجاً، سبق إليه أحدهم، رواية، أو تأليفاً، أطبقوا، بجمعهم، خلفه، يقلدونه، ويحذون حذو مخترعه الأول، وتفننوا في القول، يأتون به من زوايا متعددة، بصور مختلفة، تكاد لا تَلْحَظُ تقليدهم فيها من شدة الأتقان، والقدرة على التعمية والتضليل.

ومن الأمثلة التي تسير على نمط مماثل للقصة السالفة القصة الآتية، وفيها إبداع، وقدرة على الخيال في التلاعب بالكلمات، ومراوغة المعاني، والمناورة فيها، ويجب ألا تأخذنا نسبتها إلى شخص بعينه، فنقبلها على أنها حقيقة واقعة:

«قال المبرد: قال رجل لهشام بن عمرو الفوطي:
كم تعد؟
قال: من واحد إلى ألف ألف.
قال: لم أرد هذا.
قال: فما أردت؟
قال: كم تعد من السن؟

قال: اثنان وثلاثون: ستة عشر من أعلى، وستة عشر من أسفل.

قال: لم أرد هذا؟

قال: فما أردت؟

قال: كم لك من السنين؟

قال: ما لي منها شيء، كلها لله -عز وجل-.

قال: فما سنك؟

قال: عظم.

قال: فابن كم أنت؟

قال: ابن اثنين: أب وأم.

قال: فكم أتى عليك؟

قال: لو أتى عليّ شيء لقتلني.

قال: فكيف أقول؟

قال: قل: كم مضى من عمرك». [1]

وهذه مثل السابقة في التمحك، والمراوغة عن الجواب الصحيح، والرد المباشر، إلى الالتواء في

---

(١) أخبار الظراف: ٩٨.

الفهم، والإجابة إجابة بعيدة عن الهدف، بحجة بعض الصلة القائمة بين اللفظ والمعاني الملتجأ إليها، في التنصل من الوصول إلى الهدف الأصيل. والنحل فيها واضح، والقصد من أول القول معروف، وما أريد بها إلا التفكه، وتقليد من سبق في هذا المجال، ومحاولة معالجة الأمر من زاوية تختلف عن تلك، وكأنها ابتداع جديد، لا صلة له بسابق فتح الطريق للمحاكاة والتقليد؛ وتجنٍّ ممتع على الحقيقة!

ويلتقط كاتب آخر نهج المراوغة بين السؤال والجواب، والمناورة بين اللفظ والمعنى، والتلاعب بالألفاظ والمعاني، فيبعد به قليلاً عن المثلين السابقين، ويأخذ زاوية مختلفة قليلاً؛ ثم يعد المسرح، ويحرك الممثلين عليه، وينظر إليهم بإعجاب، وننظر معه بعجب:

«دخل رجل[1] على شريح القاضي، يخاصم امرأة له، فقال:

(١) قال صاحب عيون الأخبار إنه (١/ ٤٣٧) عدي بن أرطأة.

السلام عليكم .

قال : وعليكم .

قال : إني رجل من أهل الشام .

قال : بعيد سحيق .

قال : وإني قدمت إلى بلدكم هذا .

قال : خير مقدم .

قال : وإني تزوجت امرأة .

قال : بالرفاء والبنين .

قال : وإنها ولدت غلاماً .

قال : ليهنِئْك الفارس .

قال : وقد كنت شرطتُ لها صداقها .

قال : الشرط أملك .

قال : وقد أردت الخروج بها إلى بلدى .

قال : الرجل أحق بأهله .

قال : فاقض بيننا .

قال : قد فعلت» .[1]

---

(١) البيان والتبيين : ٤/٩٨، وزاد صاحب عيون الأخبار : قوله «بمه؟» بعد قوله : «قد قضيت» : ١/ ٤٣٧ .

أي متمعن يجد أن القصة مركبة، أوحت بها قصص مماثلة سبقتها. وليس هناك من كان قاعداً عند القاضي يستمع لهذا الحوار الطريف، ورغم مظهر التناسق في القول، والرد عليه، إلا أن القاضي شريح، في الحقيقة، لم يقض، وقصر المؤلف عن القصة التي قلدها، والتي كانت أكثر إتقاناً، وهي رمزية لم تحدث، ونعني قصة الضب، وقضاءه بين الضبع والثعلب، وهي قصة قديمة متداولة في المجتمع العربي القديم، سجلتها كتب الأدب، ومن جملة من جاء بها صاحب كتاب: «العقد الفريد»، ويقول فيها:

«خطبة للنعمان بن بشير بالكوفة:

قال:

إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضبع والثعلب: أتيا الضب في جحره، فقالا:

أبا الحسل.

قال: أجبتكما.

قالا: جئنا نختصم.

قال : في بيته يؤتى الحكم .

قالت الضبع : فتحت عيني .

قال : فعل النساء فعلتِ .

قالت : فلقطت تمرة .

قال : حلواً اجتنيتِ .

قالت : فاختطفها ثعالة .

قال : لنفسه بغى الخير .

قالت : فلطمته لطمة .

قال : حقاً قضيتِ .

قالت : فلطمني أخرى .

قال : كان حرّاً فانتصر .

قالت : فاقض الآن بيننا .

قال : حدث امرأة حديثين ، فإن أبت فاربع ، أي اسكت» .[1]

ويقال إنه لما قالت : اقض بيننا ، قال : قد قضيت كما قال شريح تماماً .

---

(١) العقد الفريد : ٤/ ١٢٩ ، دار الكتاب العربي .

وقد اجتذب هذا الأسلوب الكتاب إلى تقليد بعضهم بعضاً في هذا الأمر من هذه الزاوية، لأن فيه لهم مجالاً للبراعة، وإظهار المقدرة في الجدل، وتطعيم القول بالحكمة التي يريدون بثها، والموعظة التي يؤملون أن يكون فيها التأثير على الناس، وإن لم يكن هذا، أو هذا، فلا أقل من الطرافة والتسلية.

ـ[1] ويختار الأديب أحياناً شخصاً مشهوراً، ليضع الحوار، الذي ألفه، على لسانه، فيختار خليفة، إذا كان القول يتماشى مع مقام الخليفة، أو يعلقه على أديب، شهر بالفكاهة، أو بالصلف، أو بنحوه نحواً معيناً اشتهر به، أو على شخص عرف بين الناس بالفكاهة، أو الذكاء، أو الغباء المفرط، والقصة الآتية تنسب إلى الخليفة المأمون، وهو مثل الرشيد هدف للنحل، والتعليق المفتعل.

«اعترض رجل المأمون، فقال:

يا أمير المؤمنين، أنا رجل من العرب.

---

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

قال : ماذا بعجب؟
قال : وإني أريد الحج .
قال : الطريق أمامك نهج .
قال : ليست لي نفقة .
قال : قد سقط عنك الفرض .
قال : إني جئتك مستجدياً لا مستفتياً .
فضحك ، وأمر له بصلة»[1]

ومثل المأمون الحجاج ، يجد الأدباء والكتاب ، وغيرهم ، أنه من الأشخاص الذين يركب عليهم النحل ، لصلتهم بالقرآن والأدب والفكر ، ولكثرة ما كان يقع بينهم وبين الناس من جدل ، ورغم أن الحجاج رجل مهيب ، إلا أن بعض ما يقال عنه ، ينسى قائله هذا الجانب ، ويكون هذا مدخل الضعف على روايته والقصة الآتية تتصف بذلك :

«قال الحجاج لرجل من الخوارج :
أجمعت القرآن؟

(١) البصائر : ٥/ ١٤٩ ، وربيع الأبرار : ١/ ٦٨٠ .

قال: أمفرقاً كان فأجمعه؟

قال: أتقرؤه ظاهراً؟

قال: بل أقرؤه وأنا أنظر إليه.

قال: أفتحفظه؟

قال: أخشيت فرارَهُ فأحفظه.

قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبدالملك؟

قال: لعنه الله، ولعنك معه.

قال: إنك مقتول.

قال: ألقى الله بعملي، وتلقى الله بدمي». [1]

إما أن تكون هذه مفتعلة بأكملها، أو أنه أضيف إليها الجزء الأخير منها؛ والاعتقاد بأنها قد تكون منحولة هو ركاكة الأسئلة، والتكلف الظاهر فيها، مثل استعمال كلمة «أَجَمَعْتَ» لحفظ القرآن، ثم كلمة «ظاهراً»، فوضعها هنا فيه قلق؛ وقد حاول مؤلف القصة أن يظهرها بمظهر القصة الواقعة، فجعل الرجل من الخوارج، لأن الحجاج كثيراً ما روي عنه

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٤٨.

الجدل معهم، أملاً في إظهار فساد رأيهم، لعدم عمق بعضهم فكرياً في اتباع رؤسائهم، وإيمانهم الأعمى بهم؛ مما يجعل من السهل على مجادل فطن مفكر، مثل الحجاج، أن يحرجهم، ويظهرهم أمام من حوله أنهم أهل ضلال. ثم أكد هذا بما عرف من قتل الحجاج لكثير من الخوارج، فجعل الرجلَ يظهر بمظهر اليائس، فيلقي بحمل بَغْضَائه، صراحة على الحجاج، يائساً من السلامة.

ولعل المهم في تأليف القصة هو ما جاء في آخرها من شتم الحجاج، وعبدالملك بن مروان، وما الحوار السابق لهذا الشتم إلا مدخل طريف، يساعد على قبول الفكرة، دون أن يُكشف الهدف من أول القول، إذا بدئ بالشتم.

والحجاج خير من يختار لمثل هذا الجدل، لما سبق أن قلناه، ولما عرف عنه من الاستطلاع، وفتح نوافذ عقول الرجال، والدخول إلى أعماقها، والتعرف على ما لدى الخبير في حقله، والمهني في مهنته؛ ولعله

كان يدرك أهمية الثقافة العامة، والعلم المتخصص للحاكم، لأن هذا يساعد على معرفة تصرف الناس، وما يحكم أعمالهم، وهذا يسهل عليه أمر التعامل معهم. ومن أمثلة مواقفه هذه موقفه مع أعرابي رآه في زرع، فدار بينه وبينه حديث هذا مؤداه:

«قال الهيثم بن عدي عن ابن عياش عن أبيه:

خرج الحجاج إلى القاوسان، فإذا هو بأعرابي في زرع، فقال له:

ممن أنت؟

فقال: من أهل عمان.

قال: فمن أي القبائل؟

قال: من الأزد.

قال: كيف علمك بالزرع؟

قال: إني لأعلم من ذلك علماً.

قال: فأي الزرع خير؟

قال: ما غلظ قصبه، واعتم نبته، وعظمته جبته، وطالت سنبلته.

قال: فأي العنب خير؟

قال: ما غلظ عموده، واخضر عوده، وعظم عنقوده.

قال: فما خير التمر؟

قال: ما غلظ لحاؤه، ودق نواه، ورق سحاه (قشره)». [1]

هذا قول رصين، إذا صح أنه جرى بين الحجاج والمزارع الخبير، وليس فيه ما يضعف الثقة فيه إلا السجع، الذي قد يوحي بتكلف هو بعيد عن طبيعة الأعراب، خاصة في حال الارتجال، والمفاجأة بالسؤال، وطلب المعرفة والعلم.

وصعصعة بن صوحان رجل معروف، ويصلح أن يتخذ مشجباً تركب عليه قصة، عمودها الطرافة، ولحمتها استعراض المعرفة، والمباهاة بالقدرة على التلاعب بالألفاظ والمعاني، والمخالفة بينها، رغم مظهر الموافقة؛ وقد بقي سائل صعصعة مجهولاً،

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٤٦.

لأن المهم في هذه القصة هو الذي ألقي إليه السؤال، وليس السائل. والقصة احتفظت بخطة التلاعب بالكلمات، ومراوغة الحروف للمعاني، وجعل السؤال في منأى عن الجواب، رغم ما يبدو فيه من قرب؛ والقصة هكذا:

«قال أبو عمرو:

خرج صعصعة بن صوحان، عائداً إلى مكة، فلقيه رجل، فقال له:

يا عبدالله: كيف تركت الأرض؟

قال: عريضة أريضة [معجبة للعين].

قال: إنما عنيت السماء.

قال: فوق البشر، ومدى البصر.

قال: سبحان الله، إنما أردت السحاب.

قال: تحت الخضراء، وفوق الغبراء.

قال: إنما أعني المطر.

قال: عفّى الأثر، وملأ القُتَرَ[1]، وبلّ الوبر،

(١) جمع قترة، وهي البئر، يحتفرها الصائد، يكمن فيها.

ومطرنا أحيا المطر.

قال: إنسيّ أنت أم جنّي؟

قال: بل إنسي، من أمة رجل مهدي ﷺ»[1].

لقد أبدى واضع القصة من التكلف كثيراً في اختيار الكلمات التي توحي بمعنيين محتملين، وجعل المسؤول يختار أبعدهما عن المقصود، حتى استطاع أن يكرر غرضه من الأمر في تكرار السؤال بصيغ متتابعة، متماثلة في الإيهام، ومتحدة في التضليل، ولم ينس السجع، ليكون من حظنا أن يزيد شكنا في القصة، وإن كانت طرافتها لم تنقص، بل إن الكاتب ينال الإعجاب في مقدرته على إقامة حلبة المراوغة بين الكلمات والمعاني، على نمط من قبله، ولكن بابتكار زاوية تختلف عنهم.

وليس كل الخوارج، الذين شقوا عصا الطاعة للأمويين، جهلة، ويغلبهم الحجاج، الفقيه، بسهولة، فهناك من بينهم من هو ضليع في الدين، إذا صحت

---

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٩٩.

الرواية، التي سوف نوردها هنا، ولم تكن من الأفكار البراقة، التي تلوح في أفق ذهن الأديب، فيرمي سهمه عليها، ويقتنصها، وينضجها في بوتقة عقله، ثم يبحث عن شخص، أو جهة، يعلقها عليها؛ ويبدو علم أحدهم العميق، في معرفته ببعض الأمور التي أضفى عليها الدين ظله، ولكنها في الهامش، وليست في الصدر أو المتن، مثل القصة الآتية، وما جاء فيها من حكم فقهي، أنقذ أحد السابلة:

«لقي الخوارج رجلاً، فهموا بقتله فقال:

أَعُهِدَ إليكم في اليهود شيء؟

قالوا: لا.

قال: فامضوا راشدين».[1]

لقد عرف هذا الرجل أن الخوارج ليسوا معادين لليهود، ولا يطلبونهم بأذى؛ وهم أهل ذمة، لهم حقوق، من جملتها عدم التعدي عليهم، أو مسهم بسوء، إلا بسبب يحدده الدين؛ ولهذا سألهم الرجل

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٩٨.

إن كان هناك سبب في ذهنهم يعطيهم الحق في التعرض له؛ فلما أجابوا بالنفي، طلب منهم أن يمضوا في طريقهم، ويتركوه في سبيله.

هنا لا يخلو الأمر من تلاعب بالألفاظ والمعاني، فالمعنى ألبس غير ثوبه، لأن الرجل مسلم، أخفى إسلامه، وفي الوقت نفسه لم يقل إني يهودي، وإنما أوهمهم أنه يهودي، والحقيقة أنه لم يزد عن أن يسألهم سؤالاً، ركب عليه وهم، ركب عليه دفع أذى؛ وهي مراوغة بارعة بين الألفاظ والمعنى.

وعند نخل الأدب العربي في العصر العباسي نجد أن ما يبقى حقيقة قليل إذا ما قيس بما سجل، وأظهر على أنه كذلك، وهو لا يزيد عن قصص متخيلة، سبكها الأدباء والكتاب، وفيها روح العصر، ومشاكله، وما يدور في المجتمعات، مما يهم الناس، ويسليهم أحياناً، ويزيد لبساً أحياناً أخرى. وقد اختاروا هذه الطريقة مثلما اختار أدباء زمننا تأليف القصص لمعالجة مشاكل عصرنا، أو عرضها بثوب

يظهر حقيقتها، مع التنبيه إلى ما يكمن خلفها، أو ينذر بخطر تفشي ظاهرة من الظواهر، أو اتجاه من الاتجاهات.

وكاتب الخبر، أو مؤلف القصة، أحياناً يأخذه الحماس، فيوغل في الخيال، أو الأسلوب، وينسى نفسه، وينسى أنه ركب القصة على فلان، وأنه حريص على أن يقبلها الناس كما قدمها، ويصدقوه فيما ادعاه؛ ويأتي قارئ في زمننا، بعد أن زالت حواشٍ كانت تسند القصة، أو بعد أن بهت لونها، فيتبين فيها طلاء غير الطلاء، ويتحقق المعدن الأصل، الذي دهن بدهان زائف، ومن القصص التي ينطبق عليها هذا بعض ما يكتب عمن له صلة بأبي موسى الأشعري، خاصة بلال بن أبي بردة؛ فإذا كان أبو موسى قد اعتبره الأمويون في زمن معاوية ـ والجرح لا يزال يدمي ـ وفي حكم من جاء بعده، عدواً، ساند علياً، ونال ثقته، إلى الحد الذي جعله يختاره حكماً من جانبه في واقعة صفين، عندما رفعت

المصاحف، وطلب التحكيم، فإن ابن أبي بردة تولى القضاء، فاجتمع عليه العداء، وجاءه مضاعفاً، شعبة منه ورثها مع ما ورث عن جده أبي موسى، وشعبة جاءته من القضاء، ونصف المتحاكمين ساخطون على القاضي.

والقصة الآتية تري كيف صُور بلال بصورة لا نجد أنها يمكن أن تأتي من قاض، له هيبته، وله مقامه؛ ولا نجد في التكلف الظاهر في الجدل ما يقنع بأنه حدث فعلاً، رغم أن القاص حاول أن يبني قوله على أساس متين، يبعد فيه الشبهة عن الاختلاق، فأقام قوله على ما اشتهر به بلال من الصدق، وتحريه، في كل ما يقوله أو يفعله، وهو ما يليق بقاضٍ، له شهرة، وله صيت:

«قال أبو الحسن:

أراد رجل أن يكذب بلالا، فقال له يوماً:

يا بلال: ما سنّ فرسك؟

قال: عظم.

قال: فكيف جريه؟

قال: يحضر ما استطاع.

قال: فأين تنزل؟

قال: موضعاً أضع فيه رجلي.

قال الرجل: لا أتعنّتك أبداً». [1]

والحمد لله رب العالمين، لقد نجح القاضي، و «دقي يا مزيكة»!

وقد اقتنع الشاكّ، وأخفق التحدي، وتبينت الحقيقة، ومقدرة القاضي، وأن صفة الصدق عنده طبيعة، وليست تكلفاً! وسوف لا يتعرض القاضي لامتحان آخر، يوضع له فيه شباك صيد، يؤمل أن يقع فيه، فيكشف أمر تصنعه، وتظاهره بما ليس فيه!

وعند تحليل النص نجد أجزاءه متنافرة، ويقف خلف كل جملة عامل يختلف عما يكمن خلف الأخرى؛ فالسؤال عن سن الفرس، كشف عن أن في ذهن واضع القصة القصص السابقة التي يعمد

---

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٩٨.

فيها السائل إلى السؤال عن السن، فيتوهم المجيب غير المقصود، كما حدث من الرجل الذي سأل هشام ابن عمرو الفوطي بقوله: كم تعد، ثم كم تعد من السن؟ ثم كم لك من السنين؟ ثم ما سنك؟ ثم ابن كم أنت؟ ثم كم أتى عليك؟ إلى أن ختمها بالسؤال الصحيح: كم مضى من عمرك؟ وسائل هشام لم يترك لسائل بلال غير سؤال واحد، ولهذا لم يبعد عن جواب هشام، وهو كلمة عظم، وليجعل الأمر مقبولاً، ويبعد الشبهة، فلم يكن السؤال عن سن بلال، وإنما عن سن فرسه.

ومادام السؤال عن الفرس، فلابد من سؤال آخر، ويبدو أن مدى تصور الكاتب ليس عميقاً، فلم يذهب بعيداً، ولم يسأل إلا عن جريه، ولما أجيب بأنه يصل إلى بغيته إذا جرى، وهو جواب عام، انقطع علم السائل بالخيل، ثم انتقل انتقالاً مفاجئاً إلى بلال نفسه، فسأل أين ينزل، مع أنه لم يسأل في أول الأمر أين صعد على ظهر الفرس، وانتهى الأمر بعد

ثلاثة أسئلة ضحلة.

ثم يحكم الكاتب أن الأسئلة فيها تعنت، وهذا يعني أن القاضي ـ أعانه الله ـ تعرض لامتحان شديد، خرج منه، بعد طلق ولادة، وعسر مخاض، بتوءم ذكر، «زغرد» لها الحي بأكمله، وسمعته المدينة جميعها؛ وأصدر السائل حكمه على موقفه مع القاضي بعد اليوم صكاً موثقاً، بأنه لن يتعرض له، وأنه قد أعطاه الشهادة مصدقة مختومة، فلينم القاضي مستريحاً، تداعبه الأحلام الجميلة!

وتتلاعب الكلمات مع المعاني، وتتقافز في الهواء، تتباعد وتتقارب، وتكثر المراوغة في نص جيء به أيضاً عن قاض علم، ويبدو أن تعليق الأخبار على العلماء، خاصة القضاة منهم، مشجب جذاب للأدباء، يجدون فيه قوة تحمل، تجعلهم يثقون أن ما يعلقون عليهم، يبقى ثابتاً مقبولاً، وفي القصة التالية مراوغة في الإجابة، وبُعدٌ متعمد عن الإجابة المستقيمة، المباشرة، وقد يكون هذا القول اختير

تعليقه على شريح، مع عدم نفي صحته، لما فيه من روح شريح، وإن كانت أقرب لروح إياس بن معاوية والنص هو:

«تقدم رجلان إلى شريح في خصومة، فأقر أحدهما بما يدعي الآخر عليه، وهو لا يعلم، فقضى عليه شريح؛ فقال الرجل:

أتقضي عليّ بغير بينة؟

فقال: قد شهد عندي ثقة.

قال: ومن هو؟

قال: ابن أخت خالتك» .(١)

وأسلوب المراوغة في الاجابة، وتحاسد الألفاظ مع المعاني، لم يأت ـ كما يقول التعبير الحديث ـ من فراغ، وإنما له أصل، وله أرومة يرجع إليها؛ وهذه لها قوتها، لما تأتي به من فائدة واضحة، وأحياناً فائدة عظمى، لأن المرء يقول فيها القول المجزي، المقنع للسائل، أو المستمع، وفي الوقت نفسه، إذا

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣٧.

تبين أن الأمر خلاف ما قيل لم يلحق الموهم لوماً، فاللوم على من فهم غير المراد، لا من أوهم غير المراد، وأبعد القريب، وقرب البعيد، من أجل الوصول إلى هذا الهدف المضلل.

ولا يستطيع إتقان هذا، إذا جاء صحيحاً، إلا إنسان ذكي، قادر على التلاعب بالكلمات، والمزاوجة غير الشرعية بينها وبين المعاني، وما يوجده هذا من مطاردة بينها، ومناورة، ومراوغة، تنتهي بنتيجة غير متوقعة، لأن المطارد، والمراوغ، في ذهابه يميناً ويساراً، كأنه يقوم بذلك في ظلام، فقد يمسك من يريد، وقد تأتي يده على ما لا يريد، من عمود، أو باب، أو حاجز، أو غير ذلك. والقصة الآتية عن شريح في هذا المجال، مجال الإيهام، والمراوغة بين اللفظ والمعنى:

«حدث الأصمعي قال:

مرض زياد، فدخل عليه شريح، فلما خرج، بعث إليه مسرور بن الأجدع يسأله:

كيف تركت الأمير؟

قال: تركته يأمر وينهى.

فقال مسروق: إن شريحاً صاحب تعريض، فسلوه.

فسألوه، فقال: تركته يأمر بالوصية، وينهى عن البكاء». [1]

مسروق بن الأجدع كان حريصاً أن يعرف عن حال زياد، في مرضه، ومسروق لا يخرج عن أحد رجلين، إما محب يرجو أن يطمئن على أنّ زياداً بخير، وأنه سوف يشفى من مرضه ويقوم من فراشه، ويعود إلى عمله، وتقر به عين أصحابه ومحبيه؛ وإما رجل عدو، وكاره، ويتمنى سماع قول بموت زياد، أو زيادة مرضه، واليأس منه، فيفرح بقرب الارتياح منه، والتخلص من حكمه. وقد قطع شريح «شَفَّ» هذا المتطلع، وخيب أمله، وجعله في حيرته، لم يخرج منها؛ وقد أدرك مسروق، بحكم

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢١٧.

معرفته بشريح، أن شريحاً لعب بعقول سائليه، ولم يعطهم القول المحدد لحالة زياد، وأنه جرى على عادته في التضليل عن قصد، وبالتعريض بما يوهم الأمر وضده.

هذه رواية ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار»، أما صاحب البصائر، فقوله يدل على أن التساؤل فيما قاله شريح، والعجب مما أوهم به، جاء بعد أن توفي زياد، وصاح الصائح، وندبت النادبة، ونصه هكذا:

«خرج شريح من عند زياد، في علته، فسئل عنه، فقال:

تركته يأمر وينهى.

فقام الواعية، فقيل له:

ألم تقل كذا وكذا؟

قال: تركته يأمر بالوصية، وينهى عن النوح». [1]

وهذا يدل على أن الناس لم يتنبهوا إلى التعريض

(١) البصائر: ٥/ ١٩٢.

الذي نبه إليه مسروق في النص السابق، إلا بعد أن قامت النائحة على زياد، وشاع خبر موته.

وصاحب كتاب «ربيع الأبرار» جاء بالخبر، بصيغة أخرى، لا يظهر منها متى تبين غرض شريح فيما قاله عن زياد، وهل كان الاكتشاف قبل الموت، أو بعد أن مات زياد، والنص هكذا:

«عاد شُرَيْحٌ زيادَ بن أبيه، فلما خرج، قيل له:

كيف تركته؟

قال: تركته يأمر، وينهى.

خيل إليه أنه صحيح، يقوم بإمارته، آمراً ناهياً، وإنما أراد أنه مُشف، يأمر بتنفيذ وصاياه، وينهى عن النوح عليه». [1]

والتلاعب بالألفاظ قد يأتي بصورة مغايرة لكل ما لمسناه، ويكون التناطح بالقول المراوغ بين فحلين من الأدباء كفيين، سواء كان القول أصيلاً، أو مركباً، والمراوغة مركبة بين لفظ ومعنى، ولفظ

---

(١) ربيع الأبرار: ١/٧١٦.

ومعنى آخر، مثل ما في القول الآتي:

«قال يموت بن المزرِّع:
قال لي ابن صدقة المزني: ضربك الله باسمك.
فقلت له: أحوجك الله إلى اسم أبيك» .[1]

ونعود إلى شريح، وتعريضه، ومقدرته على الإيهام فيما يقول، وأخذ الناس إلى هدف جادته مضللة، وبراءته من الخطأ عندما يتبين أن الأمر غير الأمر، وقيام براءته بعذر واضح مقبول، فننقل النص الآتي:

«مات ابن لشريح، ولم يشعر به أحد؛ فغدا عليه قوم يسألونه به، وقالوا:
كيف أصبح من تصل يا أبا أمية؟
فقال: الآن سكن عَلَزُه، ورجاه أهله» .[2]

لقد صدق شريح، ففي الموت راحة، وسكون للألم والعناء، ولأهل الميت الطفل أن يرجوا له الجنة، ولهم الشفاعة فيه.

---

(١) البصائر: ٢/ ٢١٤.
(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٢١٧.

أما السائلون فقد ظنوا أنه حي، وأنه بخير، فقد سكن عنه الألم، لدبيب العافية في جسمه، ولتحسن حاله، ورجا أهله أن يقوم على قدميه قريباً، فيعود إلى حياته السابقة صحيحاً معافى.

واللمز، والغمز، ومرامي الأقوال المبهمة، والإيهام بمعنى، والمقصود غيره، وقد يكون خلافه تماماً، بل وضده، تدخل في باب المراوغة بين اللفظ والمعنى، والمطارحة العنيفة، التي يصبح فيها غالب، ومغلوب، كما تبينه النتائج فيما بعد، عندما يكشف الستار، ويتبين المعمّى، ويتضح المبهم، وتعرف المقاصد، والمرامي، كما في الحوار الذي تم بين سنان ابن مكمل النميري، وعمر بن هبيرة، وإن كان ما يقال عن النميريين، يحتاج إلى حذر شديد، كما سبق أن نبهنا، ونبه غيرنا إلى المزالق، التي يقع فيها، من لايدقق في ما يقال عن النميريين، وما كان هناك من تقصد، للانتقاص منهم، لأسباب تقدم شرحها بالتفصيل، وسبق الكشف عما وراءها، مع

الأمثلة التي تبرهن على ما نقول:

وفي القصة الآتية مراوغة، وترَامٍ من خلف الستار، وكان المتراميان، قد وُضِعَا على المسرح متساويين، وأجريت المباراة بينهما بطريقة لا تخرج عن مثيلاتها فيما يلمس القبائل، هذا في الهدف، أما في اللفظ والمعنى فتدخل تحت حكم عنوان هذا المقال:

«كان سنان بن مكمل النميري يساير ابن هبيرة يوما، وهو على بغلة، فقال له عمر بن هبيرة:

غض من بغلتك.

قال: كلا، إنها مكتوبة.

أراد ابن هبيرة قول الشاعر:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ
فَلاَ كَعْبًا بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

وأراد سنان قول الآخر:

لاَ تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ
عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بِأَسْيَارِ»[1]

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٢٠.

ومثل هذا الموقف موقف آخر يعزى لمعاوية مع الأحنف ابن قيس، ومعاوية والأحنف، رجلان يجد الكتاب فيهما ما يقبل من رواية صحيحة ومفتعلة، وهذا يأتي نظراً لمقامهما، وصِلَتهما بالناس، في فترة مهمة من حياة الدولة الأموية، فهذا رئيس الدولة، وهذا رئيس قبيلة من أكبر القبائل، ومن أهمها، لعبت دوراً بارزاً في الوقائع التي حدثت في تلك الفترة، وما قبلها؛ ولهذا فمحاولات القول عنهما متعددة، وكل مجال يتسع لشيء كثير مما يمكن أن يروى، وما ينحت، والقصة الآتية، تسير على نهج مماثل لقصة سنان وابن هبيرة، وفيها إيهام، ولغة صامتة خلف اللغة المنطوقة، ومعنى مختفٍ، خلاف المعنى الظاهر؛ هذا يبرز واضحاً، ولكنه غير مقصود، وذلك مستح مختف، وهو عين القصد؛ هذا إذا صحت الرواية، وإلا فهي ابنة القاص، ونتاج فكر المؤلف، شرفها بتعليقها على كتف رجلين من أبرز رجالات العرب:

«حدث أبو حاتم عن الأصمعي قال:
قال معاوية للأحنف: يا أحنف ما الشيء الملفف في البجاد؟
قال: هو السخينة.
أراد معاوية قول الشاعر:

إِذَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيْمٍ
فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيْشَ فَجِئْ بِزَادِ
بِخُبْزٍ أَوْ بِتَمْرٍ أَوْ بِسَمْنٍ
أَوْ الشَّيْءِ المُلَفَّفِ فِيْ البِجَادِ

وأراد الأحنف: أن قريشاً تعير بالسخينة». [1]

ليس بعيداً أن يمازح الكبيرُ الكبيرَ الذي يليه في الأهمية أو المركز؛ إلا أن بعض الظروف قد تمنع ذلك، وليس بعيداً أن يداعب معاوية الأحنف، إلا أننا عند التدبر نجد أن هذا مستبعد أن يتم على حساب معايرة أحدهما للآخر، في أمر يخص قبيلة، وخاصة في أمر يلمس عصر الجاهلية، فكثير من أمور القبائل

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٢١.

في صدر الإسلام يقوم على أحوال القبائل في ما قبل ذلك؛ وقبيلة الأحنف لعبت دوراً نشيطاً في أيام علي ضد معاوية، ولا يتوقع معاوية الذي أصبح الأحنف عنده، يجازف بإعادة نبش الجراح، وإحياء التِّرَات، وهو المعروف بعقله، وبعد نظرِه، واستماتته في تأليف قلوب أعدائه.

ومعاوية لا يظن بحال من الأحوال أنه يجهل «الشيء الملفف في البجاد»، ومادام يعرفه فإن سؤاله عنه يصبح واضحاً أنه استفزاز، وهو ما ظننا أن معاوية لا يقدم عليه. ولكن وجود معايرتين للرجلين أيام الجاهلية أغرت واضع القصة أن يسبك الخبر هذا السبك الموهم، ولا نشك أن عدداً ممن قرؤا الخبر استلطفوه، واستملحوه، وأعجبوا به، واعتقدوه صحيحاً، وحادثاً بين الرجلين.

وتصل المراوغة في الألفاظ، والمناورة في المعاني قمتها، بين رجلين، فطحلين، لهما باع في العلم والأدب، استفادا من ذلك، في رياضة فكرية، وفي

إظهار مقدرتهما على السيطرة على لغتهما، وعلى التلاعب بالألفاظ والجمل، والإتيان في ذلك بما لا يقدر عليه إلا من كان مثلهما، في قوة اللغة، وإتقان هذا الفن، حتى أصبح في لسانيهما، وذهنيهما، كأنه عجينة لدنة، يشكلانه كما يشاءان؛ وهذا لم يأت لهما بهذا الإتقان المتناهي، إلا بعد مران فكري طويل:

«كان بين محمد بن محمد، المعروف بالعماد الأصفهاني، وبين القاضي الفاضل، مراسلات، ومحاورات، فمن ذلك أنه لقي القاضي يوماً، وهو راكب على فرس، فقال له:

«سر فلا كبا بك الفرس».

فقال له الفاضل: «دام علا العماد».

وكلا القولين يقرأ عكساً وطرداً». [1]

هذه لمحات عن بعض ما ورد في كتب الأدب، تعطي نماذج لبعض النشاط العقلي في ذهن القوم في

---

(١) معجم الأدباء: ٩/ ١٨.

تلك الأزمان، وتعلقهم بهذا اللون من الفكر والأدب، وهي لا تخلو من طرافة ومتعة.

* * *

# الفهـارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ............ ٤٤٧
(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ..... ٤٤٨
(٣) فهرس الأسماء .................................. ٤٤٩
(٤) فهرس الأماكن ............................. ٤٥٥
(٥) فهرس المراجع والمصادر ...................... ٤٥٧
(٦) فهرس الأبيات الشعرية ....................... ٤٦٣

***

(١)

# فهرس المواضيع حسب ورودها


* المقـــدمـة ........................................ ٥
* مسـاقـط لـــذة ........................................ ٢١
* أمهارة هي أم تجارة ........................................ ٤٨
* ظـــاهـر وبـاطـــن ........................................ ٨٤
* الجـــود مـــودود ........................................ ١٣٦
* وزن الوصـــايـا ........................................ ١٧٠
* صـــدر المجـلس ........................................ ٢٥٤
* الأمانة في ردائها الجميل ........................................ ٢٨٠
* وميض الأقـــوال ........................................ ٣٢٨
* مرواغة بين لفظ ومعنى ........................................ ٤٠١


***

(٢)

# فهرس المواضيع
# حسب حروف الهجاء


* المقــــدمــة ........................ ٥
* الأمانة في ردائها الجميل ........................ ٢٨٠
* أمهارة هي أم تجارة ........................ ٤٨
* الجــود مــودود ........................ ١٣٦
* صـــدر المجلس ........................ ٢٥٤
* ظـاهـر وباطـــن ........................ ٨٤
* مرواغة بين لفظ ومعنى ........................ ٤٠١
* مســاقط لـــذة ........................ ٢١
* وزن الوصـــايـا ........................ ١٧٠
* وميـض الأقــوال ........................ ٣٢٨


***

# (٣) فهرس الأسماء


(أ)

إبان بن تغلب: ٢٠٩

إبراهيم بن أدهم: ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٩٦

إبراهيم الجهمي: ١٧٧

إبراهيم بن عبدالله الحسن: ٢٢٥، ٢٢٧

إبراهيم النخعي: ٢٧١

الأبرش: ٣٩٤

أبرويز: ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٥٦

أحمد بن دواد: ٣٢٢، ٣٢٣

الأحنف بن قيس: ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣

أردشير: ٢٥٦

الأزارقة: ٢٧

الأزد: ٤٢٢

أسامة بن زيد: ٢٥٠، ٢٥١

إسحاق بن إبراهيم القرشي: ٢٧٦

أسماء بن خارجه: ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨

أبو الأسود الدؤلي: ١٩٥، ١٩٦، ٢١٧

الأشعث بن قيس: ٣٢١، ٣٢٢

الأصمعي: ٤٥، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٩، ٣٢٠، ٤٣٤، ٤٤٢

الإفرنج: ٩٥

أكثم بن صيفي: ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦

أمامة بنت الحارثة التغلبية: ١٨٦

بنو أمية: ٤٠، ١٥٦، ١٥٩، ١٧٤، ٤٤١

الأنصار: ٣٧٠، ٣٧٦، ٣٧٧

أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري: ٣٠٣، ٣٠٤

أنوشروان: ٢٥٦

أبو عمرو الأوزاعي: ٣٠٥

إياس بن عوف: ١٨٦

إياس بن معاوية: ٢٩٢، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٥١، ٣٥٢، ٤٣٣

أيوب بن القِرِّيَة: ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦

(ب)

البرامكة: ٢٦٢

بزرجمهر: ٤٦، ٤٧

بسمارك: ٢٦١، ٢٦٢

بشر الحافي: ٣٤، ٣٥، ١٨٨، ١١٩

أبو بكر الصديق: ١٦٥، ١٦٦، ٢٥١، ٣٠٦، ٣١٢، ٣١٣

بلال بن أبي بردة: ٤٢٨، ٤٢٩

(ت)

بنو تميم: ٢٥٨

بنو تيم: ١٤١

(ث)

أبو ثوابة: ٢٦٤

(ج)

الجاحظ: ٣٧٧، ٣٨٨، ٣٣٩، ٣٦٦، ٣٦٧، ٤٠٨

أبو حنبل جارية بن مرّ (مجير الجراد): ٣١، ٣٢

جحا: ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١

جعفر البرمكي: ٢٦٢

ابن الجوزي: ٢٨٩

(ح)

حاتم الطائي: ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣

أبو حاتم: ٣٩٠، ٣٩٣، ٤٤٢

الحارث بن عمرو الكندي: ١٨٦

حارث بن عوف بن حارثة: ٣١١

ابن حبان البستي: ٣٩٤، ٣٩٧

أبو بسطام حبيب بن المهلب بن أبي صفرة: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠

الحجاج بن يوسف: ٢٩، ٣٠، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٤٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٥

ابن حذّاق العبدي: ٢١٩

حذيفة: ٢١٦

حسان: ٣١١، ٣١٢

الحسن البصري: ٧٥، ٨٢، ٣٦٨

الحسن بن سهل: ٢٤٣

أبو الحسن: ٤٢٩

حطان بن المعلا الطائي: ٣٢٥

الحطيئة: ٢١٦

أبو حفص الحداد: ٢٩٦

حكيم بن حزام: ٥٥، ١٥٤، ١٥٥

(خ)

أبو خارجة: ٤٥

خالد بن الوليد: ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١١

الخضر عليه السلام: ٢٣٥

الخوارج: ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٥

(ر)

الربيع بن سليمان: ٣٩٥، ٣٩٦

الرسول ﷺ: ٢٣، ٢٤، ٣٣، ٣٤، ٤٥، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ١١٢، ١٥٥، ١٨٣، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٦، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٥٨، ٣٧٩هـ

هارون الرشيد: ١٣٣، ٢٥٧، ٢٦٢، ٤١٨

قبيلة ربيعة: ١٧٧

الرِّضَى أبو الحسن الموسوي: ٣٥٥

الروم: ١٣١، ١٣٢

(ز)

الزبرقان بن بدر: ١٨٦هـ

الزبير بن العوام: ٦٤، ١٨٩

ابن الزنجي البغدادي: ٣٩٥

أبو أمامة زياد الأعجم: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠

زياد بن أبي سفيان: ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦
أم الزيال العبسية: ٢٤١
زينب بنت الرسول ﷺ: ٣١٣

(س)

سابور: ٢٥٦
سالم بن عبدالله بن عمر: ١٢٠
ستوديبيكر: ١٠٤
أبو السرايا: ٢٤٢
سرية خضرة: ٢٥٠
سعيد: ٢٤
سعيد بن العاص: ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩١
سعيد بن عمرو: ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥
سعيد بن المسيب: ٧٩
أبو العباس السفاح: ٢٦٠
أبو سفيان: ٣٣، ٣٤
سقراط: ١١٤، ١١٥
أبو عبدالله سليمان: ٣١١
بنو سليم: ١٥٦
سليمان بن عبدالملك: ١٠٧، ١٠٨
سنان بن مكمل النميري: ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١
سهل بن حنيف: ٧٦
سهل بن هارون: ٣٣٦، ٣٣٧
سوار: ٢٠١
سيرويه بن أبرويز: ٢٣٩
سيرين أخت مارية القبطية: ٢٣
محمد بن سيرين: ١٠٩، ١١٠، ١٣٠، ١٣١

(ش)

الشافعي: ٣٥٩، ٣٩٦
ابن شبرمة: ٢٦٠، ٢٦١
شريح: ٣٨٧، ٤١٤، ٤١٦، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨
شريك بن عبدالله النخعي: ٩١، ٩٢
الشعبي: ٣٨، ٣٩، ٤٠، ١٣٣، ٢٦٧
ابن شهاب: ٥٥

(ص)

صالح بن علي بن عبدالله بن عباس: ٢٥٣
ابن صدقة المزني: ٤٣٨
صعصعة بن صوحان: ٤٢٣، ٤٢٤

(ط)

طاهر بن الحسن: ٣١٩

(ع)

ابن عائشة: ٣١٢
عـاد: ٣٢
أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزى ابن عبدشمس: ٣١٣، ٣١٤
عامر بن الظرب: ١٨٤هـ
العباسيون: ١٧٤، ٢٥٣
عبدالرحمن بن عوف: ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٦
عبدالرزاق بن همام الصنعاني: ١٣٣
عبدالله بن جحش: ٢٤٧، ٢٤٨

عبدالله بن جدعان التيمي: ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
عبدالله بن جعفر: ٦٥، ٦٦
عبدالله بن الحسن بن الحسن: ٢٢٥، ٢٢٦
عبدالله بن الحسين: ٨٠
عبدالله بن الزبير: ١٥٤
عبدالله بن شبرمة: ١١٦، ١٧٤
عبدالله بن شداد بن الهادي: ٢١٦، ٢٢٢
عبدالله بن عباس: ٤٠، ٤١، ٤٢، ١٣٢، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٦
عبدالله بن عمر: ٧٤، ٧٥، ١١٩
عبدالله العلي الخويطر: ٢٨٨
عبدالله بن قيس بن مخرمة بن عبدالملك: ٣٤٥، ٣٤٦
عبدالله بن مسعود: ٢٦٥، ٢٦٦
عبدالمسيح بن عمرو بن قيس بن حيان ابن نفيلة الغساني: ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٠
عبدالملك بن مروان: ٤٠، ٤١، ٤٢، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٣٣، ١٤٣، ٢٣٤، ٢٥٧، ٣١٧، ٣١٨، ٤٢٠، ٤٢١
الرشيد أبو الفوارس عبدالملك بن نوح: ٩٨، ٩٩
أبو عبيد البكري: ١٢٩
عبيدالله بن زياد: ٢٤٠
عبيدالله بن أبي بكرة: ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨
عبيد بن معمر: ٢٧٦
عتيبة بن ربيعة: ٢٤٥
عثمان بن أبي العاص: ١٨٠
عثمان بن عفان: ٢٥٧
أبو عثمان الحيري: ٢٩٦
العثمانيون: ١٩٨
عدي بن أرطأة: ٤١٤هـ
عدي بن الرقاع: ١٦٤
عروة بن الزبير: ٢٥، ٢٦، ٢٧، ١٤٤، ١٤٥
عروة بن الورد: ٢٣٣، ٢٣٤
علي بن أبي طالب: ٣١٠، ٤٢٨
علي بن الحسين: ٣٣٤
علي بن محمد: ٣٩٨، ٣٩٩
العماد الأصفهاني محمد بن محمد: ٤٤٤
الملك عمارة: ٥٩
عمر بن الخطاب: ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١٨١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٥٧، ٣٠٩
عمر بن عبدالعزيز: ١٦٣، ٢٣٧، ٢٣٨، ٣٤٥، ٣٦٠، ٣٨٥
عمر بن هبيرة: ١٥٦، ١٥٧، ٣٠١، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١
أبو عمرو: ٤٢٤
عمرو بن سعيد: ٣٨٣
عمرو بن عبيد: ٧٥، ٧٦
عمرو بن قيس: ٦١
عمرو بن كلثوم: ١٥٣
عمير بن حبيب: ٢١٤، ٢١٥

عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان: ١٨٦
ابن عياش: ٤٢٢
عبس: ٢٦
أبو عيسى: ٣٩٦، ٣٩٧
ابن عيينة: ٢٦٠

(غ)

غـزوان: ١١٧

(ف)

فـارس: ١٠٠
الفـرس: ٢٣٩
الفرياني: ٣٠٥
فيثاغورس: ٤٢، ٤٣، ٤٤
فيروز بن حصين: ١٦٨
فيصل بن عبدالعزيز: ١٠٤، ١٠٦

(ق)

القاسم بن معن: ٩١، ٩٢، ٩٤
القاضي الفاضل: ٤٤٤
قبــاد: ٢٥٦
أبو قتــادة: ٢٥٠
قتــادة: ٣٥٩
ابن قتيبة: ٤٣٦
قريش: ٥٤، ١٠٧، ١٥٤، ٣٤٥، ٣٨٤
القشعم: ٢٠٢
قيس بن الخطيم الأنصاري: ٢١٨
ابن قيس الرقيات: ١٤١
قيس بن سعود بن قيس بن خالد: ١٨٩
قبيلة قيس: ٣٩٩

(ك)

الكريزي: ٣٩٠، ٣٩٧
كسرى: ٤٦، ٤٧، ٣٠٩
كيشاسف: ٢٥٦

(ل)

لقمان: ١٢٩
لقيط بن زرارة بن عدس: ١٨٩
ابن أبي ليلى: ٢٦٠

(م)

ماري تريزا: ٢٨٥
مارية القبطية: ٢٣
مالك بن أسماء: ١٦٦، ١٦٧
مالك بن أنس: ٣٧٤هـ
المأمون: ٢٤٢، ٤١٨، ٤١٩
المـبرد: ٤١٢
مجـاهـد: ٤٦
بنـو محـارب: ٣٠٨
محمد بن إسحاق بن حبيب: ٣٩٤، ٣٩٩
محمد بن الأشعث: ٢٥٨
محمد بن الحنفية: ٣٢، ٤٠
محمد بن عبدالله بن الحسن: ٢٢٥، ٢٢٧
محمد بن عبدالوهاب: ٢٨٥
محمد بن علي بن حسين: ٢٣٧
محمد بن كعب القرظي: ٢٣٨
أبو نصر محمد بن مروان الجعدي: ٣٢٦، ٣٢٧
أبو عبدالله محمد بن واسع الأزدي: ٦٢، ٦٣

المخـــتار: ٢٤٠
المـدائـني: ١١٦
أبو عبدالله المروزي: ٣١٩
مسروق الأجدع: ٤٣٤، ٤٣٥
أبو مسلم بن عبدالله: ٦١
مصعب بن عثمان: ٣٧
مطرف بن مازن: ١١٣
معاوية بن أبي سفيان: ٧٢، ١٣١، ١٥٤، ٢٥٧، ٣٣٧، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦١، ٤٢٨، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣
معاوية بن يزيد بن المهلب: ٣٨٥، ٣٨٦
المعتصم: ٣٢٢، ٣٢٣
أبو عبيدة معمر بن المثنى: ٢٧٦
معن بن زائدة: ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠
المغيرة بن عيينة: ١١١
المقنع الكندي: ٢٢١
المنتصر بن بلال: ٣٩٢
المهلب بن أبي صفرة: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ١٦٤
أبو موسى الأشعري: ٤٢٨، ٤٢٩
موسى ـ عليه السلام ـ ٢٣٥
موسى بن نصير: ٩٥
ميمون بن مهران: ٣٦٠، ٣٦١
ميمون بن ميمون: ٨١

(ن)

ابن النجار: ٣٢٦
النعمان بن بشير: ٤١٦
نــوح: ٤٢

(هـ)

بنو هاشم: ٤٠، ٢٢٥
هانئ بن قبيصة: ٢٤٦، ٢٤٧
هدبة بن الخشرم العذري: ٢٢١
أبو هريرة: ٢٧٢، ٣٧٩هـ
هشام بن عبدالملك: ٣٦٠
هشام بن عمرو الغوطي: ٤١٢، ٤٣١
هلال بن معاوية التغلبي: ٣١، ٣٢
الهيثم بن عدي: ٤٢٢

(و)

الواثـق: ٢٥٧
وكيــع: ٢٩٣، ٢٩٤
الوليد بن عبدالملك: ٢٦، ١٢٠، ٢٥٧
أم الوليد: ١١٧

(ي)

يحيى بن خالد: ٣٤٤
يحيى بن نوفل: ١١٦، ١١٧
يزيد بن أنس: ٢٤٠
يزيد بن المهلب: ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٩
يموت بن المزرع: ٤٣٨
يوسف ـ عليه السلام ـ ٣١٤
الشيخ يوسف: ٢٩٦، ٢٩٧

# (٤) فهرس الأماكن

أبنى: ٢٥٠
أجياد: ١٠٦
أشبيلية: ٩٥، ٩٦
ألمانيا: ٢٦٢
أمريكا: ١٠٠
بئر ابن ضمرة: ٢٤٨
برج الشهداء: ٩٥
البصرة: ٦٢، ٣٨٥
بغداد: ٣٤، ١١٨
بلخ: ٢٩٠، ٢٩١
بيت المقدس: ٣٩٦
توجه: ٢٧
جرول: ١٠٦
الجزيرة: ٢٤٠، ٣٢٢
جليقة: ٩٦
الحيرة: ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٠
الخورنق: ٤١١هـ
مدينة خولان: ٢٤٨
الرقة السوداء: ١٥٦
الرملة: ١٤٣
الرياض: ٢٨٨، ٢٩٩
ريع الحجون: ١٠٦
الري: ٢٩٦
سجن خالد: ١٥٦
سرية نخلة: ٢٤٧
سكة سباتوش: ٢٧٦
الشـــام: ٢٥، ٤٠، ١٠٨، ١١٢، ١٤٣، ١٥٦، ٢٥٢، ٣١٣، ٤١٠
الشرائع: ١٠٢
الششه: ١٠٦
شعب عامر: ١٠٦
صفين: ٤٢٨
الطائف: ١٠٥
طرسوس: ٣٥، ٣٦
العراق: ١٠٨، ٣١٩
عُمَـــان: ٤٢٢
عنيزة: ١٠٢، ١٢٦، ١٤٦، ٢٨٨
فارس: ١١٢
القاوسان: ٤٢٢
القصيم: ١٤٦
قهوة عصمان: ١٠٦
الكوفة: ٤١٦
محلة الخمار: ٢٩٦
المدائني: ٣٠١
المدينة المنورة: ١١١، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٣
مـرو: ٦٢
مصـــر: ١١٢
مكة: ٣٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٦٥، ٢٨٨، ٣١٤، ٣٤٥، ٤٢٤

مـؤتـة: ٢٥
طريق النجدية: ٢٥
نخـــلة: ٢٤٩
نيسـابور: ٢٩٦
وادي بستان ابن عامر: ٢٤٧
وقعة بدر: ٢٤٥
يوم ذي قار: ٢٤٦
اليمن: ١٣٣، ١٣٤

* * *

# (٥) فهرس المراجع والمصادر


١ - أخبار الظراف والمتماجنين

لأبي الفرج عبدالرحمن الجوزي

تقديم: عبد الأمير مهنا

دار الفكر اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٩٩٠

٢ - أخبار القضاة ١ - ٣

لمحمد بن خلف بن حيان (وكيع)

عالم الكتب ـ بيروت

٣ - أخبار مجموعة فتح الأندلس

تحقيق: إبراهيم الإبياري

دار الكتب المصرية : ١٩٩٠م

٤ - آداب الملوك

لأبي المنصُور عبدالملك الثعالبي

تحقيق: الدكتور جليل العطية

دار المغرب الإسلامي ـ الطبعة الأولى : ١٩٩٠م

٥ - أدب الدنيا والدين

لأبي الحسن الماوردي

شرح: محمد كريم راجح

دار إقرأ ـ بيروت

٦ - الإشــــراف

لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا

تحقيق الدكتور: نجم عبدالرحمن خليفة

مكتبة الرشد ـ الرياض

الطبعة الأولى : ١٤١١هـ / ١٩٩٠م

٧ - **كتــاب الأمــالي**

لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي

دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٨ - **البصـائر والذخـائر**

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق الدكتورة: وداد القاضي

دار صادر ـ بيروت

٩ - **كتاب البغـــال**

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

شرح الدكتور: علي بوملحم

دار مكتبة الهلال ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٩٩١م

١٠- **بهجة المجالس، وشحذ الذهن والهاجس**

لأبي عمر يوسف بن عبدالله القرطبي

تحقيق: محمد مرسي الخولي

دار الكتب العلمية ـ بيروت

١١- **البيان والتبيين**

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: عبدالسلام هارون

الطبعة الأولى ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٢- **تاريخ بغداد ومعه المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**

لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي

دار الكتب العلمية ـ بيروت

١٣- **تحفة العروس ، ونزهة النفوس**

لعبدالله محمد بن أبي القاسم التجاني

تحقيق: محمد إبراهيم الدسوقي

مكتبة ابن سيناء

١٤- **تحفة الوزراء**
المنسوب لأبي منصور عبدالملك الثعالبي
تحقيق: حبيب علي الراوي، والدكتورة ابتسام مرهون الصفار
مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٧م

١٥- **تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين**
لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق: محمد إبراهيم سليم
مكتبة القرآن

١٦- **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**
لخليل بن أيبك الصفدي
المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت

١٧- **تهذيب الأخلاق**
لعبدالحي بن فخر الدين الحسيني
تقديم: أبي الحسن علي الحسني الندوي
منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت

١٨- **حدائق الأزهار**
لأبي عاصم الغرناطي
تحقيق: أبو همام عبداللطيف عبدالحليم
المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

١٩- **حياة الحيوان الكبرى**
لكمال الدين الدميري (١ - ٢)
دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان

٢٠- **الحيوان**
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
دار إحياء التراث ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م

٢١- **الذهب المسبوك في وعظ الملوك**
لأبي عبدالله محمد بن نصر الحميدي
تحقيق: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
والدكتور: عبدالحليم عويس
عالم الكتب ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

٢٢- **ربيع الأبرار، ونصوص الأخبار**
لمحمد عمر الزمخشري
تحقيق الدكتور: سليم البعيمي

٢٣- **رجال من التاريخ**
لعلي الطنطاوي
دار الفكر ـ الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

٢٤- **روضة العقلاء، ونزهة الفضلاء**
لأبي حاتم محمد بن حِبّان البستي
تحقيق : محمد عبدالرزاق حمزة ، ومحمد حامد الفقي
مطبعة السنة المحمدية : ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م

٢٥- **سـراج المـلوك**
لمحمد الوليد الطرطوشي
تحقيق : جعفر البياتي
نشر : رياض الريس للكتب والنشر

٢٦- **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**
لجمال الدين بن نباته المصري
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

٢٧- **كتاب العقد الفريد**
لأحمد بن محمد بن عبد ربه
فهرسة : محمد فؤاد عبدالباقي ، ومحمد رشاد عبدالمطلب
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م ـ القاهرة

٢٨- العقـل وفضـله
لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا
حققه وعلق عليه: لطفي محمد الصغير
دار الرايه ـ الرياض ـ الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م

٢٩- عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة
لأبي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠١هـ / ١٩٨١م

٣٠- عيـون الأخبـار
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة
تحقيق: الدكتور يوسف علي الطويل
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان

٣١- الكامل في التاريخ
لأبي الحسن علي بن أبي الكرم (ابن الأثير)
دار الفكر ـ بيروت

٣٢- الكـامـل
لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد
تحقيق: الدكتور محمد أحمد الدالي
مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية : ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

٣٣- الكشـــكول
لهباء الدين العلوي
تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي
دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)

٣٤- لطائف اللطـف
أبو منصور عبدالملك الثعالبي
تحقيق: الدكتور عمر الأسعد
دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى : ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

٣٥- **مجالس ثعلب**
لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب
تحقيق: عبدالسلام هارون
دار المعارف ـ الطبعة الخامسة

٣٦- **المحاسن والمساوئ**
لإبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م

٣٧- **محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء**
للراغب الأصبهاني
اختصار: إبراهيم زيدان
دار الآثار ـ بيروت

٣٨- **معجم الأدباء**
لياقوت الحموي
دار إحياء التراث ـ بيروت

٣٩- **كتاب المغازي**
لمحمد بن عمر بن واقد
تحقيق: الدكتور مَارْسْدِنْ جونز

٤٠- **المنمق من أخبار الأصمعي**
لأبي محمد بن عبدالله بن أحمد الرَّبعي
أنتقاء: ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي
تحقيق: محمد مطيع الحافظ
دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى: ١٩٨٧م

٤١- **الموشّى ، أو الظرف والظرفاء**
لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء
دار صادر ـ بيروت

# (٦) فهرس أبيات الشعر


(أ)

| | | |
|---|---|---|
| والذي إن أشار نحوك لطما | تبع اللطم نائل وعطاء | ١٤١ |

(ب)

| | | |
|---|---|---|
| وعد من الرحمن فضل ونعمة | عليك إذا ما جاء للعرف طالب | ٢١٧ |
| اصحب الأخيار وارغب فيهمُ | رب من صاحبته مثل الجرب | ٢٢٢ |
| فلله عينا من رأى كقضية | قضى لي بها شيخ العراق المهلب | ٢٩ |

(ت)

| | | |
|---|---|---|
| سأشكر عمراً إن تراخت منيتي | أيادي لم تمنن وإن هي جلت | ٣٨٣ |

(ج)

| | | |
|---|---|---|
| هل علي ويحكما | إن لهوت من حرج | ٢٤ |
| تزوجت أبغي قرة العين أربعا | فيا ليت أني لم أكن أتزوج | ٢٠٧ |

(د)

| | | |
|---|---|---|
| وبالمعقلين لنا معقل | صعدنا إليه بصم الصعاد | ٣٢ |
| ابل الرجال إذا أردت إخاءهم | وتوسمن فعالهم وتفقد | ٢٢١ |
| ولست أرى السعادة جمع مال | ولكن التقي هو السعيد | ٢١٦ |
| رهنت يدي للعجز عن شكر بره | وما فوق شكري للشكور مزيد | ٣٩٨ |
| لم أر محبوسا من الناس واحداً | حبا زائراً في السجن غير يزيد | ١٦٤ |

(ر)

| | | |
|---|---|---|
| الحمد لله رب العالمين | لما يحبه الملك الأعلى ويختار | ٣٨٧ |
| تغني أنت في ذممي وعهدي | وذمة والدي ألا تضاري | ٢٨ |
| إذا كان شكري نعمة الله نعمة | علي له في مثلها يجب الشكر | ٣٨٨ |
| إذا أنا أعطيت القليل شكرتم | وإن أنا أعطيت الكثير فلا شكر | ٣٩٩ |

| | | |
|---|---|---|
| علامة شكر المرء إعلان حمده | فمن كتم المعروف منهم فما شكر | ٣٩٨ |
| يـد المعـروف غنـم حيث تسـدى | تحملهـــا شكـــور أم كفـــور | ٣٩٧ |
| إذا المرء لم يشكر قليلا أصابه | فليـس لـه عنـد الكثير شكـور | ٣٩٠ |

(ض)

| | | |
|---|---|---|
| ولـولا بنيـات كـزغـب القطـا | رددن مــن بعــض إلى بعــض | ٣٢٥ |

(ع)

| | | |
|---|---|---|
| ومن يسد معروفا إليك فكن له | شكوراً يكن معروفه غير ضائع | ٣٩٢ |
| وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا | فـإنـك راء مـا حييـت وسـامـع | ٢٢١ |

(ل)

| | | |
|---|---|---|
| وجـدت أبي قـد أورثـه أبـوه | خـلالا قـد تعـد مـن المعـالي | ٢١٩ |

(م)

| | | |
|---|---|---|
| صلى فأعجبني وصام فرابني | نح القلوص عن المصلي الصائم | ٣٢١ |
| حافظ على الشكر كي تستجزل القسما | من ضيع الشكر لم يستكمل النعما | ٣٩١ |
| فكن شـاكـراً للمنعمين لفضلهـم | وأفضـل عليهـم إذ قـدرت وأنعـم | ٣٩٣ |
| الشكـر يفتـح أبـوابـا مغلقـة | لله فيهـا على مـن رامـه نعـم | ٣٩٤ |

(ن)

| | | |
|---|---|---|
| فلو كان يستغني عن الشكر ماجد | لعـزة ملـك أو علـو مكـان | ٣٨٩ |
| تـزوجـت اثنتين لفـرط جهلي | بمـا يشقـى بـه زوج اثنتين | ٢٠٤ |
| وما من شيمتي شتم ابن عمي | ومـا أنـا مخلـف من يـرتجيـني | ٢٢٠ |
| فـآبـوا بـالنهـاب وبـالسبـايـا | وأبنـا بـالملـوك مصفـدينـا | ١٥٣ |
| أجـود بمكنـون التـلاد وإنـني | بسرك عمـن سـالـني لضنين | ٢١٨ |

(هـ)

| | | |
|---|---|---|
| ومن يشكر العرف الصغير فإنه | سينمي ويجتر المزيد أصاغره | ٣٩٤ |
| شكـــر الإلـــه نعمـــة | مـــوجبـــة لشكـــره | ٣٨٩ |
| وإذا اصطنعـــت إلي أخيـ | ـك صنيعـة فـانـس الصنيعـة | ٣٩٥ |
| بنيتـي إن نـام نـامـي قبلـه | وأكـرمـي تـابعـه وأهلـه | ١٩٣ |

## نبذة عن المؤلف :

- ولـد عام ١٣٤٤هـ في مدينـة عنيـزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصـل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصـل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عينِّ في العـام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عينِّ وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .

## كتب صدرت للمؤلف :

- نشـر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عـام ١٣٩٦هـ كتـاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهـر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السِّرية، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- مـن حطـب الليـل، نشـر فـي عـام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء الإحدى عشر وبين يديك الجزء الثاني عشر .

## التـوزيـع

تطلب الأجزاء الإثنا عشر من كتاب «إطلالة على التراث» والأجزاء الخمسة من كتاب «أي بني»

مـن مـؤسـسـة الجـريسي للتـوزيـع


الـريـاض ١١٤٣١ ص. ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤

جـدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الـدمـام ت : ٨٢٧١٨١١

القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨



مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٩٦٠ (مـج ١٢)